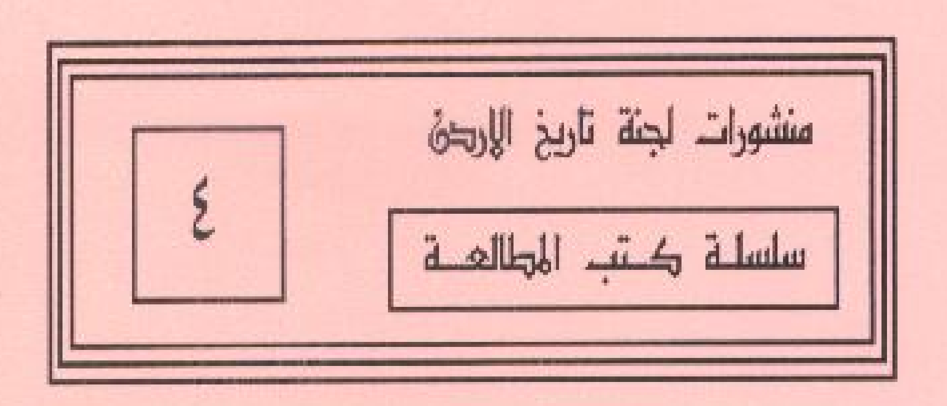


الحسين بن علي
والثورة العربية الكبرى

الطبعة الثانية

سليمان موسى

منشورات لجنة تاريخ الأردن

٤

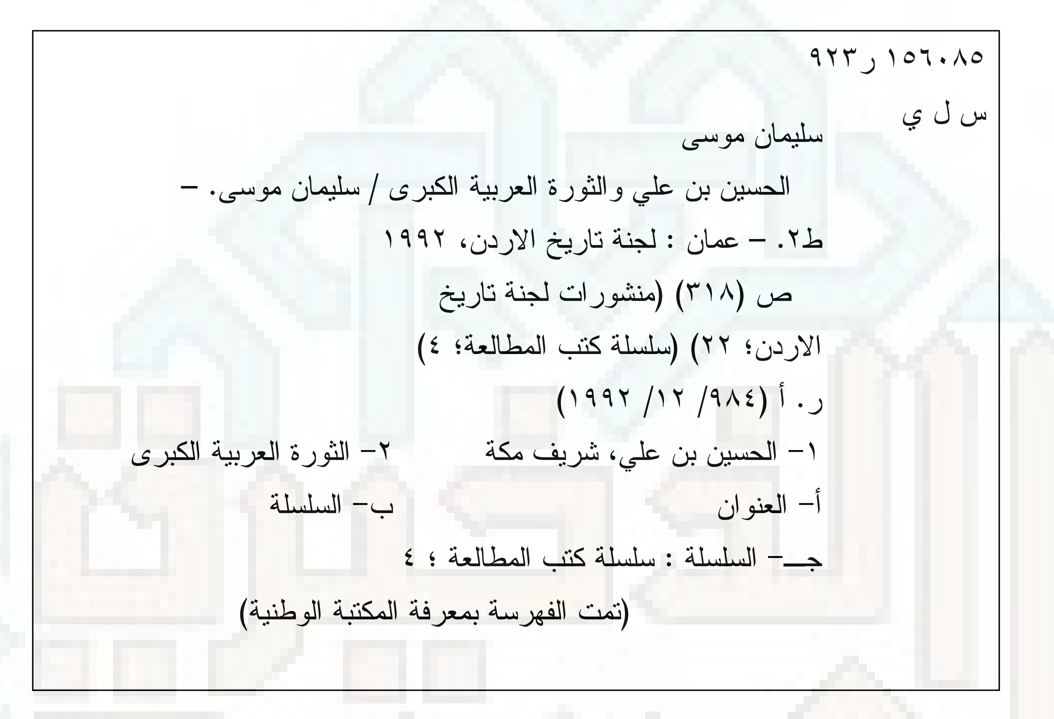
سلسلة كتب المطالعة

الحسين بن علي

والثورة العربية الكبرى

الطبعة الثانية

سليمان موسى



٩٢٣ر ١٥٦٠٨٥
س ل ي
سليمان موسى
الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى / سليمان موسى. –
ط٢. – عمان : لجنة تاريخ الاردن، ١٩٩٢
ص (٣١٨) (منشورات لجنة تاريخ
الاردن؛ ٢٢) (سلسلة كتب المطالعة؛ ٤)
ر. أ (٩٨٤/ ١٢/ ١٩٩٢)
١– الحسين بن علي، شريف مكة ٢– الثورة العربية الكبرى
أ– العنوان ب– السلسلة
جـ– السلسلة : سلسلة كتب المطالعة ؛ ٤
(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

الطابعون

جمعية عمال المطابع التعاونية

هاتف ٢- ٦٣٧٧٧١ ص. ب ٨٥٧ – فاكس ٦٣٧٧٧٣

عمان – الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

يسر " لجنة تاريخ الأردن " أن تقدم للقراء – ضـمن " سلسلة كتب المطالعة " – كتاب "الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى " * الذي أعده السيد سليمان موسى المؤرخ الأردني المعروف، وهو الكتاب الذي يروي سيرة الشريف الحسين بن علي طيب الله ثراه، قائد الثورة العربية الكبرى، ورائد نهضة العرب الحديثة، وكان قد صدر قبله في هذه السلسلة :

١- امارة شرقي الأردن : نشأتها وتطورها في ربع قرن ١٩٢١ – ١٩٤٦م، للسيد سليمان موسى.

٢- تاريخ الأردن السياسي المعاصر ما بين عامي ١٩٥٢ – ١٩٦٧م، في طبعتيه الأولى والثانية، للدكتور حازم نسيبة.

٣- السكان والحياة الاجتماعية، للدكتور أحمد الربايعة، والدكتور أحمد حمودة.

بالاضافة إلى أربعة عشر كتاباً صدرت في السلاسل الثلاث الأخرى من أعمال هذه اللجنة، وهذه السلاسل هي :

أ- سلسلة الكتاب الأم (وقد صدر فيها ثمانية كتب).

ب- سلسلة البحوث والدراسات المتخصصة (وقد صدر فيها خمسة كتب).

جـ- سلسلة المصادر والمراجع (وقد صدر فيها كتاب واحد).

و " لجنة تاريخ الأردن " لجنة مستقلة، تتخذ مقرها في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية (مؤسسة آل البيت) بعمّان، ألفها صاحب السمو الملكي الأمير الحسن ولي العهد من رؤساء المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية، والجامعة الأردنية، وجامعة اليرموك، وجامعة مؤتة، وجامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية، والجمعية العلمية الملكية، بعد أن وجه صاحب الجلالة الهاشمية الملك الحسين رسالة إلى سموه – في العشرين من شوّال ١٤٠٧هـ الموافق ١٦ حزيران

---

* صدرت الطبعة الأولى من الكتاب في عمّان (دار النشر والتوزيع والتعهدات) عام ١٩٥٧ م.

١٩٨٧م – طلب جلالته فيها أن يتولى سموه تأليف لجنة مستقلة " من المفكرين والمؤرخين المرموقين من الجامعات ومراكز البحث العلمي من الذين يواكبون تطور بلدنا، ويشاركون في مسيرته المباركة، ليقوموا بوضع خطة متكاملة المراحل ذات مستوى علمي رفيع، ومنهج موضوعي يتوخى الحقيقة وحدها، ولا يقصد الا وجه الحق، وتستخلص من هذه البحوث والدراسات سلسلة الكتب لمختلف الفئات من الناشئة الى جمهرة المثقفين إلى كبار المتخصصين: للتعليم والمطالعة والمراجعة ".

وقد وضعت اللجنة خطة متكاملة لعملها لحصر المصادر والمراجع والوثائق المتعلقة بتاريخ الأردن وكتابة تاريخ الأردن منذ أقدم العصور حتى التاريخ المعاصر، واستكتبت ما يزيد على مئة وعشرين من الباحثين المتخصصين – من داخل الأردن وخارجه – لاعداد تلك البحوث والدراسات والفهارس، وهي توالي نشر البحوث والدراسات والفهارس فور انجازها.

والله نسأل أن يجد القراء – وخاصة جمهرة الشباب – في هذه السيرة الفائدة العلمية والقدوة الحسنة، تمثّلاً ببطل قدم أعظم التضحيات من أجل المبادئ السامية التي حملها وكافح حتى النهاية لتحقيقها.

الدكتور ناصر الدين الأسد

رئيس لجنة تاريخ الأردن

رئيس المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية

(مؤسسة آل البيت)

عمّان في :

رجب الفرد ١٤١٣ هـ

كانون الثاني (يناير) ١٩٩٣م.

مقدمة الطبعة الثانية

ألّفتُ هذا الكتاب منذ مدة طويلة تعود إلى سنة ١٩٣٩، ولكن لم يُتح له مجال النشر إلا بعد ثمانية عشر عاماً (١٩٥٧). وها قد مرّ خمسة وثلاثون عاماً منذ ظهور طبعته الأولى، وفي أثنائها تبدّت الحاجة إلى نشر طبعة جديدة منه، لاعتبارات كثيرة أهمها انه الكتاب الوحيد الذي يروي سيرة رجل عربي عظيم ترك بصماته القوية على صفحات تاريخ العرب الحديث.

حقاً إن الكتب التي تتناول تاريخ البلاد العربية في آسيا، منذ بداية القرن العشرين حتى يومنا هذا، لا يكاد يخلو واحد منها من ذكر الشريف حسين (الملك حسين بن علي)، وما قام به من ثورة، هي بحقّ ثورة العرب الكبرى. بل أن كثيراً من هذه الكتب تحفل صفحاتها بما قام به من أعمال وبما نتج عن الثورة التي قادها من أحداث وتطورات. ولكن هذا الكتاب يبقى الوحيد الذي يتناول سيرة حياته بصورة متسلسلة من البداية إلى النهاية.

لا حاجة للقول إن وثائق عديدة ظهرت للعيان بعد تأليف هذا الكتاب، وألّفت استناداً إليها مؤلفات عديدة باللغتين العربية والإنكليزية*. ولكن جميع ما ظهر بعد ذلك من كتب لا يزيد عن كونه من قبيل التفاصيل. ذلك لأن الحقائق الأساسية كانت معروفة في المصادر التي اعتمدت عليها أصلاً. إن سيرة الملك حسين تؤلف جزءاً من تاريخ النهضة القومية الحديثة، وهو جزء مشرّف يتجلى من خلاله:

- طموح العرب إلى الحرية والوحدة.
- جهاد العرب في سبيل الحرية والوحدة.

لقد اضطلع الحسين بمسؤولية الثورة من أجل تحقيق هدف كبير، لم تلبث الأحداث أن أثبتت أنه كان أكبر من طاقات الأمة العربية آنذاك. فالأمة العربية لم تكن بمجموعها مستعدة تلقائياً لقبول الوحدة، بعد أمدٍ طويل من الضعف والتخلّف. إلا أن الثورة كانت في حدّ ذاتها محاولةً باسلة وضعت اللبنة الأولى على أول الطريق. كما أن ثبات الحسين على مبادئ الثورة، قدّم مثلاً عظيماً يوازي عظمة ذلك الطموح الكبير.

إن قيام الثورة خلق لها خصوماً كثيرين ممن تعارضت مصالحهم مع طموحاتها. ولم يلبث إخفاق الثورة في تحقيق تلك الطموحات، أن خلق خصوماً آخرين – عن قصد أو غير قصد. ومن هنا أود – بعد أن أمضيت سنواتٍ طوالاً في دراسة الثورة – أن أضع أمام القارئ النقاط الأساسية التالية:

أولاً – إن الثورة هي ثورة القومية العربية، الثورة التي فكّر بها وعمل من أجلها أعضاء الجمعيات العربية المثقفون – وهم ممثلو ضمير الأمة في ذلك العهد والمعبّرون عن طموحاتها. أما الشريف حسين فهو الزعيم الفذ الذي تبنّى الفكرة وتحمّل تبعات القيادة، وواجه الأخطار، وثبت على المبدأ وضحّى في سبيله. وهو القائد الذي لولاه لبقيت أفكار الطليعة العربية ردحاً من الزمن، نظريات وأحلاماً وتطلعات.

ثانياً – إن الثورة قامت على مبدأ المؤاخاة بين القومية العربية والإسلام. فالشريف حسين وجميع الذين عملوا من أجل النهضة والثورة، لم يروا أي تناقض أو تعارض بين القومية العربية والدين الإسلامي، بل رأوا أن لا غنية لأحدهما عن الآخر، إلى حدّ أن الحسين قال في منشوره الأول "إن قتل اللغة العربية قتل للإسلام نفسه، فالإسلام في الحقيقة دين عربي، بمعنى أن كتابه أُنزل باللغة العربية... وقد قال الله في

سورة الرعد: ﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾ ". كما استشهد بالحديث الشريف "إذا ذلّت العرب ذلّ الإسلام". وعندما كتب مكماهون إلى الشريف يقترح استثناء منطقة الساحل السوري (لبنان) من حدود الدولة السورية المنشودة، على زعم أنه "لا يمكن أن يُقال أنها عربية محضة" ردّ عليه الشريف بكل توكيد قائلاً إنها "عربية محضة ولا فرق بين العربي المسيحي والمسلم فإنهما إبنا جدٍّ واحد... ". واستشهد بقول الخليفة عمر بن الخطاب "لهم ما لنا وعليهم ما علينا". ولا يجب أن ننسى أن فيصل كاد ينجح في تطبيق هذا المبدأ الوسطي العظيم، عن طريق توحيد سورية ولبنان، لولا أن حالت السياسة الفرنسية دون ذلك. وفي الحقيقة فإن ثقافة المسيحيين العرب هي ثقافة إسلامية. وأنا المسيحي العربي أقول: لا عجب في ذلك، فالمسيحيون العرب جزء لا يتجزأ من الأمة العربية – أمة محمد. ولي الفخر والشرف أن يكون النبي العظيم والرسول الكريم، زعيم أمتنا الأكبر وسيدها الأعظم.

ثالثاً – إن قيام الثورة كشف جميع القوى التي تتعارض مصالحها مع أهداف الثورة القريبة والبعيدة (١) بريطانيا، من خلال اتفاقية سايكس – بيكو ووعد بلفور (٢)، فرنسا من خلال اصرارها على استعمار سورية (٣) الإتحاديون الذي ادّعوا أن الثورة شقّت وحدة المسلمين وتحالفت مع الإنكليز، بينما كانوا هم الذين شقّوا وحدة المسلمين باضطهادهم العرب، وتحالفوا مع المانيا قبل أن يتحالف العرب مع بريطانيا (٤) الأمراء العرب في شبه الجزيرة، الذين اعتقدوا أن الوحدة قد تقضي على إماراتهم.

رابعاً – لم يرفع العرب أسلحتهم في وجه الدولة العثمانية، بل رفعوها في وجه عصابة الاتحاد والترقي، التي سارت على سياسة عنصرية تهدف إلى تتريك العرب (وعملية التتريك كانت أمراً واقعاً وحقيقياً). يدل على ذلك أن الدعاء في الكعبة المشرّفة ظل يُقام باسم السلطان – الخليفة

سنة كاملة بعد إعلان الثورة. كما أن الحسين لم يطعن الدولـــة فـــي الظهر وعلى حين غرّة، بل أقدم على مجازفة خطيرة عندما صـــارح الاتحاديين بمطالب العرب قبل قيام الثورة بثلاثة أشهر.

خامساً – قبل كل شيء وبعد كل شيء، كانت الثورة تعبيراً حياً عـــن إرادة شعب عريق، نهض من سبات القرون، يطلب حريته ويتمّسك بهويته القومية. وأي طلب أعظم من هذا وأجلّ ؟

في اعتقادي أن الثورة حقّقت الكثير من أهدافها، وإن لم تحقق كل أهدافها. إن إخفاقها في تحقيق هدفها الأكبر – قيام دولة عربية واحدة كبرى – يجب أن لا يحجب عن أنظارنا إنجازاتها الكثيرة. ويكفي الثورة فخراً أنها شقّت الطريق: طريق العمل من أجل الحرية والهوية القومية. ثم إن القيام بالثورة كان في حينه عملاً تقدمياً عظيماً، اتجه إلى نزع نير دولة ظالمة متخلفة، حتى أن الأتراك أنفسهم– والدولة العثمانية دولتهم على وجه التحديد – لم يلبثوا أن عملوا على التخلص من أغلالها، وأخذوا ببناء دولةٍ عصرية جديدة. من هنا فإن الثورة العربية جديرة بأن تكون مدار فخر واعتزاز لكل عربي.

كنتُ ألّفت هذا الكتاب في الأصل من منطلق الغيرة على القومية وانتصاراً للحقيقة. وبهذا المعنى أقدّمه مرةً أخرى إلى جمهرة القراء. والله ولي التوفيق.

عمان ٧ تشرين الأول ١٩٩٢ **سليمان موسى**

---

* لمن يريد الاستزادة في هذا المجال أقول أن كتاباً باللغة الإنجليزية ظهر قبل حوالي ١٣ سنة عن حياة الحسين بن علي، وهو من تأليف الأستاذ راندل بيكر Randall Baker: King Hussain & The Kingdom of Hejaz, The Oleander Press, Cambridge, 1979 كما ظهرت كتب أخرى باللغة العربية، أذكر من بينها : (الثورة العربية الكبرى) لأمين سعيد، (يقظة العرب) لجورج انطونيوس (ترجمة ناصر الدين الأسد واحسان عباس)، مذكرات أحمد قدري وفائز الغصين وتحسين العسكري وعلي جودت، (جيل الفداء) لقدري قلعجي، (الثورة العربية الكبرى) للعماد مصطفى طلاس، (دراسات في الثورة العربية الكبرى) لعدد من الأساتذة، وأذكر أيضاً كتبي التالية : الحركة العربية، المراسلات التاريخية (في ثلاثة أجزاء)، صفحات مطوية، مذكرات الأمير زيد، الثورة العربية الكبرى : وثائق وأسانيد، الحرب في الحجاز.

مقدمة الطبعة الأولى

نشأت منذ نعومة أظفاري، في غمرة الأحداث التي تلمّ بالوطن العربي، وتفتح وعيي على النضال الذي كان يقوم به أبناء قومي في فلسطين. وعندما اتسعت آفاقي الذهنية شاهدت بلاد العرب جمعاء ترزح تحت نير الغزاة والمستعمرين. يستعبدون أهلها ويختلسونخيراتها: فرنسا في مراكش والجزائر وتونس، وايطاليا في طرابلس وبرقه، وبريطانيا في مصر والسودان وفلسطين والأردن والعراق وأطراف الجزيرة العربية كلها. ورحت أتساءل: كيف أصبحت بلادنا موطئاً لنعال الغزاة ؟ وفي سبيل الوصول إلى جواب على هذا السؤال الكبير تعرّفت على الحسين بن علي.

هذا الرجل الذي أعلن الثورة على الاستعمار التركي، والذي نشر علم العروبة ونادى باستقلال العرب، وصمد في وجه الاستعمار الأوروبي. وأصرّ على نيل أهدافه. لم يحد قيد شعرة، ولم يخامره شك في عدالة قضية قومه. ووعى حقاً ما يراد بفلسطين، فوقف كالطود الشامخ، ينافح ويكافح، حتى تمكن الغزاة منه فصرعوه.

لو وقّع المعاهدة مع بريطانيا لبقي العرش الهاشمي في الحجاز، ولكن الحسين كان يرقب حكم التاريخ، وكان يدرك أن وجدان الشعب العربي يتوجه إليه ويتمثل فيه... كان يعلم أن الأمم التي تطلب حرّيتها لا بدّ لها من تقديم الضحايا والشهداء، ورضي أن يكون هو الضحية والشهيد.

إن تاريخ الحسين بن علي جزء لا يتجزأ من تاريخ الأمة العربية، بل

هو صورتها الواضحة وفكرتها الساطعة في حقبة عنيفة مـن حقبهـا. ولقـد أحسست إن وجداني القومي يدعوني إلى تأليف كتاب مستقل يتناول حياة هذه الشخصية الفذّة، فوضعت هذا السفر منذ بضعة عشر عاماً. ومع أنني قمـت بتنقيحه مجدداً، إلا أنه بقي في هيكله العام على حالته الأولى.

لقد قرأ مسودّة هذا الكتاب كل من : الشيخ فؤاد الخطيب، وفخري البارودي، وشكري شعشاعه، ومحمد علي العجلوني، وسعيد الدرّه، وخيري حماد، وعيسى الناعوري، وجميعهم أثنوا عليه.

إنني لا أكتب عن الحسين بن علي لأنه كان ملكاً أو شريفاً، بل لأنه كان بطلاً من أبطال العروبة، ولأنه كان مناضلاً عنيداً لا يترخص فيما يختص بالحقوق الوطنية، ولأنني أعتقد أن سيرة حياته تحتوي على الكثير من العبر، وتعطي العديد من الأمثلة الرائعة.

لقد ناضل الحسين في سبيل الوحدة، وفي سبيل التحرر. ونحن ما نزال حتى اليوم نناضل لتحقيق هذين الهدفين.

وربما اختلفت بعض مفاهيمنا اليوم عن المفاهيم التي كان يعمل الحسين في إطارها. ولكني أرجو أن ينظر القارئ بعين الاعتبار إلى المفاهيم التي كانت سائدة في المجتمع العثماني الذي نشأ فيه الحسين. كما أرجو أن لا نقيس عظمته بمقدار ما حقق لنا بصورة مباشرة، بل بمقدار سعيه واخلاصه وشجاعته، لا سيما والحسين عندما تعاقد مع الإنجليز لم يكن يعرف عنهم ما نعرفه نحن اليوم، فمعرفتنا حصيلة تجارب مريرة لم تكن قد وقعت يومذاك.

ونحن اليوم نعرّف الأمة العربية بأقطارها الآسيوية والأفريقية، ولكن هذا التعريف لم يكن قد تبلور في عهد الحسين، بل كان مقتصراً على الجزء الآسيوي من بلاد العرب.

لقد حدثت في بلاد العرب حركات كثيرة في القرن الذي سبق ثورة الحسين، فهناك حركة الوهابيين والسعوديين، وحركة محمد علي، حركة عرابي

وغيرها. ولكن ثورة العرب بزعامة الحسين تتميز عما سبقها من ثورات: فهي لم تكن دينية كحركة الوهابيين، ولم تكن وليدة المطامح الشخصية كحركة محمد علي، ولم تكن موضعية كحركة عرابي، بل قامت على أساس قومي شامل، وعلى قاعدة شعبية واسعة، لأنها تبنّت أهداف الطليعة العربية، ولأنها طالبت بإنشاء دولة موحدة عظيمة.

إن الثورة العربية الكبرى قد شقت الطريق للقومية العربية لأول مرة منذ عدة قرون. لو كان الوعي القومي متغلغلاً في نفوس العرب لما فشل الحسين في تحقيق أهداف الطليعة العربية، ولكن الأكثرية الساحقة من سكان هذا الوطن كانت ترسف في أغلال الجهل المطبق والفقر الممضّ. وبسبب انعدام الوعي بين عامة الناس، استطاع الاستعمار أن ينجح في تمزيق البلاد العربية أشلاء متناثرة، واضطرّ قومنا إلى مواصلة نضالهم حتى اليوم.

لم يتيسر لي نشر هذا الكتاب من قبل، رغم أني قمت بمحاولات كثيرة في هذا السبيل، ولذ أجد لزاماً علي أن أوجه الشكر للاستاذ عبد الرحمن الكردي الذي أخذ على عاتقه هذه المهمة الجليلة.

لقد قال أحد المؤرخين: إن سيرة الحسين بن علي جديرة بأن تملأ عدة مجلدات، وها أنا أقدم مجلداً واحداً لأبناء العروبة، وأعتذر سلفاً عما قد يجد فيه القارئ من نقص غير مقصود.

وإلى أولئك المولعين بتتبع أنباء البطولات في أبناء الأمم الأجنبية أقول: هاكم بطلاً عظيماً من قومكم، فتنسموا من سيرته عبير العظمة الشامخة.

شباط ١٩٥٧ **المؤلف**


الذخيرة العربية



لا أتنازل عن حق واحد من حقوق البلاد. لا أقبل إلا أن تكون فلسطين لأهلها العرب. لا أقبل بالتجزئة ولا أقبل بالإنتداب، ولا أسكت وفي عروقي دم عربي.

إن هذه النهضة عربية، تشمل كل عربي كائناً من كان، على شرط أن يكون صادقاً لوطنه مخلصاً لقومه.


الذخيرة العربية



القسم الأول

من الزاوية التركية الى المحيط العالمي


الذخيرة العربية

- ١ -

نسب الحسين ونشأته

الشريف حسين بن علي بن محمد بن عون بن عبد المعين بن أبي نُمَيّ، ويتصل نسبه من جهة والده بالنبي العربي العدناني. وهو نسب كريم يعتبره العرب خير نسب في تاريخهم منذ نشأة العائلة القرشية في مكة، المتحدرة من صلب اسماعيل بن ابراهيم الخليل.

ولد في الآستانة سنة ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣م خلال إمارة عبد المطلب بن غالب في مكة. وكان جده ووالده يقيمان يومذاك في عاصمة الدولة. وفي السنة الثالثة من عمره عيِّن جده محمد بن عون للمرة الثانية أميراً لمكة، فغادر الآستانة مع والده وجدّه إلى الحجاز.

ثم سافر والد الحسين إلى الآستانة بعد وفاة أبيه محمد بن عون عام ١٨٥٨م. ولم يرافقه الحسين، بل بقي في مكة منكباً على طلب العلم، في مدارس خاصة للأشراف، كانوا يقومون على أمرها بأنفسهم، بسبب انعدام المدارس المنظمة في الحجاز يومذاك. ثم ما لبث طويلاً حتى علم بانحراف صحة أبيه فسافر إلى الآستانة وأقام فيها إلى جانبه حتى توفي عام ١٨٧٠م.

وتختلف تربية الحسين اختلافاً كبيراً عن تربية غيره من أبناء الأشراف، فقد خالف والده فيه العادة المتبعة، إذ لم يبعث به إلى إحدى القبائل المجاورة لمكة، ولم يربّه تربية بدوية خالصة، يتلقن فيها أخلاق البداة في معايشتهم، ويتمرن على ركوب الخيل واحتمال المشاق، فنشأ حضرياً مدنياً، وأُولع بالدرس والمطالعة فحفظ مبادئ العربية، وتفقّه في أصول الدين وفروعه. وحفظ القرآن الكريم قبل أن يتجاوز العشرين من عمره. ورافقه في طلب

العلم فتى مصري الأصل هو الشيخ ياسين البسيوني الذي صار إماماً له فيما بعد.

وعاد الحسين بعد وفاة والده إلى الحجاز، فأقام فيها إلى جانب عمه الشريف عبد الله باشا بن محمد عون، وكان أميراً لمكة يومئذ. وأحبه عمه وقرّبه منه وعامله معاملة الأب لبنيه، ثم جعل يسيّره في المهمات ويوجهه لتذليل الصعاب، فسافر في أيامه إلى نجد، وطاف أكثر ما يلي الحجاز من شرقه، وعرف قبائل تلك الأنحاء وعشائرها، واختبر أحوال البدو وأساليب حياتهم، حتى صار الصلة الدائمية بين إمارة مكة والقبائل الحجازية وغيرها، ثم زوّجه عمه بابنته الشريفة عابدية وهو في عنفوان الشباب فأنجبت له من الأبناء علي وعبد الله وفيصل.

كان الحجاز حتى عام ٣٥٨ هـ ولاية تابعة لبغداد عاصمة الخلافة العباسية، لا يمتاز في إدارته وشؤون حكمه عن سواه من الولايات التابعة للخليفة. وحينما استولى الفاطميون على مصر وانتزعوها مع بعض البلدان الأخرى من العباسيين، اغتنم الأشراف الحسنيون الفرصة واستقلوا بالحجاز وأولهم جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد الثائر، وظلوا يتصرفون بأمورهم دون أن يخلو الأمر من منازعات داخلية فيما بينهم على الإمارة. إذ كانوا يستعينون تارة بأمير الحج الشامي وأخرى بأمير الحج المصري، ويقومون على تدبير أمور البلاد المالية بما ينفقه الحجاج، وبما يأتي من الإعانات للحرمين من أغنياء الإسلام. ولم يكن للفاطميين تأثير كبير على أحوال البلاد الإدارية إلا في فترات متقطعة وأحيان متباعدة.

وبقيت الأمور على هذا المنوال إلى أن كان ظهور الأتراك العثمانيين في الأناضول، ثم زحفهم على سورية وافتتاحهم مصر عام ٩٢٢ هـ (١٥١٧م) فقدّم شريف مكة طاعته للسلطان سليم، وأرسل إليه في القاهرة كتاب بيعته ودخوله في حضيرته، وكان يومذاك الأمير بركات بن أبي نمي. وأعطى السلطان نفسه لقب " خادم الحرمين " اكتساباً لعواطف العرب خاصة

والمسلمين عامة. وهي السياسة التي درج عليها العثمانيون في بدء دولتهم، فقلدوا الخلافة العربية، واتخذوا كثيراً من شعائرها، وكانوا يعلنون في كل مناسبة أنهم حماة الإسلام والمسلمين.

ينقسم الأشراف الذين تولوا إمارة الحجاز منذ انفصالهم عن العباسيين، إلى أربع طبقات: الموسويون والسليمانيون والهواشم، وقد حكمت هذه الطبقات الثلاث من سنة ٣٥٨هـ إلى ٥٩٨هـ. والطبقة الرابعة تبتدئ من قتادة بن ادريس من سلالة موسى الجون الشهير، وموسى هذا هو ابن حفيد الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب. ونبغ في هذه الطبقة محمد بن أبي نُمَيّ جد الأشراف الأكبر.

وحتى القرن الثاني عشر الهجري كان حق انتخاب شريف مكة محصوراً في بني بركات. ثم جرت منافسات عديدة بين بني بركات وبين أولاد عمهم، نتج عنها أن تسلم الإمارة ذوو زيد، ولم يكن فيهم منصب الشرافة وراثياً بل كان ينتقل بعد موت الشريف إلى أقوى رجال العائلة نفوذاً.

وغزا السعوديون الحجاز عام ١٢١٨هـ. فقاومهم الشريف غالب، واستمرت الحرب سجالاً بين الطرفين حتى تمكن السعوديون من افتتاح البلاد كلها عام ١٢٢٠هـ. وبقي الشريف غالب أميراً، وصانع الغزاة دون أن يخلص الود لهم، إذ أقام يكاتب محمد علي والي مصر وسلطان تركيا، مستنجداً بهما.

وقد بدأ الخلاف بين سعود أمير الوهابيين وبين اميري الحج الشامي والمصري، حينما هددهما بعدم السماح لهما بالحج مرة أخرى إذا أتوا بالمحامل ومعها الطبول والزمور، لاعتقاده أنها من البدع. واستحثّ السلطان محمود الثاني محمد علي في تجهيز حملة على نجد والحجاز، على أن يكون والياً عليهما أيضاً، فبدأت الحملة المصرية عام ١٨١١م واحتلت ينبع وما زالت تتقدم حتى استولت على الحجاز برمته بعد سنتين، ثم توغلت في نجد حتى استولت على الدرعية عاصمة السعوديين.

لم يأمن المصريون جانب الشريف غالب، فأجبروه على اعتزال العمل وأرسلوه إلى سلانيك، وعيّنوا ابن أخيه يحيى بن سرور أميراً بدلاً منه. وبقي يحيى في منصبه حتى عام ١٨٢٧، إذ عُيّن الشريف محمد بن عون للإمارة، وبذلك انتقل الحكم إلى الفرع الثالث من نسل أبي نمي. وسبب تعيين محمد ابن عون أنه كان ينافس غالب ويحيى على الزعامة في مكة، وقد انضم إلى جيش محمد علي إبان الحملة، وساعده مساعدة فعلية، فحفظ له محمد علي هذه اليد، وأقطعه خمسة آلاف فدان في مصر.

أقام المصريون في الحجاز ٢٨ عاماً، ثم انسحبوا منه في عام ١٨٣٩م (١٢٥٦هـ)، وحلّت حاميات عثمانية في المواقع الرئيسية محل الحاميات المصرية، وأصبح أمر شرافة مكة منوطاً بالسلطان العثماني.

وأرسلت الدول والياً من قبلها، فأصبحت السلطة ثنائية بينه وبين الشريف، مما أدى إلى المنافسة بينهما، فالوالي يمثل مصالح الحكومة التركية ويقود الجند النظامي. أما الشريف فيسعى للإحتفاظ بسلطته في المدن. وفي حكم القبائل، والإشراف على شؤون الحج والحجاج. وقد أدى التنافس بين الأمير والوالي، إلى تدخل الدولة، فنفي الشريف محمد بن عون إلى الآستانة عام ١٨٥١، ونصب الشريف عبد المطلب بن غالب، من ذوي زيد، مكانه.

ثم حصلت في الحجاز عام ١٨٥٦ فتنة أدت إلى عزل عبد المطلب، وإعادة محمد بن عون أميراً لمكة. وبعد وفاة محمد عام ١٨٥٨ أقرت الحكومة إمارة مكة في ابنه عبد الله، وبعد وفاته عُين أخوه الشريف حسين أميراً، وبقي في منصبه حتى قتل غيلة عام ١٨٧٩، فأعيد عبد المطلب بن غالب للإمارة، ثم عُزل بعد عامين، وعيّن الشريف عون الرفيق بن محمد بن عون أميراً عام ١٨٨٢.

وخلال إمارة عون الرفيق، ساد الحجاز ما ساد بقية بلاد الدولة العثمانية من سوء الإدارة، وفقدان الأمن، وانتشار الفوضى والفتن، وتفشي الرشوة، وتململ الناس من كثرة الجور والمظالم. وجاهر الحسين بمعارضته للسياسة

القائمة، فاستدعاه السلطان عبد الحميد إلى الآستانة عام ١٨٩٣، ليقيم فيها قريباً منه.

وبعد وفاة عون الرفيق، عيّن مكانه الشريف علي بن عبد الله أميراً، ولكنه عزل بعيد إعلان الدستور العثماني لمعارضته في الإنقلاب عام ١٩٠٨ ثم صدر الأمر بتعيين عمه عبد الإله أميراً، غير أنه توفي بعد يومين، فخلفه ابن أخيه حسين بن علي.

– ٢ –

الحسين في استانبول
١٨٩٣ – ١٩٠٨م (١٣٠٩ – ١٣٢٦هـ)

حينما عيّن الشريف عون الرفيق أميراً للحجاز، كان الحسين يقيم في مكة مع عائلته، وكان له إذ ذاك ابنان، علي الأكبر، وعبد الله الذي ولد في العام الذي تولى فيه عون الإمارة (١٨٨٢)، ثم ولد له فيصل بعد ذلك بعامين. وكان إلى ذلك التاريخ قليل الإختلاط بالناس كيما يظهر بمظهر عدم الاكتراث بالأمور وكمن لا يعنيه من شؤون السياسة شأن أو يحفزه لها حافز.

ولكن موقفه أخذ ينجلي رويداً رويداً، ثم صار لا يتحرّج عن التصريح بفساد بعض الأنظمة القائمة. كان يكره كل ما هو تركي ويعمل على إظهار نفسه بمظهر العربي الصميم في عاداته وتقاليده، وأخذ يبرهن على هذا بالنزوح إلى البادية في كثير من فصول السنة، ويقيم في واحاتها ويعيش بين قبائلها مطمئناً إلى الحياة بين البدو حريصاً على تنشئة أولاده كأولادهم، حتى أنه لم يحاول اتقان اللغة التركية التي كانت في ذلك العصر لغة أهل الجاه والرأي والسلطان.

وجهر بمعارضته لبعض أعمال عمه عون الرفيق أمير مكة، وأخذ ينتقد سياسته في إدارة الحجاز، فشكاه إلى السلطان طالباً إبعاده عن الحجاز لأن في وجوده خطراً على الأمن العام. وأخذ جواسيس الأتراك يوالون إرسال تقاريرهم إلى عبد الحميد بشأنه، فوصفوه بالعناد وبأنه ميال لإذكاء روح القومية والإستقلال وقالوا إن في آرائه خطراً على البلاد إذا هو أثارها في الوقت المناسب، وأضاف بعضهم أنه يطمح إلى الإمارة ويصرّح أنه أحق بها من غيره.

ولما كانت سياسة عبد الحميد تقوم على الأخذ بالشبهة، فقد قرّر استدعاءه إلى الاستانة ليكون فيها أسيراً مبجّلاً تحيط به عيون الأرصاد. وقد جاء في مقال للملك عبد الله نُشر في العدد الممتاز الذي أصدرته مجلة الهلال في نيسان عام ١٩٣٩ إيضاحاً لهذه الفترة، ننقل مه ما يلي :

"نفضت عن عيني إغفاءة الفجر في يوم من أيام سنة ١٣٠٨هـ (١٨٩٣م) وأنا في الطائف، فشعرت بحركة غير مألوفة في القصر مما يدل على نية الرحيل كإعداد الحقائب والألبسة، وسمعت همساً يدور بين الناس يمازجه شيء من القلق والحزن. ثم دخلت البهو على والدي جرياً على عادتي معه فوجدته يتناول غذاءه متهلل الجبين مشرق الأسرة، إلا أن الجدة كانت إلى جانبه لم تشاطره ما هو فيه من ارتياح، بل كانت محمرة العينين يعلو وجهها الأسى الكمين تحت قناع التجلّد. وإذا على طرف المتكأ مذكرة بالتركية وعليها طابع الولاية والقيادة. وهذه ترجمتها بالعربية "بما أن منطوق الإرادة السنية الملوكية التي تشرفت بتبليغها تقضي بحركة عطوفتكم بأول واسطة إلى دار السعادة كي تنالوا شرف المثول بين يدي حضرة صاحب الخلافة العظمى، أرجو إبلاغ يوم وتاريخ حركتكم إلى هذا المثني عليكم ".

ولقد رأيت الوالد يتلوها من غير ما انزعاج، ثم خرجت من بين يديه يساورني القلق، وبعد الغداء خرج الوالد ميمماً قصر الإمارة، وكان الأمير في ذلك الحين سيدنا المرحوم الشريف عون الرفيق بن محمد، وكان الجو بينهما غير ودي، فمكث ساعة أو أكثر مع الأمير. وقد سمعت تناجي الخدم بأن

الوالد على عزم السفر إلى الآستانة غداً، فأخذتني عيناي بالبكاء الشديد. وما لبث الوالد إن عاد ولما عرف ما نزل بي قال: "لا عليك سأستصحبك إلى الآستانة". وكانت خدعة مشفق، فسافر في الفجر الباكر، وكان الغرض من سفره إخلاء الجو من القائمين معه في استنكار المظالم التي كانت تفدح عواتق الناس لجشع رجال "المابين". وإن هي إلا بضعة أيام حتى أُتبع بصحبه وهم مفتي مكة عبد الرحمن سراج، ونقيب الأشراف علوي بن أحمد السقاف، والشيخ عابد مفتي المالكية، والشيخ عبد الله الزواوي أحد مدرسي الحرم الشريف فنفوا إلى أزمير.

وما وصل الوالد إلى الآستانة حتى قابل السلطان عبد الحميد، الذي قال إنه إنما طلبه ليكون إلى جانبه لحاجة ما، وأمر بتعيينه عضواً في "شورى الدولة". ولقد مضى على ذلك سبعة عشر عاماً، ومنزلنا في الآستانة مأوى أحرار الناس من العثمانيين ومتظلمة العرب، للمذاكرة فيما هم فيه ".

أجاب الحسين الدعوة دون وناء، ورحل إلى الآستانة، ثم لحقت به والدته وأولاده، فأهداه السلطان قصر الدّلي فؤاد باشا في استينيه، وهو قصر فخم البناء يطل على القرن الذهبي ويشرف على مناظر جميلة.

ويتحدث الملك عبد الله في مذكراته عن هذه الفترة فيقول: "أما إقامتنا باسطنبول، فكانت إقامة جبر وإكراه وإقامة تعلم وعبر. وبالرغم من أن السلطان عبد الحميد حينما قابل والدي يوم وصوله إلى الآستانة، قال له إنه إنما استدعاه لينشئه ويرجو منه أن يخدم الدولة ويخدمه، وبالرغم عن أنه عيّنه عضواً في شورى الدولة، وأمر بأن تهيأ له دار ساحلية في البوسفور وتفرش، فقد كان في الحقيقة ورغم هذه الإعتبارات، أخذ إلى الآستانة نفياً وتغريباً، بناء على معارضته سياسة الظلم والإعتساف بالحجاز، وأخذ الأموال الطائلة من الحجاج بشتى الأسباب".

كان الحسين في الأربعين من عمره عند وصوله إلى الآستانة، وقد أصبح رجلاً واسع الخبرة كثير التجارب، واقفاً على معظم دخائل السياسة

الحميدية فتظاهر بالهدوء واحتاط بالحذر، وكان بطبيعته ورعــاً تقيــاً يمتــاز بأعصاب قوية لا تؤثر عليها العواطف، فاستطاع بكل هذه الــصفات تــضليل جواسيس السلطان، ثم أخذ عبد الحميد يطمئن إليه رويداً رويداً.

وبعد بقائه في الآستانة بضع سنوات ارتقى إلى رتبة الوزارة، وكان اسمه بارزاً في المحافل الإجتماعية، ومحاطاً بالتجلة والاحترام، وبسبب الصفات الحميدة التي كان يتحلى بها والمنهج الرتيب الذي كان يجري عليه في حياته، مضافة إلى كرم عنصره وانتمائه إلى النبي الكريم، فقد وجد نفسه محاطاً بالكثير من المعجبين به من كبار رجال الدولة، فكانوا يوالون زيارته ويعقدون عنده كثيراً من اجتماعاتهم للبحث في موقف الحكومة الداخلي والخارجي.

وكانت الشريفة عابدية، زوجة الحسين قد توفيت سنة ١٨٨٧م (١٣١٥هـ)، فبقي بضع سنوات دون زواج، إلى أن نُفي إلى استانبول عام ١٨٩٣ فتزوج فتاة شركسية اسمها مديحة، أنجبت له ابنته صالحة. ولكن هذا الزواج لم يدم طويلاً. فتزوج في عام ١٨٩٧ عادلة هانم حفيدة رشيد باشا الكبير الذي تولّى في أيامه منصب الصدر الأعظم واشتهر بإصلاحاته وتنظيماته، فولد للحسين منها ابنه الرابع زيد وابنتان (فاطمة وسرّة)[١].

لم يكن الحسين حديث عهد بالآستانة، فقد وفد إليها سنة ١٨٦٥ حينما جاء يزور والده في مرضه الأخير، وأقام فيها مدة ليست بالقصيرة، فدرس في بعض مدارسها، وتنقل في جوانبها معجباً بروعة مبانيها وجمال مناظرها. ولكنه في هذه المرة وافاها على غير رغبة منه، فصرف همه إلى تربية أولاده تربية صحيحة وتعليمهم على أيدي معلمين خواص علوم العربية والتركية والعلوم العسكرية، وأتموا القرآن الكريم على يد والدهم. ومن المعلمين الذين اشتغلوا بتعليم أبنائه الملازم صفوت العوّا وهو شاب سوري أقام معهم في القصر، ثم الشيخ محمد قضيب البان وأصله من حلب ثم وظف لتعليمهم الأديب التركي محمد عارف باشا.

---

(١) الأميرة صالحة من مواليد ١٨٩٤.

وتقول الرحالة مسز ستيورت ارسكين في كتاب لها:

"كان الحسين قوياً عنيداً جسوراً، كثير الزهد في هذه الحياة المترفة التي ينعم بها السلطان، وكانت إقامته في العاصمة التركية حيث اعتاد الناس إحناء رؤوسهم لإرادة رجل واحد، من أهم الأسباب التي غذّت عواطفه الإستقلالية وحبه للحرية".

- ٣ -

أمير مكة المكرمة

أُعلن الدستور العثماني عام ١٩٠٨ فاستبشر الناس به على اختلاف أجناسهم، ولا سيما أن أقطاب حزب الإتحاد والترقي كانوا يصرحون أنهم لا يبتغون للبلاد إلا حكماً عادلاً ودولة قوية، تجدد هيبة الأمبراطورية وتحمي القانون وتدافع عن الحقوق. فظن الناس بهم خيراً، وحسبوا أنهم في مستهل دور جديد يسود فيه العدل والأخاء بين شعوب الدولة المختلفة. وعمد أقطاب الإتحاديين إلى دعوة مجلس النواب للإجتماع، وكان مؤلفاً من جميع أنحاء الأمبراطورية، فافتتح عبد الحميد أول جلساته وأعلن سروره بهذه الخطوة الجديدة.

ثم عمد الإتحاديون إلى عزل الكثيرين من خواص السلطان ووزرائه وولاته، ومن جملتهم أمير مكة الشريف علي بن عبد الله، وعيّن خلفاً له الشريف عبد الإله بن محمد أميراً على مكة، وكان يقيم في الآستانة ولكنه توفي قبل سفره إلى الحجاز. وسعى حزب الإتحاد والترقي لتنصيب الشريف علي حيدر بن جابر في هذا المنصب، ولكن الحسين رأى أنه صاحب الحق الأكبر في الإمارة، وأقنعه بذلك كثير من خواصه إذ كانت الأنظار قد اتجهت إليه، فقدم مذكرة إلى السلطان بواسطة الصدر الأعظم كامل باشا، وهذا نصها:

"بناء على وفاة عمي الشريف عبد الإله بن محمد أمير مكة، بعد عزل

ابن عمي الشريف علي بن عبد الله بن محمد، وخلو مقام الإمارة، ولكوني أسنّ العائلة الهاشمية وأحقها بمقام الآباء، فأسترحم جلالـة السلطان أن يتكـرم بإيصالي إلى حقي الذي لا يخفى على جلالته مع صداقتي وإخلاصي".

وأرسل الحسين هذه المذكرة مع نجله عبد الله الذي سلمها إلى الصدر الأعظم، وبعد أن قرأها قال له: أقبّل أنامل والدك وأطلب إليك أن تبلغه بأن حقه لا يضيع إن شاء الله.

ولم يكتف الحسين بهذا بل أرسل برقية بواسطة ثلاثة عناوين للعرض على السلطان : بواسطة الصدارة العظمى، وبواسطة مشيخة الإسلام العليا، وبواسطة رئيس كتاب القصر السلطاني وهذه ترجمتها :

"نظراً لشغور مقام الإمارة الجليلة بمكة المكرمة، ولكوني صاحب الحق، فإنني أنتظر من الأعطاف السنية السلطانية عدم حرماني حقي وتعييني في مقام آبائي".

وفي تلك الليلة بعد إرسال البرقية، وردت برقية من رئيس كتاب القصر السلطاني يقول فيها: إن حضور الحسين يوم غد في الساعة الثالثة صباحاً مرغوب فيه لدى جلالة السلطان.

وتوجه الحسين إلى قصر السلطان في الوقت المعين، فعيّنه أميراً على مكة، ثم صدر الفرمان السلطاني بتعيينه وقد جاء فيه ما يلي :

"... وبناء على ذلك ولوقوع انفصال أمير مكة علي باشا اقتضى الحال إلى إحالة تلك الإمارة الشريفة لذات من الأشراف ذوي الاحترام... الشريف حسين باشا... فأحلنا وفوضنا الإمارة الشريفة المذكورة إلى عهدة أهليته... ليستقبل الحجاج ذوي الإبتهاج المتوجهين من سائر ممالكنا الشاهانية ويوصلهم إلى مكة المكرمة سالمين مطمئنين. وبعد أدائهم مناسك الحج الشريف على الوجه اللائق أيضاً يشيعهم ويستكمل أسباب عزيمتهم بكل اعتناء ودقة إلى الشام. وأن يكون الناظر على توزيعهم وتقسيم الصرّة الهمايونية المرسلة من قبل سلطتنا السنية إلى أربابها بواسطة المأمورين بموجب

الدفاتر الموجودة، وأن يستجلب من العموم الدعوات الخيرية لذاتنا الـشاهانية، وأن يهتم في توفيق الأمور والمصالح الواقعة والجارية بالعدل والحقانية متحداً مع وزيرنا والي الحجاز".

وأخذ الحسين يتجهز للسفر ويدبّر أموره المعلقة. وبعد مضي أسبوعين على تعيينه أبحر إلى الحجاز، وقابل السلطان يوم سفره مودعاً واختلى به أكثر من ساعة ونصف. ويروي الملك عبد الله في مذكراته عن هذه المقابلة ما يلي:

"قال لي والدي، أن السلطان عبد الحميد قال له : أسأل الله أن يجازي من حال بيني وبين الاستفادة من مواهبك الهاشمية، وإنني لست بالأمين على الدولة والملك من هذه الفئة المتغلّبة، قال فأجبته: إن لذاتكم الملوكية في البلاد العربية الفئة التي إذا تحيزتم إليها كان لكم ما تريدون من حفظ الدولة والملك، ومتى شعرتم جلالتكم بذلك فأول بلد من بلاد العرب تقوم بالواجب المفروض هو الحجاز، ولو فعلتم ذلك وجلبتم آل بيتكم معكم، لجبيت إليكم الأموال ولأخضعت لكم رقاب العصاة، لأنكم تكونون حين ذاك فوق متناول أيديهم. قال : فاغرورقت عيناه وأجاب: أشكرك، أشكرك، بارك الله فيك، ولكن الوقت لم يحن. ثم وضع وسام الافتخار المرصّع بيده على صدره وودعه ".

وعند قدوم الحسين إلى الباخرة وصل إليها الصدر الأعظم كامل باشا مودعاً، وسلم للحسين مذكرة يقول فيه: "إن الخطة الحجازية المباركة مربوطة رأساً بمقام الخلافة العظمى، وأنه لا يسري إليها ما يخالف الحقوق المقدسة (بمناسبة الدستور الجديد) القائمة بين الامارة الشريفة والسدّة السلطانية السنية. فقوموا بواجباتكم السامية على أساس التعامل القديم وفقكم الله للخير. وإن اعتماد الحضرة الملوكية والباب العالي على ذاتكم الهاشمية مما لا يحتاج إلى تأكيد".

وأقلعت الباخرة ليلاً في أوائل تشرين الثاني عام ١٩٠٨ وكان مع

الحسين نجلاه عبد الله، وزيد وكان في الثامنة من عمره، والفريق عمر شاكر باشا المرافق السلطاني يحمل الفرمان وبعض الأشراف ورجال الحاشية.

وصلت الباخرة إلى جدّة في أول أسبوع من ذي القعدة سنة ١٣٢٦هـ (الأسبوع الأخير من تشرين الثاني ١٩٠٨م)، فاستقبل الحسين فيها أشراف الحجاز ومشايخ القبائل. وبعد إقامته ثلاثة أيام، واصل سفره إلى مكة، فاستقبله فيها وكيل الإمارة ووالي الحجاز وقائده المشير كاظم باشا، وكثيرون من الأشراف والشيوخ.

ومما يذكر أن حزب الإتحاد والترقي بجدّة، انتخب وفداً للسلام على الحسين، وقد قال رئيسه عبد الله قاسم في حضرة الأمير:

"جئنا نرحّب بالأمير الدستوري الذي يؤمل من سيادته أن يضرب صفحاً عن الأصول الإدارية القديمة، وعن الظلم الذي كان يرتكبه الشريف عون الرفيق والشريف علي، تبعاً للإدارة المستبدة السابقة وإرضاءً للسلطان. وأن البلاد إذ تحيي سيادة الأمير فإنها تحيي فيه الأمير الذي عرف روح العصر والتجدد المطلوب للعمل تحت الدستور الذي هو نبراس السلامة".

فأجابهم الحسين بقوله :

" لقد حظيت بمقام أسلافي وآبائي على الشريطة التي بايع بها الشريف أبو نمي السلطان سليم الأول. وأن هذه بلاد الله لا تقوم فيها غير شريعة الله المشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي حريصة على الاحتفاظ بحقها. فليذهب كل منكم ليشتغل بما يخصه، المأمور في وظيفته، والتاجر في تجارته، والصانع في حرفته. وإياكم من قال وقيل وما يقولون، فهذه بلاد الله ليست بملك لأحد. وأن السلطان الآمر بالدستور الذي تذكره يفتخر هو وأسلافه بأنهم خدام الحرمين الشريفين. وليس الخادم بالملك "

فخرج أعضاء الوفد وهم يتعثرون، وكتبوا إلى رئاستهم بالآستانة يقولون: بعث عبد الحميد برجل جلس على مقام أسلافه لا يعبأ بأحد، ولا

يقرّ بدستور ولا بتجدد. وقد ابتدأ النزاع بينه وبين الإتحاديين منذ ذلك اليوم[١].

وقد وجد الحسين بعد وصوله أن نفوذ الإتحاديين غير محدود، وأنهم يتصرفون في كل صغيرة وكبيرة ومن حولهم الأذناب والمحاسيب في الأقاليم، وليس لهم من مأرب سوى جمع المال والعمل على توسيع الشقاق بين القبائل، وغرضهم السيطرة المطلقة على شؤون البلاد. فبدأ أعماله بكفّ أيديهم عن معظم شؤون الدولة. وأقام الأمور في نصابها وقبض على زمام السلطة بيد من حديد.

وبعد أن فرغ من هذا الأمر، وجه همّه إلى ترتيب شؤون البلاد الداخلية وعلاقاتها، وسار في الناس سيرة حميدة اغتبط لها الشعب واتبع خطة الإصلاح. "وامتازت أيام إمارته الأولى بالتواضع والعدل والغيرة على أهل مكة والدفاع عن مصالحهم، كما أنه اشتهر أيضاً بالشجاعة وعلو النفس ونقاء الذيل"[٢] . وبأعماله هذه أعاد احترام الشرافة إلى قلوب القبائل الحجازية، وكان هذا الإحترام قد فقد الكثير من مميزاته على أثر ظهور الإتحاديين، فلم يطل به الأمر حتى تمكن من جمع شمل الناس وجعلهم يعرفون أنه المرجع الأعلى لهم. وقد ضرب أيضاً على أيدي المفسدين واللصوص، فساد الأمن واستتب النظام.

ولم يخل الأمر من الصعوبات، فإن بني الحارث – وهم عشائر بين وادي تربه وشرقي الطائف – قطعوا الطريق وأخذوا يعتدون على من جاورهم، فأمر الحسين بغزوهم وتأديبهم وأرسل لذلك الغرض قوة درك

---

(١) عبد الله بن الحسين، مذكراتي، القدس، ١٩٤٥، الصفحات ١٩، ٢٠ و٢٧، ٣٥. وتقول بعض المصادر أن الإتحاديين هم الذين عيّنوا الحسين أميراً لمكة. والصحيح أن التعيين كان من قبل السلطان عبد الحميد والصدر الأعظم كامل باشا. أما الإتحاديون فلم تصبح مقاليد الحكم بأيديهم إلا بعد عزل السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩، وبصورة تدريجية.

(٢) حافظ وهبة – جزيرة العرب في القرن العشرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٥، ص١٦٩، ١٧٠.

هجانة وفرسان من خاصته مع قوات من العشائر الموالية، فأنزلت بالحوارث عقاباً صارماً حتى خضعوا وأطاعوا.

وبعد تأديب الحوارث، صار تأديب عشيرة مطير، وكانوا يخيمون على الطريق الشرقية من مكة إلى المدينة المنورة، ويخيفون الحجاج ولا يؤدون الزكاة، فغزتهم القوات وكانوا بمحل صعب ولذا فقد عجزت عن كسر شوكتهم وأُصيبت القوة الغازية إصابات بليغة وتراجعت وجُرح الأمير عبد الله برصاصة في فخذه خلال المعركة. وعادت القوة إلى الطائف وصار الإستعداد في تجهيزها مرة أخرى حتى تكاملت القوى وغزتهم بقيدة نجلي الحسين علي وعبد الله. وكانت مطير قد تسهلت وتركت الوعر فنكلت بهم تنكيلاً، وخضعت العشيرة بعد ذلك وأصبح طريق الحجاج في غاية الأمان.

ثم أن دعاية الوهابيين الدينية كانت قد امتدت إلى القبائل المجاورة للحجاز، وانتشر دعاتها بين قبائل الحجاز نفسه. ولم يرحب الحسين بهذه الظاهرة، فجهز سنة ١٩١٠ حملة كبيرة من بيشة وعقيل وعتيبة وغيرها وقادها بنفسه – بعد أن أناب عنه نجله عبد الله – وسار ومعه محمد بن حميد شيخ قبيلة عتيبة وأبو العلا شيخ العصما وعدد كبير من الأشراف، وتوجه إلى شفا نجد قاصداً النظر في مسائل عشائر الحجاز الذين كانت تتخاطفهم رغبات أميري نجد، ابن سعود وابن رشيد. وسار حتى وصل الخرمة على حدود نجد وهاجم قبائل الدواسر في أسفل وادي الخرمة، فقاوموه وكان معهم سعد ابن عبد الرحمن الفيصل شقيق عبد العزيز، وقد جاء على رأس قوة لصد الحسين، فأسره وهزم من كان معه فدانت له قبائل تلك الجهات. وتغلغل في نجد حتى وصل إلى قرب القصيم والشعرا. وبوساطة محمد بن حميد تمّ الإتفاق على أن لا يتعرض ابن سعود لقبائل عتيبه والبقوم وسبيع ومطير الضاربة على الحدود الحجازية النجدية، ولا للقبائل الداخلة في منطقة الحجاز حتى شفا نجد. وبعد أن أخذ بذلك عهداً خطياً من عبد العزيز عاد إلى مكة، وأطلق الأمير المأسور[1]

---

(١) كانت نتيجة هذه الغزوة أن الأمير عبد العزيز آل سعود، وقّع على وثيقة بتاريخ ١٠ أيلول =

وبعد ذلك استعانت الدولة العثمانية به كي يساعدها في إخضاع الأدريسي. وكان السيد محمد الأدريسي يبث دعوته بين القبائل في عسير فالتفت حوله وأيدته. وما استشعر من نفسه القوة حتى جهز قوة كبيرة في سنة ١٩١٠ وأرسلها لفتح أبها عاصمة عسير، وحاصرتها قواته وضيقت عليها حتى كادت تستسلم. وسيّرت عليه الدولة قواتها من الحدّيدة، فصادمها وأوقع بها خسارة كبيرة فعادت مهزومة، فلم تجد الدولة بدّاً من أن تستغيث بالحسين. ولم يتوان الحسين في نجدة الدولة فجهز حملة كبيرة قادها بنفسه واستصحب معه نجليه عبد الله وفيصل وسار حتى أبها حيث هزم قوى الأدارسة ودخلها ظافراً، وبعد أن وطد الأمن وأعاد هيبة الدولة، عاد إلى الحجاز.

وقد ارتكب الجنود الأتراك من الفظائع ما تقشعر له الأبدان من إحراق قرى وتقتيل أبرياء. وكانت تلك الفظائع أول ما لفت الحسين بصورة جدية إلى بني قومه. وقد عرضت عليه أربع جثث شويت على النار شياً، بأن تدخل أعمدة الخيام من أدبارهم حتى تخرج من أفواههم فقال: ليس من هؤلاء خير للعرب.

أما الأدريسي فلم تفلّ من عزمه الهزيمة، فلجأ إلى جبال فيفاء يرتب أموره مجدداً، ويبسط نفوذه بين القبائل التي كانت تطيعه بسرعة لقوة شخصيته. وما لبث أن اغتنم فرصة وقوع الحرب بين تركيا وإيطاليا في طرابلس حتى عاد إلى الظهور بعد أن اتفق مع الطليان الذين أمدوه من أرتريا بالمال والسلاح، وزحف برجاله فاحتل جيزان وصبيا وأبو عريش وأبها بمساعدة الأسطول الإيطالي. وكانت الدولة العثمانية تستغيث بالحسين فجهز حملة قوامها سبعة آلاف مقاتل وسيرها على الادريسي بقيادة نجله فيصل في عام ١٩١٢. وتقدمت الحملة في تهامة فاستولت على القنفذة وتوقفت فيها لانتشار الحمى بين رجالها، وأُصيب بها قائد الحملة، ثم عادت الحملة في

= ١٩١٠ تعهّد فيها بعدم التعرض لقبيلة عتيبة، ودفع مبلغ معيّن سنوياً لخزينة الدولة العثمانية، وإطاعة أمير مكة "بأي أمر يأمره حسبما تقتضيه حقوق ومنافع الدولة العلية". النص في كتابي (الحركة العربية) ص ١٧٢، ١٧٣.

ربيع سنة ١٩١٣ دون أن تشتبك مع الادريسي في معارك فاصلة. ومن الإنصاف أن نذكر أن الذي أثار الحسين على الادريسي بصورة خاصة اتفاق الأخير مع إيطاليا عدوة الدولة العثمانية في اعتدائها الغاشم على طرابلس وليبيا. وقد اعتبر الحسين هذا الإتفاق خيانة كبرى، خاصة وأنه كان يخشى أن تمد إيطاليا نفوذها إلى شبه الجزيرة العربية بصورة فعلية بواسطة هذا الإتفاق.

وهكذا برهن الحسين على إخلاصه للدولة، فحارب جيرانه من أمراء العرب لأجل توطيد هيبتها وتدعيم نفوذها، وكان يعلن في كل آن ومناسبة أن من أهم واجبات كل عربي أن يجعل أهدافه خدمة الدولة لأنها حامية الشرق الأدنى، وحكومة الإسلام، وثمرة الجهود والتعاون بين الشعبين العربي والتركي. وهذا الإخلاص الذي أبداه الحسين لا يجعل مجالاً للشك في أنه ما كان يطلب الإنفصال عن الدولة حتى ذلك الوقت، ومجرد ما كان يبتغيه هو الحصول على قاعدة وطيدة للمساواة بين العرب والترك في الشؤون الداخلية، وأن لا يطغى الشعب التركي على الشعب العربي.

– ٤ –

عودة إلى الحياة

استولى الأتراك العثمانيون على سائر البلاد العربية في القرن السادس عشر، فأصبحت هذه الأقطار جزءاً متمماً للأمبراطورية العثمانية. وتقلد السلاطين الأتراك منصب الخلافة وحاسنوا العرب، فارتقى كثيرون منهم رتبة الوزارة والصدارة. وإذا كان الحيف والجهل قد نزلا بالبلاد العربية فقد نزلا بالأناضول أيضاً. وبينما كانت أوروبا تسجل انتصاراتها العظيمة في ميادين العلوم والاختراعات، كانت الأمبراطورية العثمانية والشعوب الرازحة تحت نيرها تغطّ في سبات الجهل والفساد، ويتحكم فيها ملوك آل عثمان وصنائعهم. وبعد أن استكان العرب للمظالم النازلة بهم ثلاثة قرون متوالية أخذ القلق ينتابهم وصاروا يتطلعون إلى حياة أفضل وتنبهت فيهم روح اليقظة معبرة عن نفسها في ظاهرتين خطيرتين:

(١) النهضة الأدبية.

(٢) الحركة الوطنية.

***

كان الإجتياح التركي قد ألقى ظلاً من الجمود على اللغة العربية، فطغت عليها اللغة التركية وكادت تعصف بها، لولا أن قيّض الله لها موطنين اعتصمت بهما في سوريا وفي مصر.

أما في سوريا فقد بدأت روح العلم والمعرفة تسري على أيدي بعثات الرهبان من فرنسا وإيطاليا فأنشأ اليسوعيون سنة ١٧٣٤ مدرسة عينطورة وأنشأ الأميركيون جامعتهم في بيروت سنة ١٨٦٦ ثم أُنشئت الجامعة اليسوعية عام ١٨٧٤. وانتشرت بعد ذلك المدارس والمطابع في البلاد السورية وأخذت تخرج للناس الكتب الأدبية. وأقدم مطبعة في الشرق أُنشئت في حلب عام ١٦٩٨ أنشأها البطريرك أثناسيوس وهو عربي من أسرة الدباس. ثم نشطت الصحافة وكان لها أثر عظيم.

واشتهر إثنان من أبناء العرب في خدمة قومهم: أولهما، عبد الرحمن الكواكبي، مؤلف كتابي "أم القرى" و "طبائع الإستبداد". وكانت دعوته سياسية قومية سُجن من أجلها وشُرد حتى حطّ الرحال في مصر. وكان يدعو لاستقلال العرب ويرى أن الخلافة يجب أن تكون في قريش. وثانيهما، سليمان البستاني، الذي أوصله العلم إلى أعلى المراتب، ولكنه كان يرى أن السعي لإصلاح أداة الحكم في البلاد العثمانية هو أفضل من الدعوة للإنفصال. وكان عالماً بلغات كثيرة يخطب في مجلس النواب العثماني بعدة لغات ليفهم أقواله نواب جميع العناصر. وكان قبل إعلان الحرب وزيراً للزراعة والتجارة ثم استقال يوم إعلانها لمعارضته في ذلك.

وكان الأزهر في مصر قبساً من النور خلال تلك العصور المظلمة، أبقى على تراث اللغة وحافظ على كثير من مخطوطات العرب. على أن دخول نابليون إلى مصر عام ١٧٩٨ – ١٢١٣هـ كان بحق سبب النهضة التي انبثقت، فقد أسسّ مدرستين ومجمعاً علمياً مصرياً ومكتبة عمومية ومطبعة عربية

وأصدر جريدة التنبيه. ثم جاء محمد علي فأوفد البعثات إلى أوروبا وأحضر منها أساتذة لمدارس الجيش والطب والصناعات والفنون، وأنشأ نحو خمسين مدرسة وأسس المطبعة الأهلية عام ١٨٢١ وأصدر جريدة الوقائع المصرية. وجاء بعده اسماعيل فاستمرت النهضة التعليمية. ونفخ جمال الدين الأفغاني في البلاد روح التفكير، وأثارت تعاليمه السياسية روحاً جديدة في الشرق. واشتهر من تلاميذه محمد عبده والبارودي.

***

لابد للمؤرخ المنصف أن يذكر بالفخر محاولتين جريئتين لإنشاء دولة عربية في القرن التاسع عشر، قام بأولاهما آل سعود في الحجاز، وقام بثانيتهما محمد علي في مصر. ولكن كون هاتين المحاولتين لم تقوما نتيجة للإستعداد الناضج في الأمة العربية فقد كان نصيب كليهما الفشل والسقوط.

وتعود حركة آل سعود إلى الدعوة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، ومناصرة السعوديين لها، وما نشأ عن هذا التحالف من قوة وتوسع. ففي عام ١٢٠٨هـ (١٧٩٥م) فتح السعوديون الأحساء وقاموا بغزوات متواصلة حتى تمكنوا من الإستيلاء على مكة سنة ١٢١٨هـ (١٨٠٣م). وخلال عشر سنوات بلغ السعوديون أوج مجدهم، إذ احتلوا الحجاز كله وواصلوا زحفهم شمالاً إلى ضواحي دمشق. فدانت لهم بادية الشام والعراق. وامتد توسعهم جنوباً إلى رأس الخيمة في عُمان، وزبيد في اليمن.

وقد ارتكب السعوديون أخطاء عديدة كانت سبباً في تقصير عمر دولتهم، وأهم هذه الأخطاء : -

١- تعصبهم الشديد لدعوتهم وتكفيرهم لغيرهم ممن ليس على رأيهم.

٢- إنتهاكهم حرمة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة وكربلاء، فأثاروا بذلك سخط العالم الإسلامي.

٣- قلة خبرتهم بالأمور السياسية إذ عمدوا إلى التحرّش بالأتراك والمصريين،

بدلاً من أن يحاولوا التفاهم مع محمد علي واقتسام دولة آل عثمان بينهم وبينه.

٤- عدم تركيز نهضتهم على القومية العربية وعدم محاولتهم إيقاظها.

أما المحاولة الثانية فقد قام بها محمد علي أحد الضباط الألبان الذين جاؤا إلى مصر لمحاربة جيش نابليون. فقد تمكن من الحصول على ولاية مصر عام ١٨٠٥ ثم قضى على المماليك، وأخذ ينظم جيشاً حديثاً جلب له المدربين من أوروبا. وفي سنة ١٨١١ أرسل حملة عسكرية إلى الحجاز بعد استنجاد السلطان به فاحتلّته بعد سنتين من بدء القتال. وبعد هدنة بضع سنوات عاد وأرسل حملة أخرى تابعت الزحف إلى نجد حتى قضت على دولة السعوديين وأعادت البلاد إلى حوزة الخليفة العثماني.

وبعد أن ساعد محمد علي العثمانيين في معارك عديدة رأى أن يعمل لحساب نفسه، فزحف ابنه ابراهيم على سورية وأتم الإستيلاء عليها عام ١٨٣٢. وكاد يستولي على الأناضول، لولا تدخل الإنكليز. ثم اضطر إلى الإنسحاب من سورية عام ١٨٤٠.

أما الأسباب التي أدت إلى فشل المحاولة الثانية فيمكن تلخيصها فيما يلي:

١- قامت فتوحات محمد علي على القوة العسكرية دون الاعتماد على إثارة روح القومية، وكان يعمل لحساب نفسه وليس لحساب الشعب، فالسوريون الذين رحبوا به أولاً لم يلبثوا أن ثاروا في وجهه لعدم تقديره لنزعاتهم الوطنية أو الاجتماعية.

٢- سياسة التوازن الدولي.

٣- عدم تمرّسه بالسياسة العالمية.

"تلاشى الأمل بقيام الأمبراطورية العربية التي تخيلها محمد علي، وعمل على تحقيقها ابنه ابراهيم، ذلك لأن هذين الرجلين لم يكونا من الشعب الذي نهضا بينه. فاختلفا في تقدير روحه وكيفية توجيهه. وقد زالت حركتهما



عبد الله بن الحسين

بموتهما، ولم يعد العالم الخارجي يسمع أي شيء عنها. ثم جاءت الحرب العالمية (الأولى) حينما ظهرت كحلم رجل وابنه مرة أخرى، غير أنهما كانا من العنصر العربي هذه المرة، وكانت غايتهما تحقيق الفكرة بمعونة السلاح الذي وقف في وجه محمد علي: سلاح القومية العربية ونارها المتأججة، بالإضافة إلى معاضدة انجلترا. وعليه نرى أن قصة الأسباب التي حفزت الحسين وابنه عبد الله على تدبير الثورة بتشجيع بريطانيا، هي قصة الحركة الوطنية العربية ذاتها"(١).

***

تولى عبد الحميد السلطنة عام ١٨٧٦، وكانت العلاقات بين العرب والترك خلال حكمه الطويل على خير ما يمكن أن تكون، غير أنها بعد إعلان الدستور اتجهت اتجاهاً معاكساً أدى نهائياً إلى انحلال الأمبراطورية العثمانية.

وقد جدّد عبد الحميد الاهتمام بشأن الخلافة، فألفّ قلوب المسلمين حوله، ثم راح يستقدم كل من يشبته بأمره إلى الآستانة ليحل ضيفاً عليه ولكن تحت المراقبة الدائمة. وبعد ذلك رحّب بصداقة ألمانيا واستحضر بعثة المانية لتدريب جيشه. وفي عام ١٨٩٨ زاره القيصر غليوم في الآستانة، ثم زار دمشق والقدس، ووطد نفوذ دولته توطيداً شاملاً.

غير أن سياسة عبد الحميد الإستبدادية، حركت نفوس الأحرار وبثت فيهم روح المقاومة. وأول من نهض لمعارضتها هو مدحت باشا، غير أن السلطان تمكن من القضاء عليه. ثم تألفت جمعية الإتحاد والترقي وتمكنت من كسب الجيش إلى جانبها، فاضطرت السلطان إلى الموافقة على الدستور يوم ٢٣ تموز عام ١٩٠٨.

وإذا كان العرب قد اشتركوا في جمعية الإتحاد والترقي، فقد كانوا يأملون أن تعم الحريات المكتسبة جميع أقطار الدولة. ولكن الأتراك أخذوا

---

(١) George Antonius: The Arab Awakening, Hamish Hamilton, London, 1938. ص٣٣، ٣٤ وفي عام ١٩٦٦ ظهرت ترجمة لهذا الكتاب، قام بها الأستاذان الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس (دار العلم للملايين، بيروت).

يميزون عنصرهم بإسناد المناصب الخطيرة لرجال منهم، وراحـوا يـدعون للقومية الطورانية، فأثاروا بعملهم هذا روح العنصرية في القوميات الأخرى، وأخصّها العرب.

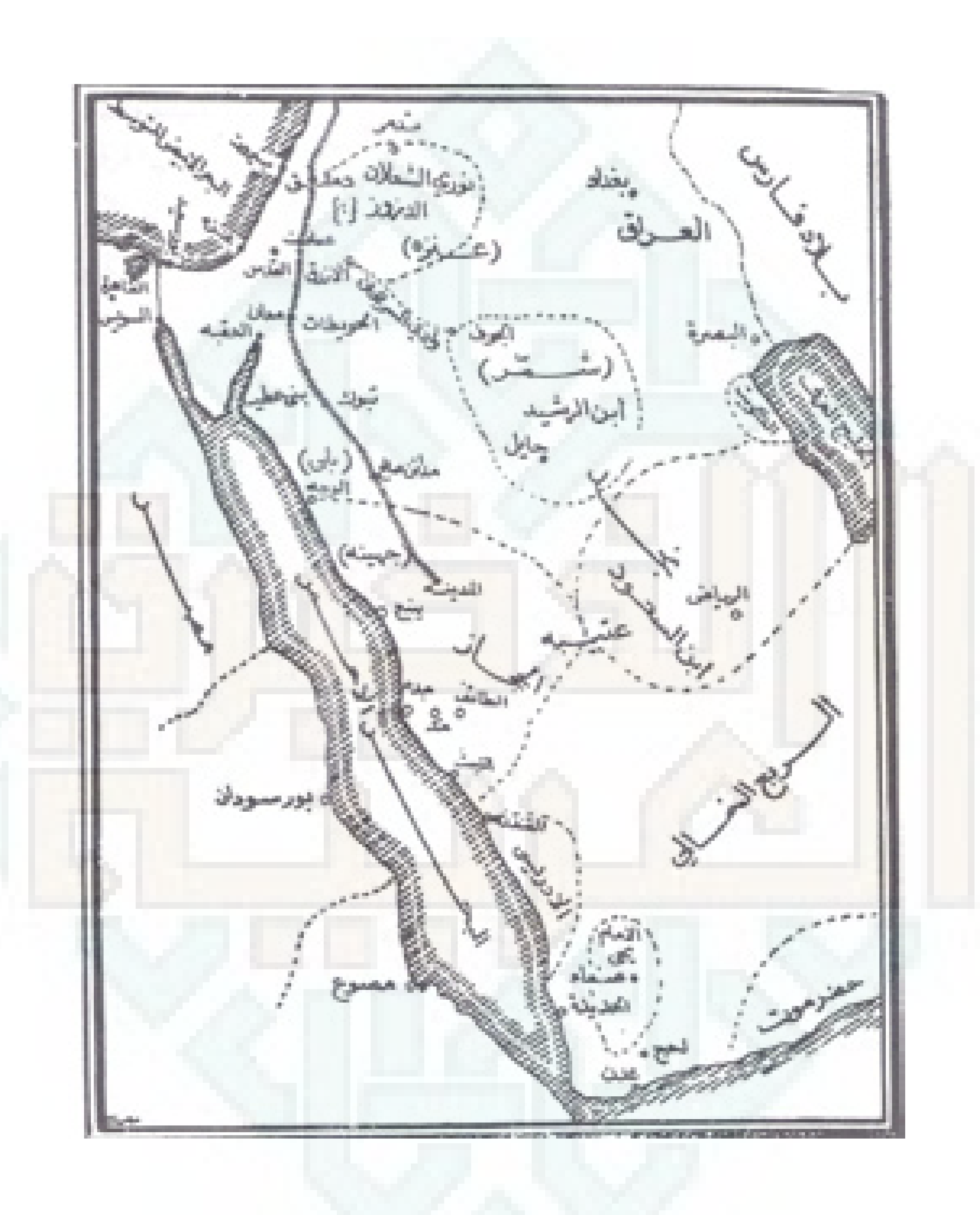
والتأم مجلس النواب، ومن ملاحظة نسبة النواب فيه للقوميات الممثلة يتبين مدى استعجال الأتراك في تسويد عنصرهم، فقد كان عدد الأعضاء ٢٤٥ نائباً منهم ١٥٠ من الترك و٦٠ من العرب و٣٥ من العناصر الأخرى، بينما كان عدد السكان تقريباً : عشرة ملايين من العرب، وسبعة ملايين من الترك. وأربعة ملايين من القوميات الأخرى، ومثّل العرب في مجلس الأعيان ثلاثة أعضاء من مجموع أربعين عضواً.

وحاول عبد الحميد القضاء على الدستور، فأعلنت حامية الآستانة عصيانها وهوجم مجلس النواب، فقتل وزير العدلية والنائب العربي محمد أرسلان. غير أن محمود شوكت باشا – وهو عراقي – زحف على رأس جيشه المرابط في سالونيك، ودخل الآستانة، ووطد سلطة الإتحاديين، وكانت النتيجة أن عزل عبد الحميد وخلفه أخوه محمد رشاد.

ونشط فتيان الأتراك في سياستهم العنصرية الرامية إلى تحويل بلاد العناصر غير التركية إلى مستعمرات، بدلاً من أن تكون ولايات عثمانية كالولايات التركية نفسها. وقد فتحت هذه السياسة أذهان العرب فهبّوا غيرة على كيانهم القومي، وشرعوا في تأسيس الأحزاب والجمعيات. ويمكن أن نجمل الأسباب التي وسّعت شقة الخلاف بين الشعبين فيما يلي :

١- التناقض في فهم الدستور : - فقد ظن فتيان الأتراك أن من واجبهم تجديد شباب الدولة على حساب تسخير العناصر الأخرى لأغراضهم. ومن جملة ما قاموا به في هذا الشأن أن خصصوا ثمانين في المئة من ميزانية المرافق العامة لتصرف على البلاد التي هي تركية محضة، بينما رأى العرب أن الدستور يكفل لهم المساواة مع الترك فأخذوا يطالبون بما يعتقدونه حقاً لهم.

٢- نشأة القومية : - بذرت حملة نابليون هذه الروح في الشرق مع



الجزيرة العربية اثناء الحرب العالمية الأولى

الروح العلمية الجديدة التي انبعثت في صدور الجيل الجديد. ومما زاد هذه الروح قوة، سعي الترك لدمج العنصر العربي في العنصر التركي والقضاء على لغته وتقاليده وهذا أدى إلى عكس ما يرغبون.

٣- الظروف التي لابست مراحل القضية: - فقد بدأ مركز الدولة يضعف في النفوس وخصوصاً بعد الهزائم التي توالت عليها في أوروبا وأفريقيا، فرأى العرب أن الخطر محدق بهم، وتخوفوا أن يكون مصيرهم كمصير سكان شمال أفريقيا من استعمار الدول الأجنبية، دون أن تتمكن الدولة من حمايتهم. فاستيقظت فيهم روح التحفز والمقاومة، ووجدوا عطفاً من الخارج على قضيتهم وتحريضاً على استعادة أمجادهم القديمة.

كل هذه الأسباب دفعت الشعور القومي عند العرب دفعاً قوياً، وبعثت هممهم إلى النهوض من كبوتهم واللحاق بالأمم التي سبقتهم في مضمار المدنية والاستقلال. وتكاتفت جميع هذه القوى في حمل الحسين على إعلان الثورة، فكان بذلك العمل " أول عربي جعل للبلاد العربية شخصية دولية وشأناً لا ينكر في أوروبا "[١].

- ٥ -

الحرب العظمى
وأثرها في البلاد العربية

اندلعت نار الحرب العالمية الأولى بسبب مقتل ولي عهد النمسا. وما وافى يوم ٥ آب ١٩١٤ حتى كانت المانيا قد انحازت إلى النمسا في الحرب ضد فرنسا وانجلترا وروسيا. وهكذا غاص العالم في بحيرة من الدماء والدموع بسبب الأطماع التوسعية والاستهتار بإنسانية الشعوب.

وكان من المتوقع أن يتجنب قادة الدولة العثمانية المساهمة في هذه المجزرة

---

(١) حافظ وهبة، المصدر السابق، صفحة ٢٤٢.

العالمية، ولكن رجال حزب الإتحاد والترقي وقعوا تحت تأثير العسكرية الالمانية، وظنوا أن هذه فرصة التاريخ المثلى لاسترداد ما خسروا، فجرّوا دولتهم إلى الدمار بسوء رأيهم.

وإذا كانت البعثة العسكرية الألمانية قد ساعدت في تدريب بعض الفرق التركية، فقد اغترّوا بقوتهم التي لم تكن تستند على الحيوية الاقتصادية في بلاد الدولة. ثم أن الإتحاديين كانوا يأملون استرداد شمال أفريقيا من قبضة انكلترا وفرنسا وإيطاليا، والتوسع شمال الآستانة على حساب روسيا. وشجعهم على ذلك اعتقادهم الجازم أن قوة المانيا العسكرية ستتمكن من إحراز النصر النهائي، خاصة بعد انتصاراتها في الأشهر الأولى من الحرب.

وكان الحلفاء يقدّرون هذه الدوافع جيداً، ويعلمون أن نفوذ المانيا في الآستانة قوي جداً، ولهذا فإنهم لم يترددوا في الموافقة على إلغاء الامتيازات الأجنبية، وعملوا كل الممكنات في تلبية طلبات الدولة العثمانية، وعرضوا ضمان حدودها رسمياً. غير أن النية كانت تتجه نحو الحرب، وكان أنور وطلعت وجمال يتزعمون الدعوة للانضمام إلى المانيا. وإذ كان السلطان محمد رشاد ضعيفاً فلم يجدوا من يكبح جماحهم. وهكذا أعلنت الدولة العثمانية الحرب على الحلفاء في أول تشرين الثاني، واستقال أربعة وزراء احتجاجاً على إعلانها، أحدهم سليمان البستاني.

وعلم الحسين باتجاه الإتحاديين لإعلان الحرب في صف المانيا، فكتب رسالة إلى السلطان محمد رشاد استعرض فيها حالة أوروبا ثم قال:

"تعلمون جلالتكم أن الحرب البلقانية قد انتهت على ما انتهت عليه، وأن الدولة الآن في حاجة إلى تجهيزات واستكمالات حربية لم تتم حتى الآن، وأن في الدخول إلى جانب المانيا الخطر العظيم، لأن أسلحة الدولة كلها من المانيا وكذلك عتاد هذه الأسلحة، وأن المعامل العثمانية لا تكفي إمداد الجيوش بالعتاد اللازم، ولا تستطيع إمداد الجيوش بما يمكن أن تخسره من مدافع وأنواع الأسلحة الأخرى، عدا هذا فالأقطار المترامية إلى الجنوب من

جسم الدولة، كالبصرة واليمن والحجاز، هذه البلاد المحاطة من كل ناحية بقوات مستعدة من الدول البحرية المعادية ستصبح في أحرج المواقف. وربما اتكلت الدولة في الدفاع على حمية أهلها وهم ليسوا منظمين ولا مسلحين بالشكل الذي يستطيعون معه مقابلة جيوش أوروبا المنظمة، وإنني أستحلف جلالتكم بالله أن لا تدخلوا الحرب، وأن تعلموا بإنني أعتقد في كل من يرى الحرب إلى جانب الألمان عدم التمييز أو الخيانة الكبرى".

وقد جاء في مذكرات الملك عبد الله عن موقف الحسين في هذا الصدد ما يلي: -

"وفي شهر رمضان زار الوالي وهيب بك الأمير [الحسين] بالطائف، وقال له: أمرت ببرقيات وردت إليّ من وزارة الداخلية ووزارة الحربية، بأن استطلع رأيكم السامي في إشهار الحرب على روسيا وانكلترا، فقال: أنا لا أرى أن أجيب على هذا السؤال الشفوي بشيء، وإنني أنتظر هذا السؤال أن يرد اليّ برقيّاً فيسجّل ويسجّل جوابه. ولكني أقول لك كجندي شريف أني لست بالخائن حتى أشير على الدولة بأن تدخل هذه الحرب التي لا ناقة لها فيها ولا جمل. ونحن محاطون هنا بالدول العظمى البحرية. وأنتم ستشغلكم جيوش روسيا وجيوش الأنكليز بمصر، مع أنكم غير متصلين بحليفتكم المانيا من البر، وصربيا معادية ورومانيا معادية. فقال : هي ورقة زرقاء نريد أن نقذف بها على ميز الميسر. فقال: عجيب، أبالأمة تقامرون؟!.. ثم خرج الوالي.

وبعد يوم وردت برقية من الصدر الأعظم وبرقية من وزير الحربية أنور بالسؤال عينه، فأجابهم الحسين بأنه قدّم رأيه ونصيحته إلى جلالة السلطان بعريضة خاصة مفصلة، وهو الآن ينصحهم بعدم دخول الحرب ضد روسيا وفرنسا وانكلترا، ويقول إن هذا العمل خرق عظيم وخيانة للأمانة، وإن البلاد بأجمعها لا ترضى عن حرب ضد هذه الدول، وإنهم إن كانوا عزموا على هذا، فقبل نشوب الحرب يجب عليهم أن يزودوا الجيش الخامس باليمن بما يكفيه لثلاث سنوات وباحتياطي لما يطلب من مجاهدين، وكذلك العمل

للفرقة العسكرية بعسير وكذلك بالحجاز، وأنه يجب الإسراع في هـذه المـدة بخزن المؤن في هذه الولايات لمدة لا تقل عن الخمس سنوات، وإن لم يفعلوا هذا فهم سيضعون هذه البلاد في أحرج مركز قد يفضي بهم إلى ما لا تحمـد عقباه.

فجاءت برقيات جوابية بأن الدولة قد فكرت في كل شيء، وأنها تشكر سيادته السامية على نصائحه.. ".

***

ريع العالم الإسلامي عامة والعربي خاصة لهذه الخطوة التي خطاها الترك، وكان كل متبصر يدرك أن النهاية ستكون شؤماً على الدولة العثمانية، سواء انتصرت المانيا أم انتصر الحلفاء. وأخذ عقلاء العرب يقلبون الخطط متخوفين أن تكون هزيمة الدولة سبباً في انتقالهم من استعباد إلى استعباد أشرّ منه.

وبإعلان الحرب أصبحت البلاد العربية وأخصها سورية والحجاز في حالة ضنك شديد نتجت عن :

١- الفوضى التي سادت البلاد العربية، وسوء الأحكام، واضطهاد الأحـرار، مما ولّد حالة نفسية قلقة بين الناس.
٢- المجاعة الهائلة التي اجتاحت السكان وكانت تهددهم بالفناء.

وكان لتدفق مهاجري الأرمن على البلاد ولأعمال الحكومة السيئة السبب الأكبر في انتشار الجوع الذي قضى على قرى برمتها. وأما الفوضى السائدة فحدث عنها ولا حرج، خصوصاً بعد أن أنشأ جمال دائرة الإستخبارات السريّة التي أقلقت راحة الناس وانتشرت في طول البلاد وعرضها تبث الرعب في القلوب، فكثرت الوشايات وعمت الدسائس واندثرت أبسط معاني الحرية الشخصية. وأثّرت هذه الظاهرة في نفسية السكان فباتوا يترقبون كل شيء من شنق ونهب وسجن وتشريد، ولا سيما بعد أن خلع جمال السفاح عن وجهه برقع الصداقة المزيف ولطخ يده بدماء شهداء العرب فتأرثت الأحقاد في الصدور والجوانح.

ومما زاد الفوضى انتشاراً فساد نظام الجندية بين العساكر، فكانوا يسخّرون الناس للقيام بأعمالهم دون أجور ويبتزون الأموال بالتهديد، وزاد الطين بلة إعلان الجهاد الديني وإيفاد المانيا للبارون مكس لبث روح التفرقة بين المسلمين والمسيحيين مما بلبل الخواطر واضطر الشيخ بدر الدين الحسني أن يذيع بياناً ينصح به أبناء البلاد على اختلاف طوائفهم بالاتحاد، ويدعوهم لمزاولة التفاهم والأخاء.

أما عن الجوع الذي انتشر بين سكان البلاد وخصوصاً في لبنان فمما يفوق حد الوصف، خاصة وأن أسبابه مفتعلة، إذ منعوا تصدير الحنطة من سوريا إلى لبنان بينما كانت في حوران ونواحي حلب كميات كبيرة من المؤن، ثم احتجوا بصعوبة النقل. وإذ كان الأتراك يرتابون في إخلاص أهل لبنان فقد كانوا ينوون إفناءهم بحد السيف عند دخولهم الجبل أوائل الحرب، ولكن السكان قابلوهم بالترحاب فعمدوا إلى إهلاكهم جوعاً. ومنعوا البواخر الأميركية المحايدة التي أرسلها المهاجرون العرب موسوقة بالأطعمة إلى أهلهم، من إنزال شحناتها إلى السكان الجياع، ومنعوا صرف الحوالات المالية على دول الحلفاء وكانت أكثر المعاملة بها. وتركوا الحبل على الغارب لنفر من محتكري الأقوات يورّدونها للجيش بينما الأطفال يموتون جوعاً، وكان هذا التضييق عاماً في جميع بلاد العرب.

أما في الحجاز وهو قطر مجدب غير ذي زرع بطبيعته، فقد يصعب علينا التكهن بما كان يحدث لسكانه لو ظلوا على ولائهم لتركيا إلى نهاية الحرب. وقد عانى أهل البلد الحرام خلال المدة الواقعة ما بين إعلان الحرب إلى إعلان الثورة، من ضروب البؤس ما كاد يودي بأكثرهم أو يضطرهم إلى الثورة في وجه الشريف.

أُعلنت الحرب في رمضان عام ١٣٣٢هـ (آب ١٩١٤) أي قبل موسم الحج بثلاثة أشهر تقريباً، فأعلن الأنكليز حصاراً على سواحل جميع الأقطار العثمانية ومن جملتها الحجاز، مما أدّى إلى عدم وصول الحجاج في ذلك العام إلا من البلاد المجاورة. ولا يخفى أن موارد الحجاز المالية كانت يومذاك ناتجة

مما يصرفه الحجاج فيه تقريباً. وصبر الناس وصابروا على هذا الضنك عامهم الأول على أمل أن تنفرج الحال قريباً، ولكن الحرب طالت واستهلك الأهلون كل ما أدخروه في الماضي، فاستغاثوا بالشريف، فكاتب الحكومة وبسط لها ما يعانيه أهل الحجاز من ضيق وسألها المعونة فاعتذرت بسوء الحال الاقتصادية عندها. وضاق الناس ذرعاً حتى اضطروا أن ينزعوا أبواب منازلهم وخشب سقوفها لبيعها بأثمان بخسة في سبيل الحصول على ما يسد الرمق "وضجت الناس وهلك مئات من الجوع. وقد قال جلالة الملك أنه ظل وأهل منزله سنتين يأكلون الدخن"(١).

هذا العسف بضروبه وألوانه كان من جملة الدوافع القوية التي أدت إلى التطور في رأي متنوري العرب عامة والحسين خاصة، فأيقنوا أن الأتراك قد ركبوا رؤوسهم في معاداة الأمة العربية وأن الحزم كل الحزم في رفع النير عن كاهل العرب والتحول إلى بناء دولة تقوم على فكرة القومية والاستقلال.

– ٦ –

الاتحاديون والعرب

كانت شكاوى العرب عام ١٩١٠ تنحصر فيما يلي :

١- إقصاء عدد كبير منهم عن الوظائف التي كانوا يشغلونها في الآستانة.

٢- عدم إدخال شخص عربي من أعضاء جمعية الإتحاد والترقي في اللجنة المركزية في سلانيك، حتى الضباط العرب الذين كانوا أول من أعلن الدستور.

٣- عدم قبول أي عضو عربي في المذاكرات السياسية للجمعية.

٤- تحويل الجمعية الإتحادية من جمعية عثمانية إلى جمعية تركية بحتة.

---

(١) امين الريحاني: ملوك العرب، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٢٩، صفحة ٦٢.
الدخن نبات من فصيلة النجيليات، حبه صغير ويقدم عادة للطيور والدجاج.

٥- إنتزاع وزارة الأوقاف من وزير عربي وإسنادها إلى تركي، بحيث لم يبق أحد من أبناء العرب في الوزارة.
٦- إستبدال الولاة والمتصرفين والقضاة من العرب بموظفين من الأتراك.
٧- مناهضتهم للغة العربية مناهضة غريبة في بابها، كما حدث مثلاً عندما أعلن سفير الدولة في واشنطون عام ١٩٠٩ أن جميع العثمانيين في أميركا يجب أن يخاطبوا السفارة باللغة التركية فقط، مع علمه أن الجالية السورية هناك لا يقل عددها عن نصف مليون، وأنه ليس بينها من يحسن التركية.

على أن هذه الشكاوى كان بالامكان تلافيها لو توفرت النية الحسنة. ولكن الإتحاديين بدلاً من هذا بادروا إلى إرسال الحملات إلى الكرك وحوران واليمن وعسير لإخماد أصوات العرب في ديارهم. وإذا أضفنا هذا إلى الحالة السيئة التي تردّت فيها الدولة بعد هزائمها في حروب البلقان وفي طرابلس، فإن متنوري العرب تخوفوا أن تعجز الدولة عن الدفاع عن البلاد العربية إذا هجمت عليها دولة قوية. فأخذوا مع بعض أحرار الأتراك يدعون إلى وجوب جعل إدارة الولايات على أساس اللامركزية، وألّفوا الأحزاب لتحقيق هذه الغاية.

على أن غلاة الإتحاديين ومتهوسيهم كانوا يحولون دون تنفيذ أي إصلاح كهذا، كما ورد في كتاب تاريخ المستقبل للكاتب التركي جلال نوري من قوله:

"يجب على الحكومة أن تكره السوريين على ترك أوطانهم، وأن تحوّل اليمن والحجاز إلى مستعمرات تركية، وأن تنشر اللغة التركية بحيث تكون لغة الدين. ومما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياننا أن نحوّل جميع الأقطار العربية إلى أقطار تركية، لأن النشء العربي الحديث صار يشعر بعصبية جنسية، وهو يهددنا بنكبة عظيمة يجب أن نحتاط لها ".

ومن يمعن النظر في الحوادث التي وقعت بعد مؤتمر باريس العربي وبين

ابتداء الحرب، يدرك مبلغ الكيد الذي استشرى في صدور الاتحاديين، إذ تلاعبوا بالانتخابات حتى لم يمثل العرب في مجلس النواب سوى أذنابهم غالباً. وأقصوا الضباط العرب عن المناصب العالية وأرسلوهم إلى الميادين السحيقة. كما أرسلوا وهيب الألباني قائداً ووالياً للحجاز وهو من أشهر فتاكيهم. وختموا السلسلة بإيفاد جمال إلى سوريا، فكان أول عمل قام به تفريق كتيبة ضباط العرب في دمشق وعددها ثمانين شاباً من خريجي المدارس العالية وأرسلهم إلى الدردنيل والقوقاس، فما نجا من أفرادها سوى القلائل. وفي أوائل الحرب أخذوا ينقلون الفرق العربية المرابطة في سوريا والعراق إلى ما وراء الأناضول، واحلوا مكانها فرقاً تركية محضة. وأرسلوا إلى البصرة قائداً قوي الشكيمة اسمه فريد بك للفتك بزعيمها طالب النقيب، ولكن النقيب كان أسبق منهم فأرسل أحد رجاله إلى القائد فاغتاله وتشتت أعوانه.

أما جمال فقد وصل إلى دمشق في كانون الأول عام ١٩١٤ وتسلم قيادة الجيش الرابع بالاضافة إلى كونه وزير الحربية، فحل محل زكي باشا الحلبي وهو عربي تمت التعبئة في عهده، ويقول جمال في مذكراته أن الخطة التي اتبعها في سوريا أولاً كانت خطة صفح وتسامح. غير أن موقفه تغير كلياً بعد هزيمته في قناة السويس بعد ذلك بثلاثة أشهر، وقد قيل أنه كان يطمح في تأسيس دولة في الولايات العربية والاستقلال بها عن الآستانة، وعقد صلح منفرد مع الحلفاء، وأنه فاتح بعض زعماء العرب في هذا فوجد نفوراً فعمد إلى القضاء عليهم. ويؤيد هذا ما صرح به عبد الكريم الخليل ساعة الإعدام إذ قال: إني أعرف السبب الحقيقي الذي يشنقني جمال لأجله وسيعرفه التاريخ. وأثبتت هذا الوثائق السرية التي نشرها رجال الثورة الشيوعية في روسيا عام ١٩١٨.

***

وصل وهيب بك إلى الحجاز في أوائل عام ١٩١٤ ومعه التعليمات لتطبيق قانون الولايات الجديد في الحجاز، واستعمال العنف في سبيل ذلك إذا اقتضى الأمر. ويقضي القانون بأن يدفع الأهالي الضرائب كغيرهم من سكان الولايات الأخرى، ولكن الرأي العام في الحجاز ثار على هذا القانون،

وتجمهر الناس وانقطعت المواصلات بين الساحل والداخل وبين مكة والمدينة، وتبدّت أشباح المجاعة، وزار الحسين الوالي وقال له :

" ها أنت ترى رغبة الشعب الحجازي في التمسك بحقوقه القديمة وبالشروط التي بويع بها السلطان سليم الأول بالخلافة، فإن أحببت عدم اعتبار هذا، وكانت في يدك أوامر من الدولة بتطبيق قانون الولايات على هذه البلاد وسلخ امتيازاتها، فأرنا هذه الأوامر التي لم تأتني عنها من الباب العالي أي إشارة. وإذا كان المقصود إجراء تبديل في الإمارة فهذا أنا سأبقى هنا إلى حين تأتي الباخرة التي سأسافر بها من جدة، لئلا يقع ما تسند تبعاته إلي".

وكانت دار الحكومة من غرفة الوالي إلى الشارع إلى دار الإمارة إلى قشلاق جرول وقلعة جياد ملأى بالمتظاهرين، وهم يطالبون بإلغاء أي تغيير في امتيازات الحجاز وبعدم مد السكة الحديدية من المدينة إلى مكة ويهتفون بحياة الحسين. فارتبك وهيب وأخذ يقول: ليس من هذا شيء... وكتب برقية بالحال الراهنة إلى رؤسائه.

واشتدت الأزمة وكاد الشر يزداد لولا وصول برقية من الصدر الأعظم للشريف، يؤكد له فيها عدم الإخلال بحقوق الإمارة وامتيازات الحجاز، ويذكر أن الدولة لا تلح في مد الخط الحديدي حالياً.

وممانعة الشريف والحجازيين في مد سكة الحديد سببها أن الحجاج القادمين بواسطتها لن تلزمهم خدمات البدو وأهل مكة في نقل أمتعتهم على الجمال وفي تعليم الحجاج الطواف، وهذا مما يؤثر تأثيراً كبيراً في اقتصاديات السكان.

غير أن الحكومة العثمانية كانت جادة فعلاً في مد الخط الحديد، وقد عرضت على الحسين شروطها بواسطة نجله عبد الله وخلاصتها :

١- يعطى ثلث دخل الخط ليصرفه كما يشاء.

٢- تكون له الإمارة مدى الحياة ومن بعده لأولاده.

٣- توضع تحت أمره القوة الكافية لتأمين التنفيذ.

٤- تصغي الدولة إلى آرائه في هذا الباب.

٥- تضع تحت تصرّفه ربع مليون من الجنيهات لينفقها علـــى العربـــان.

ثم هددت الدولة باستعمال العنف مع الشريف في حالة الرفض.

حمل الأمير عبد الله هذه الشروط وعاد إلى الحجاز ليعرضها على الحسين، ثم رجع مرة أخرى إلى الآستانة وقابل الصدر الأعظم وقال له :

"إن والدي يقول: أنا خادم الخليفة ولا أعارض فيما يرى جلالته عمله، وإني مستعد للتنفيذ حالاً. ولكن إذا كان إتمام بناء الخط وتأمين ولاء العشائر ومعاشهم هو ما يريده جلالته وتريده الحكومة . فلذلك وسائل لا تقتضي ربع المصروف المعروض. وهذه الوسائل اللازمة لإيجاد المشاريع تأتي بعد التفكير مع لجنة أترأسها أنا، ومن المناسب أن يكون فيها شيخ الإسلام أو أحد الوزراء. وإن كانت الرغبة منصرفة إلى إنشاء الخط تحت أي شرط يكون فينبغي توظيف فرقة عسكرية بكاملها على طريق السكة وإشغال المياه بين المدينتين".

وقد حدث بعد هذا مباشرة حوادث سراجيفو التي أدّت إلى إعلان الحرب فتوقف المشروع.

وقد نستغرب موقف الحسين من الدولة وموقفها منه. وقد نتساءل لماذا لم تعزله من منصبه. والواقع أن المتطرفين كأنور وطلعت وجمال كانوا يرغبون في عزله مهما كانت النتائج، ولكنهم لم يتمكنوا من إقناع الصدر الأعظم سعيد حليم باشا باتخاذ هذه الخطوة، ولما كان يتمتع به من نفوذ عند المعتدلين من الترك وعند أغلبية العرب. وقد شنّت عليه صحف الإتحاديين حملة اتهمته فيها بحب الاستبداد وعدم رعاية مصالح الدولة ولكنه لم يأبه لأقوالهم.

ثم أن الإتحاديين كانوا يوجهون أنظارهم إلى حلفهم مع المانيا ويستعدون انتظاراً للصدام المنتظر بين الدول العظمى، حتى يكون في مقدورهم المساهمة في الحرب واسترداد الأقطار التي خسروها في أوروبا وأفريقيا. وكانوا يعملون على تقوية جبهتهم الداخلية وعدم القيام بأي عمل عنيف يؤدي إلى تصدع هذه الجبهة. وكانت بداية العلاقات مع المانيا زيارة

القيصر غليوم وزوجته للآستانة عام ١٨٩٨، حيث تمكن من الحصول على امتياز سكة حديد الأناضول، ثم الإمتياز بمد خط حديدي إلى بغداد، وهو الحلم الذي كانت المانيا تعمل على تحقيقه في سبيل أغراضها التي تهدف إلى مقاومة الأنكليز في الخليج العربي، والعمل على السيطرة على أبواب الشرق تمهيداً للإستيلاء على إيران والهند.

وبدأ العمل في مد السكة الحديدية إلى الحجاز عام ١٩٠٠. وكان عبد الحميد يرمى إلى تقوية سياسته الإسلامية بالعمل على تسهيل طريق الحج. وطلب إلى المسلمين التبرع لمساعدة الدولة، فانهالت التبرعات حتى قيل أنها زادت عما أنفق على الخط، ووصل الخط إلى المدينة المنورة عام ١٩٠٨[١].

وقبيل الحرب عقدت الدولة العثمانية معاهدة صداقة مع المانيا التي أمدت الأتراك ببعثة عسكرية لتدريب جيشهم. ثم أسقط الإتحاديون عبد الحميد في نيسان عام ١٩٠٩. ووضعوا مكانه السلطان محمد رشاد وكان رجلاً ضعيفاً. ثم تمكنوا من اغتيال ناظم باشا عام ١٩١٣ وكان مشهوراً بالاعتدال. وأسقطوا وزارة كامل باشا وكان ميالاً للعرب. واستولوا على مقاليد الحكم.

وخلاصة القول في هذا الشأن أن حزب الإتحاد والترقي، الذي بدأ عثمانياً يضم جميع العناصر الفتية الناهضة في الدولة، تقلّص إلى أن صار حزباً تركياً محضاً يهدف إلى تسويد العنصر الطوراني، وإلى التحكم في العناصر الأخرى، ومعاملتها كشعوب مستعمرة مستعبدة تخدم أغراض الدولة، دون النظر إلى مصالحها وآمالها القومية. وجميع الحقائق تؤيد القول أن الأتراك كانوا البادئين بالعدوان. ولو ساروا على سياسة الوفاق، لما كانت هناك دواع للتذمر والشكوى، ولما كانت هناك ثورة.

١- في عام ١٩٨٠ نُشر كتاب باللغة الانكليزية عن خط سكة حديد الحجاز وهو من تأليف الدكتور وليم اوكسنوالد William Ochsenwald: The Hijaz Railroad, University press of Virginia, U.S.A وتجد عرضاً لهذا الكتاب في كتابي (رحلات في الأردن وفلسطين)، منشورات دار ابن رشد، عمان، ١٩٨٤، الصفحات ١٢٩ – ١٤٦.

- ٧ -

مكائد في الخفاء

لم يكفّ الإتحاديون عن بذل المحاولات للحد من سلطة الحسين، والتقليل من شأنه. وحدثت أول محاولاتهم في السنة الثانية لإمارته إذ أوعزوا إلى أمير الحج الشامي عبد الرحمن باشا اليوسف، أن يعمل على إيقاع الحسين في ورطة تخفف من غلوائه. فأعلن هذا أن طريق دمشق – المدينة المنوّرة غير مأمونة وأنه يخشى اعتداء العربان عليه، ولهذا فهو يقترح أن يعود المحمل الشامي بطريق البحر فيركب السفن من جدة إلى الساحل السوري. وفطن الحسين إلى المكيدة وإلى أن القصد منها إثبات عدم كفاءته وعجزه عن حماية الأمن والضرب على أيدي اللصوص وسقوط نفوذه بين العربان. ولهذا فإنه عارض عبد الرحمن اليوسف وأصرّ بلزوم رجوع الحج الشامي ومحمله على عادته من طريق البر. وأعلن أنه سيتولى بنفسه إرسال المحمل الشامي على مسؤوليته الشخصية، وعهد بقيادته والسهر عليه إلى شقيقه الشريف ناصر وإلى نجله عبد الله وصهره عبد الله باشا بن محمد والشريف شاكر بن زيد.

ورفض عبد الرحمن اليوسف السفر معهم مدعياً عدم الأمان، وأن الطريق محفوفة بالأخطار، وسافر بحراً هو وحاشيته إلى بيروت. غير أن الحسين لم يعبأ وسافر المحمل ودخل دمشق بسلام. فاحتفلت دمشق بالأشراف احتفالاً كبيراً ودعاهم أمير الحج إلى مأدبة عشاء فرفضوا قبولها.

واستفحل أمر الشريف وازداد نفوذه حتى امتد من الحجاز إلى سائر الأقطار العربية. وزاد من مخاوف الإتحاديين أنهم حينما كانوا يتهامسون على عزله قبيل الحرب، أرسل مبعوثو العرب في مجلس النواب الكتاب التالي إلى الحسين:

" إلى السند المعظم والشريف الأعظم حسين باشا أمير مكة أدامه الله.

نحن نواب العرب في مجلس المبعوثان نقرّك على إمارة مكة. ونعترف لك دون سواك بالرئاسة الدينية على جميع الأقطار العربية. لأنك الآن خلاصة بيت الرسول صلى الله عليه وسلم. واجماعنا هذا هو بالنيابة عن أهل بلادنا

نجهر به عند الحاجة. والله يحفظك لأمتك ويساعدك لدفع الشر عن دينك".

وكان وصول وهيب باشا إلى مكة في شهر شباط عام ١٩١٤ مزوداً بصلاحيات واسعة، وقد فوضه مركز الإتحاديين بمعالجة قضية الحجاز وأميرها، وجمعوا له بين الولاية وقيادة الجيش، وزودوه بأوامر مفادها القضاء على كل ما للشريف من نفوذ ومقام، واغتياله إذا لزم الأمر. وأمدوه لتنفيذ هذه الخطة بقوات كبيرة من الجند وآلاي مدفعية. وهذا نص التعليمات التي أعطيت له كما أوردها الفريق غالب باشا في مذكراته :

"إننا نعلم أن الشريف حسين يعمل بكل قواه في سبيل استقلال العرب وسلخ هذه البلاد عن السلطنة العثمانية، ولهذا اعتزمنا عزله وتولية الشريف علي حيدر بدلاً منه. فعليك حين وصولك إلى مكة أن توجد خلافاً بين مقامي الولاية والإمارة لنتمكن من تحقيق هذا الهدف".

ومما حقق مخاوف الحسين زيادة عما سلف، عثوره على مكاتبات سرّية كانت تدور بين الوالي والآستانة. وخلاصة الأمر أنه بينما كان نجله علي مسافراً إلى المدينة مع وهيب باشا في كانون الثاني عام ١٩١٥، لكي يتوجها بعد ذلك إلى قناة السويس للاشتراك في الحملة على مصر، فيقود الأمير متطوعي العربان ويقود الوالي الجنود النظامية المرابطة في الحجاز – سقطت محفظة الأوراق السرّية الخاصة بوهيب من السيد محمد نائب الحرم، وكان قد ائتمنه عليها لثقته به، فلم ينتبه لسقوطها، فعثر عليها أحد رجال الأمير علي وجاء بها إليه، فلما اطّلع على ما فيها من مكاتبات خطيرة حول الفتك بالحسين وأولاده والقضاء على استقلال الحجاز الداخلي، أمر رجاله بالتوقف عن السفر إلى صحراء سيناء، واعتذر وبقي في المدينة، ولم يلبث حتى عاد إلى مكة فسلم الأوراق إلى والده. وما أمرّ الحسين نظره عليها حتى عرف الحقيقة بكاملها، فأبرق إلى الصدر الأعظم يقول: إنه عثر بأناس يحفرون له ضريحاً، ويسأله السماح لأحد أبنائه بالسفر إلى الآستانة ليطلعه على المكيدة. فأجابه إلى ذلك. واختار الحسين نجله فيصل لهذه المهمة وكان معروفاً بالميل إلى مصافاة الترك والتعاون معهم.

سافر فيصل إلى دمشق في أواخر آذار ١٩١٥، ومنها قصد الآستانة. فبلغها في أواسط نيسان وأقام فيها ما يقرب من شهر. وتحادث أثناء تلك الفترة ملياً مع الصدر الأعظم ومع طلعت وزير الداخلية، وأنور وزير الحربية، وقابل السلطان مرتين. وقد لاقى عطفاً من الجميع على شكاواه. لكنهم أفهموه أن العلاج بيد والده. فإذا رضي الحسين أن يدعو للجهاد ويباركه فإن حل قضية الحجاز يكون سهلاً وسيتم وفق رغبته. وكتب الصدر الأعظم وطلعت وأنور إلى الحسين بهذا الشأن. وكان تحرير أنور المؤرخ في ٨ أيار أكثر الرسائل تبسطاً. فقد أوضح فيه موقف الدولة في الدردنيل وبيّن انتصارات المانيا والنمسا في ميادين أوروبا، ثم عرض لأهمية الجهاد في هذه الحرب. وختم الكتاب بحثّ الحسين على مناصرة الدولة.

وأثمرت زيارة فيصل، إذ نقل وهيب من الحجاز وعُيّن الفريق غالب باشا مكانه، وهو رجل طيب القلب محب للسلام. وأُعطي تعليمات تقضي عليه أن يتقرب من الشريف ويسعى للتفاهم معه. وكانت هذه الخطوة من جانب الأتراك ناتجة عن قناعتهم أنه ليس بإمكان الشريف القيام بثورة وفي الحجاز قوات نظامية كبيرة.

ويتحدث الشريف علي حيدر في مذكراته، عن خلاف نشأ بين الصدر الأعظم سعيد حليم من جهة، وبين طلعت وأنور من جهة أخرى- حول السياسة التي يجب أن تنتهجها الدولة حيال تصرفات الحسين، ويذكر أن طلعت وأنور اتفقا على إرسال حملة عسكرية إلى الحجاز للفتك بالحسين. ولكن سعيد حليم حال دون ذلك، محتجاً بأن عملاً كهذا سيثير مشاكل داخلية وخارجية هم في غنى عنها. هذا بالاضافة إلى معارضة كثيرين من الوزراء في أية خطوة تتخذ ضد الشريف حسين[1].

وتبدل الموقف عام ١٩١٦، فإن صلابة الحسين ومطالبته بالاستقلال،

١- George Stitt: A Prince of Arabia, George Allen & Unwin Ltd., London, 1948 صفحة ١٤٣.

جعلت الأتراك يوجسون خيفة ويتخذون بعض الاحتياطات، ومن ذلك أن جمال أمر فخري باشا وكيل قيادة الجيش الرابع بالسفر إلى المدينة بحجة الإشــراف على الحالة هناك، ولمعاونة بصري باشا حاكم المدينة في عمــل الترتيبــات اللازمة إذا وقع أي حادث. وكانت فيها قوة مؤلفة مــن ثلاثــة آلاف جنــدي عززوها بنجدات أخرى وأمر جمال أيضاً أن تبقى ثلاث كتائــب وبطاريتــان جبليتان على استعداد تام للزحف في أية ساعة على المدينة. وكــان الأتــراك يعلنون أنهم سيرسلون هذه القوة إلى اليمن مما زاد مخاوف الشريف. وأدرك أن الغرض من حشد القوات هو الزحف على مكة بحجة السفر إلــى الــيمن فيدخلونها بغتة ويفتكون به. يؤيد هذا ما قاله آصف بــك المستــشار العــدلي للجيش الرابع لفيصل وهما في المدينة والدموع تسيل من عينيــه: "إذا كنــت تستطيع أن تنجو بنفسك فانج ولا تعد إلى دمشق فهم يضمرون لك الشر. وأني أقول لك هذا القول كرامة لجدك الراقد في هذه الروضة".

ويقول غالب باشا في مذكرات له نشرها بعد الحرب، أنه عندما علم بحركات الشريف حسين فاتح الأمير عبد الله بهذا الشأن، وقال له : إن الواجب عليكم أن تساعدوا الدولة في حربها مع الأجانب، فأجابه: كيف تريد هذا وجمال الذي شنق زعماء سوريا يضع الخطط لشنقنا على أبواب منازلنا؟ ويقول الفريق غالب أنه تأكد من صحة هذه الظنون فيما بعد، حينما قابل جمال باشا الصغير في الآستانة، وأكّد له هذا أن أنور انتدبه للذهاب إلى الحجاز مكان فخري باشا وقال له: أن مهمتك تنحصر في قطع رؤوس الشريف وأولاده والإتيان بها إلي، ولكنه رفض هذا العرض.

وتضاعف استياء الأتراك من الحسين بعد معارضته للجهاد الذي أعلنوه، إذ اعتذر بأنه لا يستطيع الإشتراك فيه علناً، خشية أن يضرب الأسطول البريطاني سواحل الحجاز المكشوفة ويضيّق الحصار عليه. على أنه لم يجد بدّاً من إرسال علم النبي إلى دمشق، مع الوعد بتجنيد ١٥٠٠ متطوع.

وكانت انكلترا تخشى التأثير الذي يحدثه إعلان الجهاد، خاصة بعد

حوادث دارفور والصومال وطرابلس والباكستان. وقامت بدعاية معاكسة، فأذاع مكماهون بياناً قال فيه : إن حكومته تؤيد تأسيس دولة مستقلة في الجزيرة العربية، وترحّب بتنصيب خليفة عربي. وفي ذات الوقت كانت اتصالاتها مستمرة مع الحسين لعقد اتفاق معه.

– ٨ –

المحادثات التمهيدية

بعد إعلان الدستور وتعيين الشريف حسين لإمارة الحجاز. انتخب الأهلون نجليه عبد الله وفيصل ليمثلا مكة وجدّة في مجلس النواب العثماني. فكثرت رحلاتهما تبعاً لهذا إلى الآستانة[١] وفي عام ١٩١٤ دخل الأمير عبد الله في محادثات مع الباب العالي لدعم مركز والده في الحجاز كما قدّمنا. وصار معروفاً بأنه اليد اليمنى لوالده. وظن الإتحاديون أنه يحرض الحسين على إثارة المشاكل فجربوا أن يلهوه بالوظيفة، فعرضوا عليه مقعداً في الوزارة. ثم حاولوا تعيينه حاكماً عسكرياً لليمن. ولكنه عرف الدوافع لهذه العروض فاعتذر عن قبول احدها.

وفي عام ١٩١٣ بينما كان الأمير عبد الله في القاهرة ضيفاً على الخديوي عباس حلمي، منتظراً سفر الباخرة، زار اللورد كتشنر – المعتمد البريطاني في مصر – الخديوي في قصره، وكان ساعتئذ يجلس مع الأمير عبد الله، فقام الخديوي بواجب التعريف بينهما. وبعد هنيهة استأذن الأمير وخرج.

كانت هذه المقابلة في قصر القبة. وكان الأمير ينزل في قصر عابدين. وبعد وصول الأمير إلى قصر عابدين بساعة ونصف جاء اللورد كتشنر لزيارته دون سابق إنذار. فتردد الأمير في استقباله خوفاً من التقولات والتخرصات بشأن سياسة الحسين في الحجاز. ولكنه ما كان يستطيع رفض زيارة مجاملة

١– كان يمثل الحجاز في مجلس المبعوثان العثماني، ستة نواب، هم: الأمير عبد الله والشيخ حسن الشيبي (مكة)، الأمير فيصل وقاسم زينل (جدة) ومأمون برّي وعبد القادر هاشم (المدينة المنورة).

كهذه، فاستقبل اللورد ومعه السكرتير الشرقي لدار الإعتماد البريطاني رونالد ستورس. وبعد السلام قال له اللورد " لقد اغتنمت فرصة مـــروورك بـــالقطر المصري فجئت لأبلغك شكر حكومتي على ما يلقاه الحجاج الهنود من عناية والدك واهتمامه خلال تأديتهم لفريضة الحج وخاصة لاستتباب الأمن. وإننـــي أطلب تبليغ هذا لصاحب السيادة العظمى الشريف. وإن حكومـــة جلالتـــه لا ترضى بأي تغيير هناك". فشكره الأمير على زيارتـــه ومجاملتـــه. وانتهـــت الزيارة.

ثم قصد الأمير دار المندوب السامي العثماني، وقص على الوزير تفاصيل الزيارة واستأذنه فى ردّ واجب الزيارة، راجياً إياه أن يبلغ الباب العالي حقيقة الأمر، فلا يكون هناك مجال للتأويل، وفي اليوم التالي ذهب لردّ الزيارة.

وفي العام التالي – شباط ١٩١٤ – بينما كان الأمير عبد الله في طريقه إلى الآستانة، عرّج على القاهرة لزيارة الخديوي عباس حلمي. وفي هذه الزيارة اجتمع باللورد كتشنر ومستر رونالد ستورس. وفي خلال الحديث أشار الأمير إلى العلاقات المتوترة بين الشريف والأتراك. ولمّح إلى أنه من المحتمل نشوب ثورة في الحجاز إذا حاول الأتراك عزل والده. وفي أسلوب لا يظهر فيه الاهتمام حاول أن يفهم من كتشنر كيف يكون موقف الأنكليز في حالة كهذه. فكان جواب كتشنر: إن انكلترا حريصة على إبقاء علاقاتها ودية مع الترك، وأنها تساعد العرب ضمن هذه الدائرة مراعاة للصداقة التقليدية التي تربطها بتركيا.

ويروي الملك عبد الله في مذكراته عن هذه المقابلة ما يلي :

"وبعد أن تناولنا الشاي، ذكر ملمحاً أنهم أحاطوا علماً أن في نية تركيا القيام بتغييرات أساسية في بلاد العرب. فهل إذا كان من جملة هذه الإجراءات أي تغيير في شخصية الأمير، سيرضى سموه بذلك؟ قلت له إن الشريف في العرف موظف، من حق السلطان تغييره، وهو لا يعارض إن وقع. ولكن إذ رأى أن الدفاع من منفعة الوطن المقدس، فهل تساعدون الأمير في دفاعه أنتم؟ فأجاب : إن بيننا وبين تركيا صداقة تقليدية لا تبيح لنـــا

التدخل في شؤونها الداخلية"[1].

ويتحدث رونالد ستورس في كتابه "المشرقيات" عن هذه المقابلة. فيقول:

"وصل الأمير عبد الله وحل ضيفاً على الخديوي. واجتمع باللورد كتشنر، ويظهر أنه كان عنده ما يقوله ولكنه لم يفصح عن غرضه. وكانت قد وصلتنا إشارة من الآستانة أن اجتماعات كهذه لا تسرّ الباب العالي، الذي يخشى قيام فتن بين العرب في سورية والحجاز. وبناء عليه فإن اللورد كتشنر استقبل الأمير بشكل عادي فقط. وكان الأمير قد دعاني لزيارته في قصر عابدين ففعلت. وجلست إليه ساعتين استعرضنا خلالهما ماضي العرب المجيد وحاضرهم الخامل. وسألني الأمير أخيراً فيما إذا كانت الحكومة البريطانية تستطيع أن تبيع والده إثني عشر مدفعاً أو نصف هذا العدد على الأقل. واستوضحته عن الغرض من وراء هذا فأجابني: إنها للدفاع ضد أي هجوم تركي محتمل. ولكني اعتذرت له أننا لا نستطيع أن نقوم بتسليح العرب ضد أصدقائنا الترك".

وبتاريخ ٢٦ نيسان ١٩١٤ أرسل اللورد كتشنر إلى لندن رسالة سريّة قال فيها: "الشريف عبد الله.. أرسل يدعو ستورس الذي أجابه – بناء على تعليماتي – إن عرب الحجاز يجب أن لا ينتظروا منا أية مساعدة، ورغبتنا في الجزيرة العربية هي سلامة الحجاج الهنود وراحتهم... يظهر أن الشريف غير مسرور من نتائج رحلته للآستانة، خصوصاً من تصميم الحكومة التركية على مد سكة الحديد إلى مكة. إذ هو يرى أن سكة الحديد ستقضي على حياة الشعب الاقتصادية التي تعتمد على الجمال... إنني بانتظار إيضاحات كافية فيما إذا ظهر أن حركة العرب أكبر مما نراها عليه الآن".

غير أن اللورد كتشنر أرسل ستورس إلى الأمير ثانية. ومعه كتاب بعنوان السفير البريطاني في الآستانة. يقول فيه: "متى احتاج الأمير عبد الله

١– عبد الله بن الحسين : مذكراتي، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٤٥، صفحة ٧٣.

الباخرة الحربية المخصصة للسفير البريطاني فأجعلوها تحت تصرفه". وقال ستورس للأمير: "إن فيتز موريس رئيس تراجمة السفارة البريطانية في الآستانة، سيأتي لمقابلتك في أزمير ولتسلّم هذا الكتاب منك، وسيضع باخرة خاصة تحت تصرفك لتبحر بها إذا شئت. وأرجو أن تعلم أنه إذا دافع سمو الشريف عن حقوقه بالحجاز، فالحكومة البريطانية التي ليس لها أي حق بالتدخل في شؤون داخلية لدولة صديقة، لا ترضى أبداً بدوام أية حركات تسببها تركيا ضد السلام السائد الآن في بلاد الحج".

وكتب الأمير لوالده بجميع هذه التفاصيل، وأعطى كتابه لستورس لأيصاله إلى جدّة ومنها إلى مكة، حتى لا يقع بيد الأتراك.

وسافر الأمير إلى الآستانة، ولكن لم يحدث ما يضطره إلى طلب الباخرة. وبعد أن قابل الوزراء واطلع على شروطهم بشأن مد سكة الحديد، عاد إلى الحجاز لعرض الشروط على الحسين. وبعد ذلك عاد ثانية إلى الآستانة. وخلال إقامته فيها أعلنت الحرب وأُغلق البرلمان، فغادر الآستانة في ١٨ آب ١٩١٤ ومعه شقيقه فيصل وفي طريق عودتهما إلى الحجاز حلا ضيفين على الخديوي بالقاهرة.

وزار ستورس الأمير، وأظهر في حديثه تساهلاً أكثر مما أظهر في المقابلة السابقة. وقال للأمير أن الحكومة البريطانية بدأت تشعر بأحقية العرب في الحصول على استقلالهم. وأنها تعطف على مطالبهم، وقد يأتي يوم تؤيدهم في محاولة الحصول على هذه المطالب. ثم سلمه كتاباً من الحكومة البريطانية إلى والده تشكره فيه على حسن قيامه بخدمة الأماكن المقدسة وسهره على راحة الحجاج، وتذكر فيه أنها لا تمانع في إعادة الخلافة للعرب. ولم يجتمع الأمير بكتشنر إذ كان قد عُيّن في بلاده وزيراً للحربية.

***

في أيلول ١٩١٤، كتب ستورس إلى كتشنر يطلب تزويده بالصلاحيات الكافية ليستفهم من الأمير عبد الله عن موقف العرب، في حالة دخول تركيا الحرب إلى جانب المانيا. وينوه له بالفوائد التي يجنيها الأنكليز إذا ما تمكنوا

من كسب العرب إلى صفوفهم. وما وصل اقتراح ستورس إلى كتشنر (وزير الحربية البريطانية يومذاك) حتى أبرق له بموافقته على فتح باب المحادثـــات، وبناء عليه فقد أرسل ستورس رسالته الأولى مع فتى مصري الأصل اســـمه علي أصغر ذهب إلى الحجاز متظاهراً بالتجارة فبلغ مكة فـــي ١٣ تـــشرين الأول وسلم الرسالة إلى الأمير وهذا نصها :

"أمرني اللورد كتشنر وزير الحربية البريطانية، أن أكتب إلى سيادتكم لأسألكم فيما إذا كنتم وسيادة الوالد، لا تزالون على رأيكم الأول في القيام بما يؤدي إلى استقلال العرب استقلالاً تاماً. وقد سبق له أن اعتذر لكم بعدم امكانه مساعدتكم في تحقيق هذا الهدف، أما الآن وبسبب أن الدولة العثمانية قد ضربت بصداقتها التقليدية مع بريطانيا العظمى عرض الحائط، وانضمت إلى صفوف أعداء بريطانيا. فإن بريطانيا ترى نفسها في حلّ من تلك التقاليد التي كانت تربطها بتركيا، وهي على استعداد لإمداد الحركة العربية بكل ما هي بحاجة إليه ".

واطلع الأمير والده على الرسالة فابتسم وقال : أكتب إليهم بوصول الرسالة، وقل: إننا على غير استعداد البتة في الوقت الحاضر للمطالبة باستقلال العرب. وعليه فقد أجاب الأمير على رسالة ستورس، معتذراً بأن مركز والده يؤخره عن البت في الأمر، وسلطته لا تتعدى الحجاز. وألمح إلى أن القيام بالثورة ممكن، فيما إذا وصلت أعمال الأتراك إلى حد لا يمكن السكوت عليه، شريطة أن تقدم انكلترا المساعدات الفعالة.

عاد الرسول بجواب الأمير فأبرق ستورس بخلاصته إلى لندن. وفي ٣١ تشرين الأول أرسل كتشنر نصّ الجواب الذي يجب إرساله ثانية إلى الشريف. فحمله الرسول وعاد به إلى مكة فوصلها في ١٦ تشرين الثاني. وسلم الرسالة إلى الأمير. وهذا مضمونها:

"بما أن الترك قد عزموا نهائياً على دخول الحرب إلى جانب المانيا. وبما أن الفرصة سانحة لكم لتحقيق مطالب العرب. فالحكومة البريطانية تكرر

وعدها السابق. وتؤيد مركزكم في إمارة مكة مع كل حقوقها وامتيازاتها. وتعد بأن تحمي الحجاز من كل اعتداء خارجي، وأن تقدم لجميع العرب معونتها الفعالة فيما إذا حالفوا بريطانيا وهبّوا يطلبون استقلال وطنهم. كما أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تنصيب خليفة عربي على المسلمين".

كان الحسين لا يزال متردّداً. وعليه فقد اتبع خطة التسويف مع الانكليز، حتى ينجلي الموقف مع الاتحاديين. فكتب الأمير عبد الله رسالة إلى ستورس قال فيها إن الشريف يولي اقتراحاته كل اهتمام، ولكن الوضع حرج ولا يمكن القيام بعمل في الوقت الراهن، ومن الضروري التريّث إلى أن يحين الوقت المناسب[١].

وصلت رسالة الأمير إلى ستورس في أوائل كانون الأول. وبها انتهى أول فصل من المحادثات مع بريطانيا. ويبدأ الفصل الثاني في تموز من السنة التالية حينما أتمّ الحسين مشاوراته مع زعماء العرب في الأقطار لأخرى، ويبدأ الفصل بمذكرته المشهورة إلى هنري مكماهون.

ولا بد من تلخيص ما كتبه ستورس أيضاً حول تبادل الرسائل الأولى، إذ يلقي ضوءاً جديداً على هذه الفترة. قال:

"لم أنس مظاهر الألم التي لمحتها على وجه الأمير عبد الله عند زيارته لمصر. وعليه فقد قدمت مذكرة قصيرة أوضحت فيها أننا بمحادثاتنا مع مكة، سوف لا نضمن حياد العرب فحسب، بل ومحالفتهم في حالة إعلان تركيا الحرب علينا. غير أن دار الاعتماد كانت مشغولة بأمر العرش المصري وتعبئة الجنود . فمرّت الأسابيع دون أن أتلقى جواباً، وأخيراً بسطت الأمر للكابتن كلايتون رئيس شعبة الإستخبارات. فلم يخيّب ظني وأرسل كتاباً سرياً إلى اللورد كتشنر حول هذا الموضوع. فلم يمر أسبوع حتى أجاب كتشنر مؤذناً

١- تجد نص رسالة ستورس ورسالة الأمير عبد الله في المجلد الأول من (المراسلات التاريخية)، عمان، ١٩٧٣، الصفحات ٢٧- ٢٩.

بفتح باب المحادثات.

حرّرت الكتاب للأمير وأرسلته مع هدية مناسبة. فعاد إلي بجواب مرض، وكان الرسول عند وصوله إلى مكة قد وجد أن الشريف وعائلته في الطائف. فاتصل بالشريف شرف نائبه الذي أرسل يخبر الأمير عبد الله، وحينما جاء الحسين وولده أخذ عبد الله الرسول إلى غرفة صغيرة وهناك قرأ الكتاب ثم أخذه إلى غرفة فسيحة فاخرة حيث تناول الطعام مع الشريف وأولاده الأربعة. وعند العصر أصعده أحد العبيد إلى غرفة على سطح القصر حيث جلس مع الشريف الذي بدأ الحديث بقوله: "سأتكلم يا ولدي مع أنه لا غرض شخصي لي في الموضوع". ونهض يمشي ذهاباً وإياباً مع اصراره على أن يبقى الرسول جالساً : "للأمبراطورية العثمانية علينا واجبات ولنا عليها واجبات. ولكنها عارضت في مصالحنا. ولما كنا غير مسؤولين أمام الله إذا هي رفضت التسليم بحقوقنا. فلن نكون مسؤولين تجاهه تعالى إذا نحن لم نقم بواجبنا نحوها". وكان يشير بيده وهو يتكلم وقد أرخى ردن جبته الطويل... "إن يد المساعدة ستمتد إلينا. ولن نساعد هؤلاء الظالمين أبداً. بل على العكس سوف نساعد هؤلاء الذين يعملون الخير. ولقد أوصانا الله أن نحاسن الإسلام والمسلمين... بلغ ستورس تحياتي مع أطيب تمنياتي لبلاده" وكان الرسول يجيب بقوله: "سمعاً وطاعة يا سيدنا".

وفي ٣١ تشرين الأول أبرق اللورد كتشنر إلى مصر. "تحياتي للشريف عبد الله – أغرت المانيا الحكومة التركية بالمال. ومع أن انكلترا وفرنسا وروسيا تعهدت بسلامة الدولة العثمانية إذا بقيت على الحياد- فإن الأتراك بادؤونا بالعدوان على غير إرادة السلطان؛ وهاجم جنودهم الحدود المصرية... إن بريطانيا العظمى تتعهد بأن تقدم للعرب كل مساعدة ضد أي اعتداء أجنبي".

وفي ١٠ كانون الأول عاد الرسول من رحلته الثانية إلى مكة، وقد أبدى الشريف صداقته لنا، ولكنه بيّن عدم تمكنه من الثورة حالياً في وجه

الترك. وأنه بانتظار فرصة أفضل على أمل أن يجعل مـن أخطـائهم حجـة عليهم[1].

– ٩ –

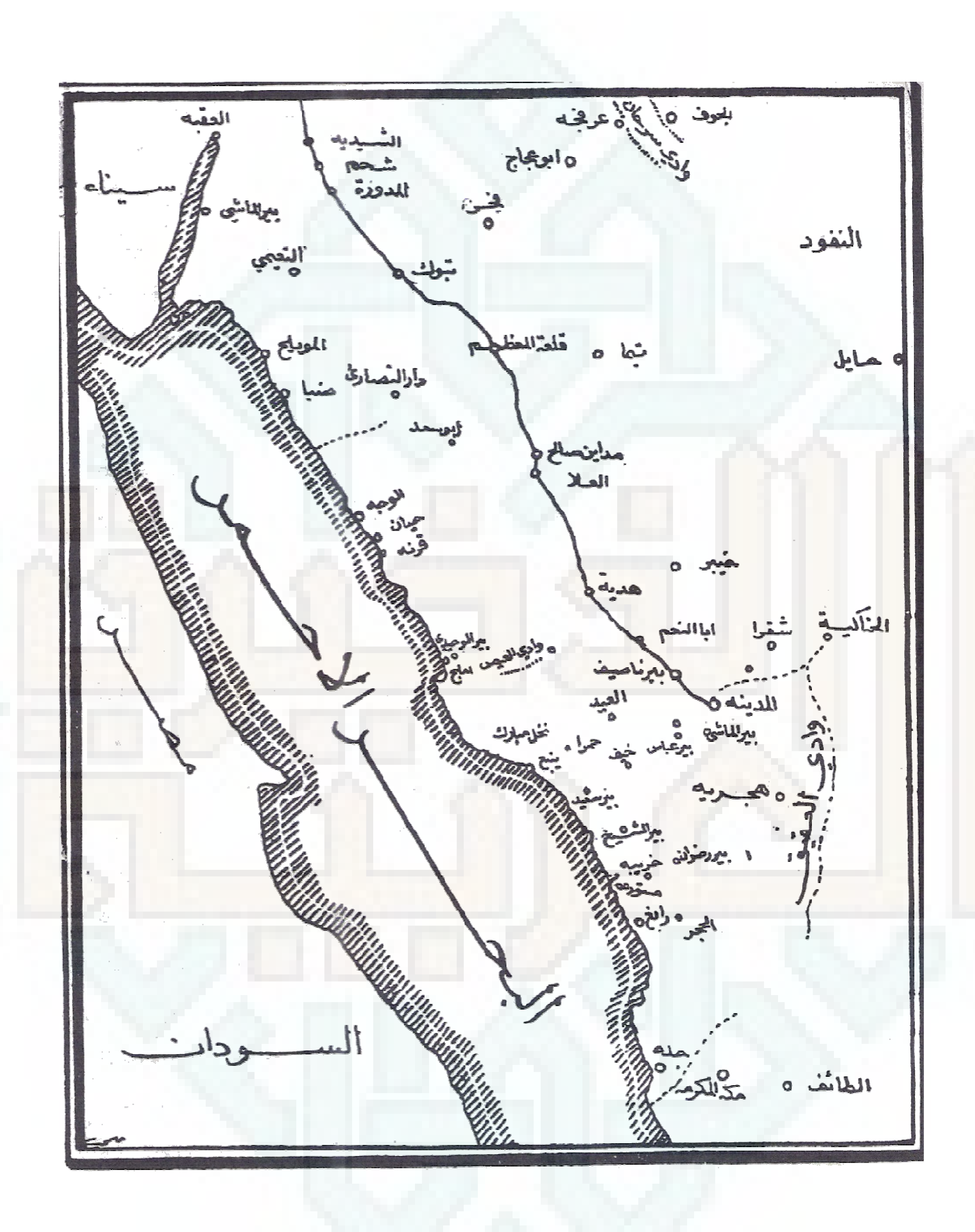
العاصفة في سورية

ما كان الاتحاديون يضمرون للعرب خيراً منذ إعلان الدستور العثماني، ونشوء الجمعيات العربية، ومطالبتها بالإصلاح. ولم يكن ما أظهروه أحياناً من مجاملة وإغضاء، إلا ستاراً يخفون وراءه شبكة دسائسهم. وعندما أعلنوا الحرب رأوا أن الفرصة قد سنحت، وساعة الانتقام حانت، فأرسلوا طاغيتهم جمال إلى سوريا وكانت تضرب بقسوته الأمثال. وزودوه بصلاحيات مطلقة ليتمكن من تشتيت شمل أحرار العرب والقضاء على كل نزعة قومية في قلوبهم.

وإذ لم يكن العرب يعلمون من نوايا الإتحاديين شيئاً، فقد استجابوا لنداء الدولة، وتطوعوا في صفوف الجيش. وحارب جنودهم ببسالة في ميادين القفقاس والدردنيل. وفي حملة القناة ليلة ٢ شباط ١٩١٥ أبدوا من ضروب التضحية ما استحق إعجاب الأعداء والأصدقاء. علماً منهم أنما يدافعون عن دولتهم ووطنهم.

وكل الدلائل التي بين أيدينا، تدل على أن العرب أخلصوا للدولة في أوائل الحرب، وسكتوا على تعطيل أحزابهم السياسية، وجعلوا همّهم بث الروح الوطنية لمساعدة الدولة في حروبها. وكان الوطنيون منهم يعلمون أن فرنسا وروسيا طامعتان في اقتطاع الولايات العثمانية، مما اضطر حتى جمعية

١– رونالد ستورس، مشرقيات، الصفحات ١٤٢ – ١٤٣، ١٧٢ – ١٧٧.
Ronald Storrs: Orientations, Ivor Nicholson & Watson, London, 1937.



المعارك بين العرب والترك في الحجاز

الفتاة المعروفة بتطرفها، وبمبادئ زعمائها الاستقلالية، أن تقرر في اجتمـــاع عقده رؤساؤها قبيل دخول تركيا الحرب ما يلي :

"إن اشتراك تركيا في الحرب، يجعل مصير الولايات العربية في الأمبراطورية العثمانية، معلقاً في ميزان القدر. وهذا الموقف الخطر يحتم توجيه جهود أبناء هذه الولايات للمطالبة باستقلالها. على أن الجمعية مصممة- فيما إذا ظهر أن نوايا دول أوروبا نفعية ومادية – على أن تربط مصاير العرب بمصير تركيا لمقاومة النفوذ الأجنبي مهما كان نوعه".

***

لم يدر جمال كيف يبرر خذلانه في مهاجمة قناة السويس. وأخذ يبحث عن وسلة يغطي بها فشله، فلم يجد خيراً من الصاق التهم بأحرار العرب، واتهامهم بالتعاون مع الأعداء، فيصيب عصفورين برمية حجر. ولذا فقد فوجئ الناس في أواخر شهر حزيران سنة ١٩١٥ باعتقال نخبة من رجال سوريا العاملين في حقل الإصلاح، والساعين في سبيل النهضة، وإيقافهم أمام المجلس العسكري "ديوان الحرب العرفي" الذي تشكل في (عاليه) بجبل لبنان، حيث دار التحقيق السري معهم حول أعمالهم التي قيل أنها تسبب خطراً على الأمن العام.

وعقلت الدهشة ألسنة الناس عندما أُعلن أن هؤلاء المعتقلين قد عُلّقوا على أعواد المشانق في بيروت صباح ٢١ آب ١٩١٥ وهذه أسماؤهم : عبد الكريم الخليل، صالح حيدر، مسلّم عابدين، نايف تللو، محمد المحمصاني، محمود المحمصاني، عبد القادر الخرسا، محمود العجم، سليم عبد الهادي، نور الدين القاضي، علي الأرمنازي.

ومرت بضعة أشهر، ظن الناس فيها أن جمال السفاح قد اكتفى بهؤلاء الضحايا على مذبح إجرامه. ولكنهم كانوا واهمين إذ ما عتموا أن علموا في ربيع سنة ١٩١٦ باعتقال قافلة أخرى من الزعماء وسوقها إلى الديوان العرفي.

كان الأمير فيصل في سورية يومذاك، فأخذ ضغط الأحرار وإلحاحهم عليه يزداد يوماً بعد يوم، راجين أن يتوسط لدى جمال للعفو عن المعتقلين.

وحاول فيصل كثيراً مع جمال ولكنه لم يجد منه قبولاً، فاضطر أن يبلّغ والده الأمر. وتوالت على الحسين استغاثات العرب، كما توالت عليه طلبات الدولة بإعلان الجهاد المقدس في أقطار الإسلام من مكة وبإرسال المجاهدين. فلم ير بداً من إرسال البرقية الخطيرة التالية، إلى الصدر الأعظم وإلى وكيل القائد العام أنور باشا. وهي مؤرخة في ١٦ آذار :

"إن خروج الدولة العلية منصورة من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولا سيما العرب والجانب الأهم من ميادين القتال في بلادهم، وتأييدهم لها قلباً وقالباً في نضالها.

"ويلوح لي أن إرضاء الشعب العربي، يتوقف على مداواة قلبه الذي جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه، بتهم سياسية مختلفة، والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية، بالدواء الآتي :

١- إعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين.

٢- إنالة سورية ما تطلبه من نظام لا مركزي، وكذلك العراق.

٣- جعل إمارة مكة وراثية في أولادي. واعتبار الشرافة معترفاً لها بحقها الموروث، والمتفق عليه من عهد السلطان سليم.

"فإذا قبلت هذه المطالب فإن الأمة العربية تقوم بواجبها عن إخلاص. وأتعهد أنا بحشد القبائل العربية للجهاد، بقيادة أبنائي في ميداني العراق وفلسطين. كما أنه على الدولة التأثير على ابن رشيد لينضم إلى الجهاد. واذا لم تقبل هذه المطالب، فأرجوكم أن لا تنتظروا مني الاشتراك في حرب كنت نصحت بأن لا تثار ولا تشق. وسأكتفي بالدعاء للدولة بالنصر والظفر".

وكان الرد على هذه البرقية من الصدر الأعظم، ومن أنور باشا بالبرقية التالية :

"وصلت برقيتكم الهاشمية، القائلة إن إحراز النصر يكون باشتراك جميع أبناء الأمة قلباً وقالباً، ولما كان طلب إعلان العفو عن بعض المتهمين، وتطبيق نظام اللامركزية في سورية واستبقاء أمارة مكة في شخصكم السامي

وفي أولادكم، خارجاً عن اختصاص سيادتكم، فالاستمرار في طلبه ليس من مصلحتكم في شيء.

وإننا نبلغكم، أنه لا بد أن ينال الموقوفون عقابهم. كما أن حقوق سيادة ملجأ الخلافة ستبقى في الحجاز على ما كانت عليه قبلاً، وكما هي في جميع الممالك الشاهانية. ونلح عليكم بأن تستدعوا ولدكم علي الموجود في المدينة إلى مكة فوراً، وترسلوا المجاهدين الذي وعدتم بإرسالهم إلى دمشق، ليكونوا بقيادة ولدكم فيصل بك. وبديهي أنه سيظل ضيفاً على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب. وإن لم تنفذوا هذا فالنتيجة بحقكم لا تكون مسرّة".

وعند وصول هذه البرقية إلى الحسين واطلاعه عليها. قال أيهددّني؟ ثم قال متمثلاً :

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفرس تحتك أم حمارُ

ثم أبرق للصدارة ولوكيل القائد العام ما يلي :

"ليس لي ما أقوله سوى النصيحة الأخيرة في برقيتي وبها ضمان انحياز العرب إلى صفوفكم بقلوبهم. أما ابني فيصل فلم أبعثه إليكم وأنا أعتقد أني أراه مرة أخرى، فافعلوا ما شئتم".

وبعد يومين وردت برقية من الصدر الأعظم. هذا نصها :

"بعد التأمل رأينا شكر سيادتكم على أجوبتكم. فإذا بعثتم بالمجاهدين إلى الشام فقد أشعرنا جمال باشا ليذاكر نجلكم الشريف فيصل بك فيما يتعلق بالمجرمين السياسيين.

فأجابه الحسين :

"إنني ممتن على تلطفكم بالجواب. أما المجاهدون فأصروا على عدم السفر، إلا إذا حضر فيصل ليأخذهم. فإن كانت الرغبة حقيقية فابعثوا به ليستصحبهم".

فجاء الرد على الفور :

"سيتوجه الشريف فيصل بك إلى المدينة، ليستصحب المجاهدين ويعود بهم إلى الشام، وإنا لنرجو أن تسترجعوا نجلكم الشريف علي بك من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، لعدم امتزاجه مع المحافظ". وكان جواب الحسين "عند وصول الشريف فيصل سيترك الشريف علي المدينة المنورة"(١).

ويذكر جمال في مذكراته أن أنور أرسل له صورة البرقية المرسلة من الشريف حسين. فاستدعى فيصل وأحضر علي فؤاد باشا رئيس أركان حربه، ليكون شاهداً على الحديث وقال لفيصل:

"لما سمعت عند عودتي من المدينة، بأن أخاك علي بك أخذ يتدخل في سلطة حاكم المدينة، ويدعي حقوقاً ليست له. أبلغت الحاكم أن يطلب إليه الكفّ عن هذه الأعمال في المستقبل. وسألت أباك أن يطلب إليه الطلب نفسه. وفي محادثاتي السالفة أعلمتك بأنني شخصياً لن أدّخر وسعاً في سبيل المحافظة على حقوق والدك. حتى إذا اعتدى أحد بصفة غير قانونية على حق من حقوقه مددت إليه يد المساعدة. ولو أدى ذلك إلى الاصطدام بأشخاص آخرين من ذوي المراكز السامية. وقد أخبرته بذلك في ظروف عديدة فكتب إلي عن شكره وامتنانه. وأنت تعرف في الوقت ذاته أن لأبيك خصوماً لا يُستهان بهم من أسرته في الآستانة. وهم يعملون صباح مساء لإثارة الشكوك في الحكومة ضده. فخير لكم اجتناب القيام بكل ما من شأنه أن يكون حجة لخصومكم عليكم".

واطلع فيصل على البرقية، فأظهر أسفه، وقال: إن ما وقع لم يكن سوى سوء تفاهم. ولا سيما إن والده لا يجيد التركية وربما ترجهما كاتب عجز عن فهم غاية الحسين. ووعد أن يكتب لأبيه يسأله العدول عن نواياه. أما جمال فقد أرسل إلى الحسين البرقية التالية :

---

(١) عبد الله بن الحسين، مذكراتي، مصدر سابق، الصفحات ١٠٥ – ١٠٧.

" لقد نمى اليّ خبر برقيتكم إلى أنور باشا. فأنتم تطلبون أن تكون الأمارة وراثية في أسرتكم، وأن يمنح أشخاص عديدون العفو الشاهاني، بعد أن قامت البراهين على خيانتهم للوطن والملّة. وليس بالمستطاع إجابة الطلب الثاني لئلا يؤدي ذلك إلى ضرر شديد، في مسألة لها ارتباط وثيق بالمصلحة العامة. كما أن الحكومة التي تعفو عن الخونة، جديرة بأن يتهمها الجمهور بالضعف. بل قد يغري ذلك العفو كثيراً من الناس بالخيانة وطعن الدولة والملة طعنة نجلاء. ولو عرفت محتويات الوثائق التي ظهرت في المحكمة لرأيت أي حد من الخيانة وصلوا إليه".

"أما فيما يختص بمسألة جعل الأمارة وراثية في أسرتك. فإنه يخيّل لي – وأظنك تسامحني في هذا الرأي – أن الفرصة ليست مناسبة للمطالبة بذلك الطلب، وأحسبكم توافقون بأن الإعراب عن مثل هذه الرغبات، ونحن في إبان الحرب – حيث تتعرض كل قوى الإنسان العقلية والبدنية لأشد العناء والنصب– من شخص يتبوأ مركز الشرافة، وفي أهم بقعة من بقاع الدولة العثمانية – هي أكثر تعرضاً للأخطار من سواها– لا بد أن يكون له أسوأ الأثر في نفوس الجمهور. والذي أعتقده أنه ما كان ينبغي لكم أن تطلبوا مثل هذا الطلب حتى ولو كان لكم الحق في طلبه. لأن جهود الأمة بأسرها ينبغي أن تحشد اليوم، لغرض واحد، لا ثاني له، هو إحراز النصر النهائي".

"وأرى من الواجب، أن ألفت نظركم، إلى الوجهة التالية من وجهات النظر للمسألة. وهي أنه لو فرضنا جدلاً أن الدولة لبّت طلبك، لمجرد الرغبة في الحصول على مصادقتك في هذه الأوقات العصيبة التي نقطعها، فماذا يمنعها من أن تعاملك بالشدة والقسوة فيما لو انتصرت في الحرب؟. وعلى كل الوجوه فيجب أن تعلم أن الرجال الذي أسسوا الحكومة الحاضرة، والذين تجرأوا على القيام في وجه السلطان عبد الحميد، الذي أمضّكم استبداده، لن يصفحوا عمن يجترئ على شلّ أيديهم في هذه الحرب التي دخلوها لمصلحة العالم الاسلامي ".

"وهم في ذات الوقت لا يتأخرون في استحصال جزيل الأنعام، وعظيم

المكافأة، من جلالة الخليفة، لكل من عمل ابتغاء مرضاة الله ولتحقيق غاياتنـــا المقدسة".

ويتكلم جمال في مذكراته عن الأحرار العرب، محاولاً الصاق التهم الشنيعة بهم، فيقول:

"ثم مرّ شهور على هذه الحوادث، وجاء رد الشريف حسين على البرقية التي أرسلتها إليه، فاستنتجت من جوابه أن كلماتي كان لها أثر سيء في نفسه. ويلح في أصدار العفو العام، لأن صدوره يكون في مصلحة الحكومة، ثم يشكو مر الشكوى من حاكم المدينة بصري باشا قائلاً : إنه يأبى أن تُسلب منه بلا مبرر حقوق منحه إياها الخليفة العثماني.

ويستطرد جمال فيقول: " إنه دعا فيصل وخاطبه بلهجة شديدة حاسمة عن موقف والده قائلاً: إنني لم أستطع إدراك الغرض من اللهجة التي استعلمها أبوك في الأيام الأخيرة، ولا المسلك الذي سلكه أخوك في المدينة. لقد كانت علاقاتنا معك ودية هنا. فبماذا يمكننا أن نفسّر مسلك أخيك؟ وإني أريد أن تعلم أنكم إذا أردتم أن تظلوا أصدقاءنا، فعليكم بمراعاة قوانين الصداقة، أما إذا كنتم ذوي غايات أخرى فالأولى أن تلجأوا إلى السلاح، وتجنحوا إلى ثورتكم في الحال. وإذا كنتم لا تضمرون الشر فاكتب إلى أخيك علي ليحضر إلى هنا في الحال وأن يكفّ والدك عن لهجته القاسية معنا[١].

***

لم تجد توسطات الحسين، ولا توسلات فيصل لدى جمال السفاح. ففي ليل ٦ أيار ١٩١٦ جرى إعدام القافلة الثانية من أحرار العرب في دمشق وبيروت وهذه أسماؤهم :

شفيق العظم، الأمير عمر الجزائري، عمر حمد، رفيق رزق سلوم، شكري العسلي، عبد الغني العريسي، عارف الشهابي، توفيق البساط، سيف الدين الخطيب، الشيخ أحمد طبارة، عبد الوهاب الإنكليزي، سعيد عقل، باترو باولي، جرجي الحدا، سليم الجزائري، علي عمر النشاشيبي، رشدي الشمعة،

(١) مذكرات جمال باشا، تعريب علي احمد شكري، القاهرة، ١٩٢٣، الصفحات ٣٧٤ – ٣٨٦.

محمد الشنطي، أمين لطفي، جلال البخاري، عبد الحميد الزهراوي.

وحُكم على أكثر من مئة شخص بأحكام الأعدام غيابياً، وقام جمال بتشتيت العائلات الكبيرة إلى قرى الأناضول. وكان قصد الطاغية ان يقضي على روح القومية في نفوس العرب، وأن يهيء أذهان الناس للاندماج في القومية الطورانية.

وكانت التهم الموجهة لمعظم الشهداء أنهم أعضاء في حزب اللامركزية. وبعضهم أخذ بالشبهة. وقد شنقوا دون ثبوت دليل على الإدانة، اللهم إلا إذا كانت الدعوة للإصلاح ذنباً. حقاً إن الأفكار الوطنية كانت قد تغلغلت في أوساط المفكرين. ولكنهم ما كانوا يرمون إلى الثورة في وجه الدولة بل كانوا يتخوفون أن يجر انهزامها إلى وقوعهم في قبضة دولة أخرى. وطلبهم النظام اللامركزي كان للقيام بالاستعدادات التي تمكنهم من الدفاع عن بلادهم في حالة هزيمة الدولة.

ويزعم جمال في مذكراته، أن الموقف كان خطيراً جداً، وأن الأفكار كانت في حالة غليان شديد، خصوصاً ابّان هجوم الحلفاء على الدردنيل. ويقول إنه لو حدثت ثورة مفاجئة تستند إلى مؤازرة أجنبية، لما كان يستطيع أن يفعل شيئاً في ذلك الحين، لخلوّ البلاد من القوات العسكرية التي كانت مرابطة في سيناء يومذاك. "ويقيناً أن الفضل في عدم حدوث ثورة ما في سورية خلال العامين والنصف اللذين أعقبا إعلان الشريف حسين لاستقلال بلاده، إنما يعود إلى أحكام الأعدام التي نفذت عام ١٩١٦". وفي اعتقادي إن واقع الأحوال في سورية آنذاك لا يؤيد مزاعم جمال هذه، وهي المزاعم التي ابتدعها لتبرير جرائمه.

إن الجرح الذي أحدثه الاتحاديون في قلوب العرب ما زال يدمي إلى الآن، وسيخلّد التاريخ العربي أسماء أولئك الشهداء البواسل، الذين كانوا الروّاد الأولين لتضحيات العرب الجسيمة في سبيل حريتهم واستقلالهم. وإنني أتخيل دائماً ذلك الشاب الأبي واقفاً يخاطب المشنقة ويقول : مرحباً بأرجوحة

الشرف. مرحباً بأرجوحة الأبطال. مرحباً بالعمد التي تستند اليها الأمم في استقلالها. مرحباً بالموت في سبيل الوطن....

ولم تقعد الأمة العربية عن الأخذ بثأر رجالها. فقاد الحسين ثورتهم الكبرى، ودفعت الجيوش العربية قوى الدولة العثمانية إلى الوراء حتى حدود الأناضول.

– ١٠ –

المفاوضات مع بريطانيا

في كانون الثاني عام ١٩١٥ تسلم السير هنري مكماهون وظيفة اللورد كتشنر في مصر. وحال وصوله بسط له ستورس ما جرى من محادثات تمهيدية مع الشريف حسين، وقال إنه ما يزال ينتظر القرار النهائي للشريف حسين. وخطر لمكماهون أن يعاود الكرّة، ولكنه خشي أن تفهم رسالته على غير المقصود منها، فأوعز إلى الجنرال ريجنالد ونجت حاكم السودان، أن يعمل على الاتصال بالشريف. وخاطب ونجت زعيم العرب في السودان، السيد علي الميرغني بالأمر، واقترح عليه أن يرسل رسالة ودية إلى الشريف حسين، يشير فيها من طرف خفي إلى فائدة التحالف مع الإنكليز. وكتب الميرغني، ووصلت الرسالة إلى الحسين، ففطن إلى المصدر الأساسي للرسالة وأجاب برسالة رقيقة بسط فيها ما يعانيه وقومه من مظالم الأتراك. وأعلن أمله بانتهاء هذه الحالة الشاذة قريباً. ثم أعاد السيد الميرغني الكرّة مقدماً اقتراحاً قطعياً جاء فيه: "أنا والسردار أصدقاء. عرّفني بالوسيلة التي يمكن أن أساعدكم بها. ولسوف استعمل نفوذي لديه". ولكن الاقتراح كان سابقاً لأوانه والحسين لم يكن قطع برأي بعد. فأجاب مجاملاً، وأعرب في حاشية رسالته عن شوقه لمعرفة المقترحات التي يريد الصديق تقديمها. وأجاب الميرغني ثانية "الصديق مستعد لتقديم كل مساعدة – فيما إذا حددتم مطالبكم – بالمال والأسلحة والعتاد". ولكن الحسين لم يكن قد وطد عزمه على رأي معين. فتوقفت المراسلات عند هذا الحد.

وفي حزيران ١٩١٥ عاد الأمير فيصل من سوريا، وبسط لوالده حقيقة الموقف وتفويض زعماء العرب له بالتحدث باسمهم. وعقد الحسين وأبناؤه مؤتمر الطائف، الذي قرروا فيه فتح باب المفاوضات، لا باسم الحجاز فقط، ولكن باسم جميع العرب. وتعد هذه المفاوضات بداية دور جديد في تاريخ الوطنية العربية، وتعتبر المراسلات التي تبودلت بين الحسين ومكماهون أعظم الوثائق التي اعتمد عليها العرب في توجيه حركاتهم الاستقلالية فيما بعد. وكانت ولا تزال موضع أبحاث ودراسات مستفيضة. ونستطيع أن ندرك أهميتها باعتبارها أول خطوة حاسمة في نهضة العرب التحررية الحديثة.

***

(أ)

بدأت المراسلات المشهورة بأسم مراسلات الحسين – مكماهون، بمذكرة وضعها الحسين وبسط فيها قواعد الاتفاق المزمع ابرامه مع بريطانيا، وأرفقت المذكرة بكتاب خاص من الأمير عبد الله إلى رونالد ستورس. وأرسلت المذكرة والكتاب مع أحد رجال الحسين الأمناء، الشيخ محمد عارف بن عريفان. وفيما يلي نص الرسالة والمذكرة:

من الأمير عبد الله إلى المستر رونالد ستورس

مكة في ٢ رمضان سنة ١٣٣٣

(١٤ تموز ١٩١٥)

أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتي الودية واحتراماتي، وأرجو أن تعملوا كل ما في وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم طيه، والمتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية.

وأود بهذه المناسبة أن أصرّح لحضرتكم ولحكومتكم، أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا، لأنه بأجمعه ميّال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة.

ثم يجب أن لا تتعبوا أنفسكم بإرسال الطيارات أو السفن الحربية، لإلقاء المناشير وإذاعة الشائعات، كما كنتم تفعلون من قبل، لأن القضية قد قررت الآن.

وإني لأرجوكم هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضي المقدسة، لأجل فقراء مكة والمدينة، التي أوقف إرسالها منذ العام الماضي. وأود أن ألفت نظركم إلى أن ارسال هدايا هذا العام والعام الفائت، سيكون له أثر فعال في توطيد مصالحنا المشتركة. وأعتقد أن هذا يكفي لإقناع رجل ذكي مثلكم. أطال الله بقاءكم.

(ب)

مذكرة الشريف حسين الأولى

إلى السير هنري مكماهون

مكة: ٢ رمضان ١٣٣٣

(١٤ تموز ١٩١٥)

لما كان العرب بأجمعهم دون استثناء قد قرروا في الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم، ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعدهم وتعاونهم للوصول إلى أمانيهم المشروعة، وهي الأماني المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم دون أية مقاصد أخرى من أي نوع كان لا علاقة لها بهذا الهدف.

ولما كان من مصلحة العرب ان يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة أخرى بالنظر لمركزهم الجغرافي ومصالحهم الاقتصادية، وكذلك بالنسبة لموقف الحكومة المذكورة والمعروف لدى الأمتين، مما لا حاجة لتأكيده.

إنه بالنظر لهذه الاسباب كلها ترى الأمة العربية أن يقتصر، بالنظر لضيق الوقت، على الطلب من الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها أو ممثلها على الاقتراحات الأساسية الآتية، تاركين كل المسائل التي تعتبر ثانوية بالنسبة لهذه الاقتراحات إلى أن يحين الوقت الملائم لإجراء المفاوضات الفعلية، حتى تتمكن (الأمة العربية) من إعداد الوسائل اللازمة لتحقيق هذا الغرض السامي :

١- تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربية التي يحدها: شمالاً خط مرسين – أضنة الموازي لخط ٣٧ شمالاً الذي تقع عليه برجيك – أورفة – ماردين- مديات- جزيرة ابن عمرو – عمادية حتى حدود فارس، وشرقاً حدود فارس إلى خليج البصرة، وجنوباً المحيط الهندي (باستثناء عدن التي ستحتفظ بوضعها الحالي)، وغرباً البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى مرسين. وعلى انكلترا أن توافق على إعلان خلافة عربية على المسلمين.

٢- تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكلترا في جميع المشاريع الاقتصادية في البلاد العربية، إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية.

٣- حفظاً لاستقلال البلاد العربية وتأميناً لأفضلية انكلترا في المشاريع الاقتصادية، يتعاون الفريقان الساميان المتعاقدان في تقديم العون لبعضهما البعض، إلى أقصى حد تستطيعه قواتهما الحربية والبحرية لمجابهة أية قوة أجنبية يمكن أن تهاجم أحد الفريقين. ولا يعقد الصلح دون موافقة الفريقين.

٤- إذا دخل أحد الفريقين في نزاع مسلح، فعلى الفريق الآخر أن يقف على الحياد. وإذا رغب الفريق الأول أن يشرك الفريق الثاني معه في النزاع، فعلى الفريقين أن يجتمعا ويبحثا الشروط بينهما.

٥- تعترف انكلترا بالغاء الامتيازات الأجنبية في البلاد العربية، وعليها أن تساعد حكومة الشريف على دعوة مؤتمر دولي للمصادقة على ذلك الالغاء.

٦- مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة. واذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام.

هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق واتحد، والحمد لله، على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر، فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح. وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق من الحكومة جواباً فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء.

وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا – إذا لم يصل الجواب – أحراراً في القول والعمل من كل التصريحات والوعود السابقة التي قدمناها بواسطة علي أفندي.

من السير هنري مكماهون إلى الشريف حسين

القاهرة في ١٩ شوال سنة ١٣٣٣

٣٠ آب سنة ١٩١٥

إلى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين.

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة، نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لاظهاركم عاطفة الاخلاص وشرف الشعور والاحساسات نحو الانجليز. وقد يسرنا علاوة على ذلك ان نعلم أن سيادتكم ورجالكم على رأي واحد وأن مصالح العرب هي

نفس مصالح الانجليز والعكس بالعكس. ولهذه المناسبة فنحن نؤكد لكم أقــوال فخامة اللورد كتشنر التي وصلت إلى سيادتكم عن يد علي أفندي، وهي التــي كان موضحاً بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب وسـكانها مــع استــصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها.

وإنا نصرّح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة.

وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لأوانها – وتصرف الأوقات سدى في مثل هذه التفاصيل، في حالة أن الحرب دائرة رحاها ولأن الأتراك أيضاً لا يزالون محتلين لأغلب تلك الجهات احتلالاً فعلياً، وعلى الأخص ما علمناه وهو ما يدهش ويحزن أن فريقاً من العرب القاطنين في تلك الجهات نفسها قد أغفل وأهمل هذه الفرصة الثمينة التي ليس أعظم منها – وبدل إقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد مد يد المساعدة إلى الالمان والأتراك – نعم مد يد المساعدة لذلك السلاب النهاب الجديد وهو الالمان وذلك الظالم العسوف وهو الأتراك.

ومع ذلك فأنا على كمال الاستعداد لأن نرسل إلى ساحة دولة السيد الجليل وللبلاد العربية المقدسة والعرب الكرام من الحبوب والصدقات المقررة من البلاد المصرية وستصل بمجرد إشارة من سيادتكم وفي المكان الذي تعينونه. وقد عملنا الترتيبات اللازمة لمساعدة رسولكم في جميع سفراته إلينا. ونحن على الدوام معكم قلباً وقالباً مستنشقين رائحة مودتكم الزكية ومستوثقين بعرى محبتكم الخالصة سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا.

وفي الختام أرفع إلى تلك السدة العليا كامل تحياتي وسلامي وفائق احترامي.

المخلص

نائب جلالة الملك (السير آرثر مكماهون)

تحريراً في ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ – الموافق ٣٠ اغسطس سنة ١٩١٥

(ج)

كان جواب الحسين يحتوي على الكثير من النقط الهامة. فأول ما نلاحظه هو أن الحسين شدد بصورة خاصة على مسألة الحدود التي شغلت تقريباً كل كتابه. حتى أنه لم يتمكن من السكوت عن اهمال مكماهون لها فوصف الجواب كله بالبرودة والتردد.

من الشريف حسين إلى مكماهون

مكة في ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣

٩ أيلول سنة ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى معالم الشهم الهمام ذي الأصالة حضرة الوزير الكبير.

إنا بكل ايناس تلقينا مرسومكم الكريم في ١٩ شوال وأحليته محل التبجيل والتجليل رغماً عما حسيناه في مؤداه من الغموض وآثار الفتور والتردد في مادتنا الجوهرية. فلا بد لنا من التصريح لشهامة أصالتكم مخالصتنا للدولة الفخيمة البريطانية واعترافنا بأرجحيتها في عموم الكيفيات والشؤون في أي حالة وصورة كانت وهذا مما توجبه علينا مصالح أبناء ديننا. ومع هذا فمدارك كمالات حضرة الوزير الخطير يعني أولاً عفوها ثم تسمح لي بالايضاح بأن القصد بالفتور والتردد ما أوردتموه على مسألة الحدود والتخوم بأن البحث والحالة هذه فيها سدى وأن لا طائلة تحته إلا اضاعة الوقت وانها تحت إشغال حكومتها السائدة عليها إلى آخر ما أشرتم إليه، مما هو حري أن أحمله على الجفوة وما هو في معناها، لما هو متيقن أن تلك الحدود والتخوم المطلوبة ليست لشخص متعلق ارضاءه والبحث معه فيها عندما تضع الحرب أوزارها، بل أقوامنا رأوا أن حياة تشكلاتهم الجديدة الضرورية القائمين في أمرها مربوطة على تلك الحدود والتخوم، وعقدوا الكلمة عليها، ولذلك رأوا البحث

فيها أولاً مع محل ثقتهم واعتمادهم محور النقض والابرام الا وهـي الدولـة الفخيمة البريطانية. ووسيلتهم في تلك الرابطة والثقة اتحاد المصالح وضرورة التشكيلات الأقليمية وحياة سكانها، ليعلموا كيفية تأسيس مستقبلهم وحياتهم حتى لا يصادفوها أو يصادفوا أحد حلفائها أمام تشبثاتهم وينعكس الأمـر لا سـمح الله. لأن القصد يا حضرة الوزير الموقر الحقيقة التي تشيد على أساس يضمن الأسباب الضرورية للحياة في المستقبل. على أنهم لم يخرجوا فـي التخطـيط عن من لم يسكنها غير العنصر لا زخارف الأقوال والألقـاب. والله يـرحم الخلافة ويحسن عزاء المسلمين فيها. وإني على ثقة بأن شـهامة الجنـاب لا يشتبه في أن شخص مجرد عن المطالبة بتلك الحدود والتخوم المـشكلة فقـط على العنصر وأنها من مقترحات القوم، وزعمهـم بالاختـصار أنهـا مـن الضروريات الحياتية والاقتصادية. أليس هـذا يـا حـضرة الـوزير حقـاً. والخلاصة يا حضرة الشهم المبجل إنا على أكيد الاخلاص معترفين بأرجحية ولائكم رضيتم عنا كما أشير أم سخطتم. نأبى أن نجعل فـي إشـارتكم فـي رقيمكم بادي الذكر بأن لا يزال بعض أقوامنا في أقصى درجات الاسترسـال في ترويج طلب العثماني حجة على آثار الفتور والتردد في رغائبنا التي انزه شهامة أصالتكم على أن تقوم بأنها ليست من قوام حياتنا، لا بل هـي حياتنـا المادية والمعنوية والأدبية. لأني إلى هذه الساعة قائم بذاتي وبجميع حواسـي في إنفاذ ما كان موافق الشرع الاسلامي في بلادي من الأوامر وفي كافة مـا له تعلق به مما يكن عائد إلى باقي المملكة إلى أن يأتي الله بأمر × غير ذلك.

ومن أجل طمأنة فخامتكم أستطيع أن أصرح أن جميع أهل البلاد، ومن الجملة أولئك الذين تقولون أنهم وضعوا أنفسهم تحت الأوامر التركية الالمانية، كلهم ينتظرون نتيجة هذه المباحثات التي تتوقف فقط على رفضكم أو قبولكم بقضية الحدود، وعلى تصريحكم بحماية ديانتهم أولاً ثم بقية حقوقهم من أي أذى أو خطر.

وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقاً لسياستها، في هذا الموضوع، فما عليها إلا أن تعلمنا به وأن تدلنا على الطريق التي يجب أن نسلكها.

وفي جميع الأحوال فلن يتم شيء إلا بارادة الله، الذي هو العامل الحقيقي في كل شيء.

أما بشأن طلبنا الحبوب للأهلين والصرر (النقود) العائدة لوزارة الأوقاف وكل المواد الأخرى التي جرت العادة على إرسالها مع قوافل الحجاج، فإن قصدي في هذا الأمر يا صاحب السعادة أن إرسالها يمكن أن يكون وسيلة لتوكيد فحوى تصريحكم إلى العالم، وبخاصة العالم الاسلامي، تلك التصريحات التي ذكرتم فيها أن عداءكم موجه بصورة كلية إلى الحزب الذي اغتصب حقوق الخلافة واغتصب معها حقوق جميع المسلمين.

هذا بالاضافة إلى إن الحبوب المذكورة هي من الأوقاف الخاصة ولا علاقة لها بالسياسة.

وفي حالة عزمكم إرسالها، فلتبعث الهبة المقررة عن السنتين الماضيتين في باخرة خاصة إلى جدة – باسم الشعب كالعادة. وليقم ربان الباخرة، أو المأمور المكلف في العادة بمهمة تسليم الهبة سنة بعد أخرى بالاتصال بالسلطات في جدة عند الوصول إلى الميناء، وليسأل عن المأمور الذي سوف يتسلم القمح لقاء وصل موقع من قبل المأمور المستلم.

كما أود أن تلاحظوا أن توقيع ذلك المأمور فقط يمكن أن يقبل وأن ربان الباخرة أو الموظف الخاصن يجب أن يعطى التعليمات بأنه إذ ما اعترضه أي حاجز فعليه أن يهدد بالعودة بشحنته إلى الميناء الذي أقلع منه.

وتبعاً لذلك فإن المأمور واللجنة الخاصة المعينة معه والمعروفة باسم لجنة القمح للأهلين، سوف يتسلمون القمح بالطريقة المعتادة.

راجياً قبول احتراماتي وتسليماتي. وإذا اردتم الإجابة على رسالتنا، فليكن ذلك بواسطة حاملها[١].

---

(١) القسم الأول من الرسالة حتى العلامة× نقل حرفياً عن نسخة طبق الأصل للرسالة التي بعث بها الشريف حسين. وإذ إنني لم أتمكن من العثور على النص الأصيل للرسالة بمجموعها، فقد أثبت الترجمة الحرفية للقسم الأخير، وقمت بمقابلة الترجمة على النص الرسمي في الوثائق البريطانية.

ملحق (مترجم)　　F.O. 882/19　١٩١٥/٩/٩

الأمانة المرسلة مع رسالتكم احتفظنا بها حتى يعود الشخص الذي أرسلت إليه [عبد الله] لأنه ذهب إلى داخلية البلاد قبل اسبوع لاجراء بعض الاصلاحات المهمة.

ومهما كانت الظروف يجب ألا ترسلوا أي شخص إلى هنا، لأن ذلك أمر بالغ الخطورة وقد يؤدي إلى ضرر شديد، كما أنه لا ضرورة له.

وعندما تقضي الضرورة فإنكم ستتلقون منا بواسطة معتمدكم في بور سودان، إذا لم يكن حامل الرسالة هنا [محمد عريفان]، رسالة موقعة بحرف ع ح.

ومن الطبيعي أنه عندما تعلن البلاد استقلالها، سواء قبلتهم مطالبها أم لم تقبلوا، فإننا سنحيطكم علماً بذلك.

لذلك نرجو أن تعطوا التعليمات لحاكم بور سودان بأن يرسل إلى فخامتكم كل ما يأتيه من طرفنا تحت العلامة المشار إليها أعلاه.

وأرجوكم بالحاح أن تحافظوا على أقصى درجات السرية، لأن الكتمان شرط أساسي من شروط النجاح.

ويقول الرسول أنه كانت مع الرسالة ورقة أخرى، ولكننا لم نعثر عليها ولم نجد معه إلا (الأمانة) والنشرة المتعلقة بأسباب قطع العلاقات مع الأتراك.

(د)

لم يجد مكماهون منفذاً في رسالة الشريف الواضحة، فأبرق إلى لندن يطلب تزويده بتعليمات حاسمة. وجاءه الجواب الذي بنى عليه رسالته التالية والتي تعد اهم وثيقة بين هذه المراسلات.

من مكماهون إلى الشريف حسين

القاهرة في ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣

٢٤ تشرين الأول سنة ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى فرع الدوحة المحمدية وسلالة النسل النبوي الحسيب النسيب دولة صاحب المقام الرفيع الأمير المعظم السيد الشريف ابن الشريف أمير مكة المكرمة صاحب السدة العليا جعله الله حرزاً منيعاً للإسلام والمسلمين بعونه تعالى آمين وهو دولة الأمير الجليل الشريف حسين بن علي أعلى الله مقامه.

قد تلقيت بيد الاحتفاء والسرور رقيمكم الكريم المؤرخ بتاريخ ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ وبه من عباراتكم الودية المحضة واخلاصكم ما أورثني رضاء وسروراً.

إني متأسف انكم استنتجتم من عبارة كتابي السابق إني قابلت مسألة الحدود والتخوم بالتردد والفتور، فإن ذلك لم يكن القصد من كتابي قط، ولكني رأيت حينئذ أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد للبحث في ذلك الموضوع بصورة نهائية.

ومع ذلك فقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعتبرون هذه المسألة من المسائل الهامة الحيوية المستعجلة، فلذلك فإني قد أسرعت في إبلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم، وإني بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية التي لا اشك في أنكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول :

إن ولايتي مرسين واسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب لا يمكن أن يقال أنها عربية محضة. وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة.

مع هذا التعديل وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض

رؤساء العرب نحن نقبل تلك الحدود.

وأما من خصوص الأقاليم التي تضمها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا، فإني مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية وأجيب على كتابكم بما يأتي:

١- أنه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة بأن تعترف باستقلال العرب وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الأقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة.

٢- إن بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوجوب منع التعدي عليها.

٣- وعندما تسمح الظروف تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها وتساعدهم على إيجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الأقاليم المختلفة.

٤- هذا وإن المفهوم أن العرب قد قرروا طلب نصائح وإرشادات بريطانيا العظمى وحدها، وإن المستشارين والموظفين الأوروباويين اللازمين لتشكيل هيئة إدارية قويمة يكونون من الانكليز.

٥- أما من خصوص ولايتي بغداد والبصرة فإن العرب تعترف أن مركز ومصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير إدارية مخصوصة لوقاية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبي وزيادة خير سكانها وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة.

وإني متيقن أن هذا التصريح يؤكد لدولتكم بدون أقل ارتياب ميل بريطانيا العظمى نحو رغائب أصحابها العرب، وتنتهي بعقد محالفة دائمة ثابتة معهم ويكون من نتائجها المستعجلة طرد الأتراك من بلاد العرب وتحرير الشعوب الغربية من نير الأتراك الذي أثقل كاهلهم السنين الطوال.

ولقد اقتصرت في كتابي هذا على المسائل الحيوية ذات الأهمية الكبرى

وإن كان هناك مسائل في خطاباتكم لم تذكر هنا فسنعود إلى البحث فيها فـــي وقت مناسب في المستقبل.

ولقد تلقيت بمزيد السرور والرضى خبر وصول الكسوة الشريفة وما معها من الصدقات بالسلامة وأنها بفضل إرشاداتكم السامية وتدابيركم المحكمة قد أنزلت إلى البر بلا تعب ولا ضرر رغماً عن الأخطار والمصاعب التي سببتها هذه الحرب المحزنة، ونرجو الحق سبحانه وتعالى أن يعجل بالصلح الدائم والحرية لأهل العالم.

إني مرسل خطابي هذا مع رسولكم النبيل الأمين الشيخ محمد بن عارف ابن عريفان وسيعرض على مسامعكم بعض المسائل المفيدة التي هي في الدرجة الثانية من الأهمية ولم أذكرها في كتابي هذا.

وفي الختام أبث دولة الشريف ذا الحسب المنيف والأمير الجليل كامل تحيتي وخالص مودتي وأعرب عن محبتي له ولجميع أفراد أسرته الكريمة راجياً من ذي الجلال أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير العالم وصالح الشعوب. إن بيده مفاتيح الأمر والغيب يحركها كيف يشاء ونسأله حسن الختام والسلام.

تحريراً في يوم الاثنين ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣

نائب جلالة الملك

السير ارثر مكماهون

قيدنا الاسم الشريف بعاليه بهذا اللون.

(هـ)

يشهد جواب الحسين على رسالة مكماهون بأمرين خطيرين: أولهما تساهله في سبيل الاتفاق، وثانيهما تمسكه بالأهداف العربية الرئيسية دون أن يمسّها ذلك التساهل. فهو قد تنازل عن ولاية أطنه التي تضم مرفأ مرسين، ولكنه لم يتنازل عن الاسكندرونة، أو البلاد الساحلية السورية. محتجاً بأن أهلها عرب أقحاح سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين بخلاف ولاية أطنة. أما مطالب الانكليز في العراق فقد شجبها، مؤكداً أنه لا يمكن التساهل في

مصيرها. ولكنه عاد ورضي بأن يبقى إشراف بريطانيا على البلاد التي احتلتها الجنود البريطانية إذ ذاك وهي البصرة وما جاورها فقط. وأثار في جوابه نقطة جديدة حول فعالية التحالف العربي – البريطاني، وهل ترضى بريطانيا بالصلح وتدع أصدقاءها العرب وجهاً لوجه أمام الترك والالمان. وهذا يدل على بعد نظر الحسين. وفي هذا الكتاب نستطيع أن نتصور روح الحسين بأجلى مظاهرها، ونستطيع أن نرى قوة وعيه القومي إلى جانب عظيم تقديره للأمور.

من الشريف حسين إلى مكماهون

مكة في ٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٣

٥ تشرين الثاني سنة ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى معالم الشهم الهمام ذو الاصالة والرياسة الوزير الخطير وفقه الله لمرضاته.

بملء الايناس تلقينا مرسومكم الموقر الصادر ١٥ ذو الحجة ١٣٣٣ واحليناه محل التبجيل. وعلى مؤداه نجيب الشهامة:

أولاً: تسهيلاً للوفاق وخدمة للاسلامية فراراً مما يكلفنا المشاق والاحن، ولما لحكومة بريطانيا العظمى من الصفات والمزايا الممتازة لدينا نترك الالحاح في إدخال ولايات مرسين وأطنة في أقسام المملكة العربية. وأما ولايتي حلب وبيروت وسواحلهما فهي ولايات عربية محضة ولا فرق بين العربي المسيحي والمسلم فإنهما ابنا جد واحد وستقوم فيهم منا معاشر المسلمين ما سلكه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أحكام الدين الإسلامي ومن تبعه من الخلفاء بأن يعاملوا المسيحيين كمعاملاتهم لأنفسهم بقوله: "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" علاوة على امتيازاتهم المذهبية وبما تراه المصلحة العامة وتحكم به.

ثانياً: حيث أن الولايات العراقية هي من أجزاء المملكة العربية

المحضة، بل هي مقر حكوماتها على عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثم على عهد عموم الخلفاء من بعده، وبها قامت مدينة العرب وأول ما اختطوه من المدن والامصار واستفحلت دولهم، فلها لدى العرب أقصاهم وأدناهم القيمة الثمينة والآثار التي لا تنسى، فلا يمكننا إرضاء الأمة العربية وارضاخها لترك ذلك الشرف. ولكن تسهيلا للوفاق سيما والمحاذير التي أشرتم إليها في المادة الخامسة من رقيمكم آنف الذكر محفوظتها وصيانتها من طبقة وضرورة ما نحن فيه وحيازة ما نريد التوصل إليه، فإن أهم ما في هذا هي صيانة تلك الحقوق الممزوجة بحقوقنا بصورة كأنها الجوهر الفرد، يمكننا الرضا بترك الجهات التي هي الآن تحت الإشغال البريطاني إلى مدة يسيرة، والبحث فيما يقبل عن قدرها دون أن يلحق حقوق الجانبين مضرة أو خلل. سيما العربية بالنسبة لأمر مرافقها ومنابعها الاقتصادية الحياتية، وأن يُدفع للمملكة العربية في مدة الإشغال المقدار المناسب من المال لضرورة ترتكبه كل مملكة حديثة الوجود. مع احترامنا لوفاقاتكم المشار عنها مع مشايخ تلك الجهات وبالأخص ما كان منها جوهرياً.

ثالثاً : رغبتكم في الاسراع بالحركة نرى فيه من الفوائد بقدر ما نرى فيه من المحاذير، أوله خشية لوم الإسلامية كما سبق الجاهل عن حقائق الحالة بأنا شققنا عصاها وأبدنا قواها، الثاني المقام أمام تركيا معاضدتها جميع معاني قوى جرمانيا لجهلنا عما إذا حصل وهن احدى دول الائتلاف وأوجبها على صلح دول الاتفاق، فكيف تكون خطة بريطانيا العظمى وحلفائها، لئلا تكن الأمة العربية أمام تركيا وحلفائها معاً إذ لا يهمنا ما إذا كنا والعثمانية رأساً لرأس.

وعلى هذا فضروري ملاحظة هذه الأوجه، ولا سيما عقد صلح اشتركنا في حربه بصورة غير رسمية يخول للمتصالحين البحث فيه عن شؤوننا.

رابعاً: إن الأمة العربية تعتقد يقيناً إن العثمانية عند وضع أوزار الحرب سيوجهون كل أعمالهم فيما يغضب العرب ويغتصب حقوقهم المادية والمعنوية وذهاب شعارهم وأحسابهم واخضاعهم بكل معاني الاخضاع مع بقائها تحت

النفوذ الالماني، فهم عازمون على حربهم حتى لا يبقى لنا باقية. وما يرى فينا الآن من التأني فقد سبق بيان علته.

خامساً : متى علمت العرب أن حكومة بريطانيا حلفائهم لا يتركونهم عند الصلح على حالهم أمام تركيا وجرمانيا وأنهم يعاضدونهم ويدافعون عنهم الدفاع الفعلي، فالدخول في الحرب من الساعة لا شك أنه مما يوافق المصالح العمومية العربية.

سادساً : إفادتنا السابقة الصادرة بتاريخ ٢٩ شوال ١٣٣٣ تغني عن إعادة القول في المادة الثالثة والرابعة من مرسومكم هذا الموقر في خصوصات الهيئات الحاكمة والمستشارين والموظفين، سيما وقد صرحتم يا حضرة الشهم بأنكم لا تتداخلون في أمور الداخلية.

سابعاً : وصول الجواب الصريح القطعي في أقرب زمن على ما ذكر أعلاه من الطلبات، إذ إنا استعملنا كلما يقربنا إليكم من التساهل الجدي الذي لا يراد به حقيقة جوهرية، فإنا نعلم أن نصيبنا من هذه الحروب إما سعادة تضمن للعرب الحياة التي تناسب تاريخهم أو الاضمحلال في سبيلها. ولولا ما رأيتهم ورأيت ما في عزمهم لاخترت العزلة في أحد شواهق السراة، ولكن أبوا علي يا عزيزي، أعزك الباري بمرضاته، إلا أن يقودوني إلى هذه المواقف.

ودم غانماً سالماً بما نحبه ونريده، وحرر ٢٧ من ذي الحجة ١٣٣٣.

(و)

لم يكتم مكماهون سروره لتنازل الحسين عن ولاية أطنة نهائياً. ولكنه بقي على تشبثه بشأن سواحل سوريا، لا بحجة أن سكانها ليسوا عرباً خلصاء. ولكن لأن مصالح الحليفة فرنسا تستدعي ذلك. بيد أنه خوفاً من إصرار الشريف ورغبته ببقاء باب الأمل كما هي عادة الانكليز، وعد أن تكون هذه النقطة عرضة للبحث معه من جديد. ونلاحظ أن مكماهون جدّد وعده بشأن مساعدة العرب وأبدى تأكيداً حاسماً بعدم ترك العرب وحدهم وجاً لوجه أمام الأتراك.

من مكماهون إلى الشريف حسين [1]

القاهرة في ٨ صفر سنة ١٣٣٤

(١٤ كانون الأول سنة ١٩١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى صاحب الأصالة والرفعة وشرف المحتد سلالة بيت النبوة والحسب الطاهر والنسب الفاخر دولة الشريف المعظم السيد حسين بن علي أمير مكة المكرمة قبلة الإسلام والمسلمين، أدامه الله في رفعة وعلاء.

وبعد، فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٣ وسرني ما رأيت فيه من قبولكم إخراج ولايتي "مرسين وأضنة" من حدود البلاد العربية. وقد تلقيت أيضاً بمزيد السرور والرضا تأكيداتكم أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من السادة الخلفاء الأولين – التعاليم التي تضمن حقوق كل الأديان وامتيازاتها على السواء.

هذا وفي قولكم أن العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين، يعلم منه طبعاً أن هذا يشمل جميع البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية، لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد ابرمت بينها وبين أولئك الرؤساء.

أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة – ولكن لما كانت مصالح حليفها فرنسا داخلة فيها فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق – وسنخابركم بهذا

١– جاء في مذكرة بتاريخ ١٩١٦/٤/١٦ أعدها هوجارث عن المسالة العربية، أن رسالة مكماهون هذه صيغت بعبارات أعدت بعناية، وأن مكماهون أرسل معها رسالة شفوية قال فيها إن الترتيبات التي اقترحها الشريف بشأن العراق يمكن أن تقدم للحكومة البريطانية عندما يحين الوقت المناسب. راجع الملف F.O. 882/2.

الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب.

إن حكومة بريطانيا العظمى كما سبقت فأخبرتكم مستعدة لأن تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها إلى المملكة العربية، ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة كما رسمتم، على أن صيانة هذه المصالح كما يجب تستلزم نظراً أدق وأتم مما تسمح به الحالة الحاضرة والسرعة التي تجري بها هذه المفاوضات.

وإننا نستصوب تماماً رغبتكم في اتخاذ الحذر، ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم. ولكننا في الوقت نفسه نرى من الضروري جدا أن تبذلو مجهوداتكم في جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة، وأن تحثوهم على أن لا يمدوا يد المساعدة إلى أعدائنا بأي وجه كان، فإنه على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لاسعاف غرضنا عندما يجيء وقت العمل، تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته.

وفي هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت لي أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوي إبرام أي صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الالمان والاتراك.

هذا وعربون على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم في مجهوداتكم في غايتنا المشتركة، فإني مرسل مع رسولكم مبلغ عشرين ألف جنيه.

وأقدم في الختام عاطر التحيات القلبية وخالص التسليمات الودية مع مراسم الإجلال والتعظيم المشمولين بروابط الإلفة والمحبة الصرفة لمقام دولتكم السامي ولأفراد اسرتكم المكرمة مع فائق الاحترام.

تحريراً في ٨ صفر سنة ١٣٣٤

المخلص

نائب جلالة الملك بمصر

السير ارثور هنري مكماهون

(ز)

أبدى الحسين في جوابه سروره بالتأكيدات التي قطعتها بريطانيا للعرب. وتظهر لنا فيه عدة أمور خطيرة، أولها أنه أكد عدم موافقته على اقتطاع قـــدم مربع واحد من جسم البلاد العربية لا لفرنسا أو لأي دولة غيرها. ولكنه حبــاً في تسهيل العلاقات بين بريطانيا وفرنسا يرى أن أقصى ما في مقــدوره أن يتساهل به هو القبول بهذا التعديل في مدة الحرب فقط. علـــى أن يغتــنم أول فرصة لضم هذه البلاد إلى الوحدة العربية.

من الشريف حسين إلى مكماهون

مكة في ٢٥ صفر سنة ١٣٣٤

(١ كانون الثاني سنة ١٩١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

بأنامل الابجال والتوقير تلقينا رقيمكم ٩ صفر الجاري برفق حاملهم وعلمت مضمونيهما وأدخلا علينا من الانشراح والارتياح ما لا مزيد لإزالتهما ما يختلج بصدري، الا وهو وقوف حضرتك بعد وصول أحمد شريف وحظوته بالجناب، بأن كلما أتينا به في الحال والشأن ليس بناشيء عن عواطف شخصية أو ما هو في معناها مما لا يعقل، وأنها قرارات ورغائب أقوامنا، وإنا لسنا إلا مبلغين أو منفذين لها بصفتنا التي الزمونا بها، إذ هذا عندي من أهم ما يجب وقوف شهامة الجناب عليه وعلمه به. أما ما جاء بالمحررات الموقرة فيما يتعلق بالعراق من أمر التعويض مدة الاشغال، فلزيادة إيضاح وثوق بريطانيا العظمى بصفاتنا في القول والعمل في المادة والمعنى واعلامها بأكيد اطمئناننا باعتماد حكومتها المفخمة، نترك أمر تقدير مبلغه لمدارك حكمتها ونصفتها، أما الجهات الشمالية وسواحلها فما كان في الامكان من تعديل أتينا به في رقيمنا

السابق. هذا وما ذاك إلا للحرص على الأمنيات المرغوب حصولها بمشيئة الله تبارك وتعالى. وعن هذا الحس والرغبة هما التي الزمتنا بملاحظة اجتناب ما ربما أنه يمس حلف بريطانيا العظمى لفرنسا واتفاقهما إبان الحروب والنوازل، إلا أننا مع هذا نرى من الفرائض التي ينبغي لشهامة الوزير صاحب الرياسة أن ييقنها بأن عند أول فرصة تضع فيها أوزار هذه الحروب سنطالبكم بما نغض الطرف عنه اليوم لفرنسا في بيروت وسواحلها. ولا أرى لزوم بأن أحيطكم بما في هذا أيضاً من تأمين المنافع البريطانية وصيانة حقوقها هو أهم وأكبر مما يعود إلينا، وأن لا بد من هذا على أي حالة كانت ليتم للعظمة البريطانية أن ترى أخصاؤها في البهجة والرونق التي تهتم أن تراهم فيه، سيما وأن جوارهم لنا سيكون جرثومة للمشاكل والمناقشات التي لا يمكن معها استقرار لحالة، عدى أن البيروتيين بصورة قطعية لا يقبلون هذا الانفصال ويلجئونا على حالات جديدة تهم وتشغل بريطانيا بصورة لا تكون بأقل من اشتغالنا الحالي بالنظر لما نعتقده ونتيقنه من اشتراك المنفعة ووحدتها، وهي الداعية الوحيدة لعدم التفاتنا لسواكم في المخابرات. وعليه يستحيل إمكان أي تساهل يكسب فرنسا أو سواها شبراً من أراضي تلك الجهات، أصرح بهذا مع اعتماد لكل جوارحي اعتماداً يرثه الحي منا بعد الميت بتصريحاتكم التي ختمتم بها رقيمكم الموقر. وعليه فليعتقد جناب الوزير الخطير ولتعقتد بريطانيا الكبرى أنا على العزم الذي أشير إليه ويعلمه منا جناب الأريب الكامل استورس منذ عامين، ولا نناظر فيه إلا الفرص المناسبة لأحوالنا وأخصها داعيته ووسيلته التي اقترب وقتها بما تسوقه الأقدار إلينا بكل سرعة ووضوح، لتكن حجة لنا وعن رأينا على الاعتراضات والمسؤوليات المقدرة. وفي تصريحاتكم بقولكم "وإنا لسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم" يغني عن زيادة الايضاح، ما عدا طلب ما نرى لزومه عند الحاجة من الأسلحة وذخائرها الحربية وما هو في معناها.

واكتفي بهذا القدر عن اشغال شهامتكم بتقديم وافر احتشاماتي وجزيل توقيراتي لمقام المقر الموقر.

وحرر في اليوم الخامس والعشرين من صفر الخير ١٣٣٤

ملحق

١- إذا أرادت العظمة البريطانية أن تبحث ملاحظة تكذيب ما يرمونها به الأعداء من سيرها وسيرتها مع كل من نسب إلى حمايتها، فإنا ليس بجاهلين نصفتها واحتراماتها لحسبان كافة رعاياها من أي ملة كانت وصيانة حقوقهم، فالرجاء استقرار أريحيتكم عن كل شاغل في هذا المعنى.

٢- ما أشار إليه الضابط العربي محمد شريف هو نفس الأمر وحقيقة الحال، وقد أحسنتم جداً في إبقائه تحت رعايتكم من شموله بالرأفة والشفقة، فإنه من النجباء وذوي الأصالة والنسب المعروف، فلا تدعوه يفارق جواركم لحين الحاجة إليه ليعمل مع أبناء جنسه في أسباب تعاليم وليوضح لكم داعيات طلباتنا وما يتعلق بما أشبه ذلك من المواد السياسية الحياتية.

٣- العشرين الصرة برفقة حامله وصلت بالتمام، وما أشير عنها فهو غير مستتكر على حزم بريطانيا.

٤- تحرر مثله وأكدنا الآن لزيدية اليمن بالاجتناب عن الحركات نحو الأقطار اللحجية، وعن هذا تشبثت لدى الملاّ صاحب الصومال.

٥- سوقيات الجمال لم يسبق بيع جمل واحد من نواحينا، وإنما ذلك يأتيهم من القصيم من نواحي ابن سعود الذي كان يمكننا ارغامه لولا ما بلغنا من انتمائه اليكم. وعليه فإن تحقق ما ذكر له من الانتساب فاطلبوا منه لزوم تلك الممنوعية، وإن كان غير مقيد إليكم فانبئونا ولا يهمنا ارغامه.

٦- السنوسي أفهمناه بما ينبغي أن يسلكه سيما في السنة الماضية عند عودة أخيه الأدريسي لدياره من طرفنا بصورة مقنعة مدلّلة ببراهين ألزمته بالاعتراف، ولا كنت أظن أنه يتغير، إلا أن طرأ عليه ما أفسده، فلا حول ولا قوة ألا بالله من عمى البصيرة التي لا طائلة تحتها إلا سفك دماء المسلمين، ولا يجدي فيه نصح نقوم به بعد نبذه لبياناتنا الأولى. فلا نرى أمره

يكرب لبعد مراكزه من مصر وشقة وصول مؤنه بالرغم عن صبر الإبل فإنه لا يتمكن من جلب جيش يغزو ويرجو فتحها، وعلى ذلك فاختاروا خطة الدفاع حتى يهلك عليه الخف والحافر ويقفل راجعاً، ونحن نضيق على وكيله هنا بما يلزم.

حسين

(ح)

لا يبدو لنا في جواب مكماهون أوضح من اطرائه للدوافع التي تبعث الشريف على متابعة جهوده في سبيل قضية العرب. وتعرّض للسياسة البريطانية – الفرنسية وإلى أنها ستقوى بعد الحرب باطراد. مما لا يجعل شكاً في أنه قصد إفهام الحسين: إن هذه السواحل التي ستعطى لفرنسا لا تتعلق بعهود بريطانيا له.

من مكماهون إلى الشريف حسين [1]

القاهرة في (٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٣٤)
٢٥ كانون الثاني ١٩١٦

وبعد بمزيد السرور والرضى تلقينا كتابكم المؤرخ ٢٥ صفر ١٣٣٤ من يد رسولكم الأمين الذي كان على الدوام يبلغنا رسائلكم الشفوية، ونحن عالمون تمام العلم ونقدر حق التقدير البواعث التي ترشدكم في المسألة الهامة التي نحن بصددها. ولا نشك في أنكم تعملون لما فيه مصلحة الأمة العربية وأن ليس لكم غاية أخرى البتة. علمنا ما ذكرتموه بشأن ولاية بغداد وسننظر في ذلك بتمام الاهتمام بعد قهر العدو ويأتي الوقت لنهي المسائل السلمية. واما

(١) أخذت نص هذه الرسالة عن نسخة طبق الأصل للرسالة الأصلية.

ما يتعلق بالأقسام الشمالية فقد علمنا بمزيد الرضى رغبتكم في تجنب كل ما من شأنه مساس المحالفة بين بريطانيا العظمى وفرانسه، ولا يخفاكم أن عزمنا الثابت عدم التداخل في أي شيء مهما صغر يمنع لحصولنا في نهاية هذه الحرب على النصر التام. وفوق ذلك فإنه عند نيل النصر فإن صداقة كل من بريطانيا العظمى وفرانسه، ستكون أقوى وأشد متانة من ذي قبل يربطها دم الانكليزي والفرنساوي الذي أهرق ممن قتلوا جنباً لجنب وهم يحاربون لأجل الحق والحرية، هذا وإن بلاد العرب مشتركة في الغرض النبيل الذي يتم من اتحاد قوانا واجتماع كلمتنا، ونسأل أن يربطنا النجاح بصداقة دائمة تكون فيها المصلحة والسعادة للجميع. وقد سرنا جداً ما علمناه من انكم ساعون في جذب قلوب جميع القبائل العربية للانضمام إلى غرضنا المشترك، وأن تمنعوهم من إعطاء أي مساعدة لأعدائنا. ونترك لفطانتكم اختيار الفرصة المناسبة لأجل اتخاذ اجرآت أخرى جدية. ولا شك أنكم تخبروننا مع رافع كتابنا هذا عن الطرق التي يمكننا بها مساعدتكم. وتأكدوا أن جميع مطاليبكم ينظر فيها دائماً بعين الاهتمام مع الاسراع التام في انجازها. ولا بد أنكم سمعتم أن أحمد الشريف السنوسي قد صغى لدسائس أعدائنا وبدأنا بالعداء. ولا شك أنه يحزنكم أنه أغفل لهذا الحد مصالح العرب حتى أنه رمى بنفسه في يد أعدائنا. وقد وقع الآن في سوء عمله وصادفه سوء الطالع في كل حركاته. ولنا أن ذلك يريه غلطه ويعيده إلى الصواب ويرشده إلى السلام رفقاً بأتباعه المساكين الذين قادهم إلى التهلكة. ثم أن رسولكم الأمين رافع كتابنا هذا يبلغكم جميع أخبارنا. وفي خاتمة رسالتى أقرؤك تحيتي القلبية وأهديك عاطر تسليماتي وأعبّر لك عن محبتي واخلاصي، كما وأرفع ذلك لكل أفراد أسرة دولتكم الكريمة. جعل الله المودة والألفة والاتحاد والوفاق وحسن التفاهم ومتانة العلائق بيننا متيناً بمنه وكرمه آمين.

نائب جلالة الملك بمصر

السير هنري مكماهون.

ملحق شفوي[1]

١- إن الشكر لما أبداه دولة الأمير الخطير بخصوص الصومالي (الملا عبد الحسن)، وكذلك من خصوص لحج فلا مزيد عليه.

٢- إن التلغراف أرسل إلى تلك الجهات لنرى إذا كان هناك ما يدعو إلى إخطار دولة الأمير به فعلنا بواسطة رسولكم الأمين.

٣- إن كل أطيانكم بهذه البلاد محافظ عليها كمال المحافظة.

٤- إن ثقتنا بصداقتكم لن يشوبها شائبة أصلاً.

٥- إننا لا نشك في أن تدابيركم الفعالة أمر يؤول إلى حسن النتائج بفضل الله تعالى.

٦- جناب المستر استورز قد أخذ رسولكم الأمين لدار السلطنة وقابلة بعظمة مولانا السلطان في سرايه حيث دار بينهما حديث ترتاح له الضمائر.

٧- فتفضل عظمة مولانا السلطان بقوله: في أول الأمر قبّل من قبلي راحتي دولة الأمير صاحب الشرف الكريم، وبلغه تحياتي القلبية الخالصة وبلغ ثنائي لصاحب العزة عبد الله بك وأصحاب العزة اخوانه علي بك وفيصل بك وزيد بك أطال الله في عمر الجميع.

٨- ثم أن عظمته أقسم بالله العظيم ثلاثاً أنه لا حياء ولا خوفاً ولا طلباً لشيء من الانجليز، بل بما حفظته من الصلاح والمحبة والعدل لعموم العربان المسلمين. وإني أقول ذلك وأنا لا أحب لنفسي أن أكون سلطاناً ولا مديراً، بل هو جهدي العظيم في صلاح المسلمين ومساعدتهم كل المساعدة. وإني أرى ذلك حقاً علي وعلى أمثالي وهو المحافظة على العموم ونجتهد في الاتحاد والوفاق وجعل كلمتنا واحدة حتى يقهر العدو ولا يجد لنفسه سبيلاً إلينا، حيث الترك مع الالمان والحاكم منهم

---

(١) يبدو أن الشريف حسين أو أحد أنجاله سجل نص هذه الرسالة الشفوية التي نقلها إليه رسوله محمد عريفان.

والقاضي منهم، واذهبوا عموم حقوق المسلمين وأذهبوا الديانـــة ولعبـــوا بالامانة كما لا يخفاكم. وقد التبس عليهم أمر الالمان كما هـــو المـــشتهر عندكم حتى أنهم تداخلوا في مسائل لا يوجد للمسلمين فيها صلاح ونخشى من عواقبها، فالمطلوب أننا نأخذ الحذر ونحفظ الفرصة.

٩- وقال عظمته أنه لا يوجد عنده أشياء من الغلاّت لأهل المدينة ولم يجد طريقاً لارسالها وذلك تحت أمر دولة مولانا الأمير المعظم، ثم قال أنه سيؤدي فريضة الحج بعد أن تضع الحرب أوزارها ويتشرف بمقابلة سيدنا الشريف دولة أمير مكة المكرمة، ثم قال إن كل أهل البلاد المصرية والسودانية مرتاحة كمال الراحة مع الانجليز مع الحذر من خيانة الترك والالمان.

(ط)

تعتبر الرسائل الآنفة من أهم الوثائق في تاريخ العرب الحديث. لأنها انتهت باعتراف بريطانيا باستقلال العرب ووحدتهم ضمن حدودهم. وتأييد دولتهم المقبلة، ومساعدتهم مادياً وأدبياً في نضالهم ضد الترك. وبنهاية هذه الرسائل ينتهي دور المفاوضات الرئيسية بالاتفاق على أهم الشروط.

من الشريف حسين إلى مكماهون

مكة في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤

١٨ شباط ١٩١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة ذو الاصالة فخامة نائب جلالة الملك دام مرعياً.

بعد، فبأيدي التوقير والاحتشام تلقينا رقيم الفخامة المؤرخ ٢٠ ربيع

الأول، وأن مضامينه أدخلت علينا مزيد الارتياح والسرور، لحصول التفاهم المطلوب والتقارب المرغوب. اسأل الله أن يسهل المقاصد وينجح المساعي.

ومن الإيضاحات الآتية نفهم الفخامة الأعمال الجارية والأسباب المقتضية:

اولاً – قد أعلمنا فخامتكم بأنا بعثنا أحد أنجالنا إلى الشام ليرأس ما يقتضي عمله هناك، ولقد ظفرنا منه بتقرير مفصل يفيد به أن اعتسافات الحكومة هناك لم تبق من الأشخاص الذين نعتمد عليهم في الأمر سواء كانوا من الجند على اختلاف مراتبهم أم ممن لم يكونوا من ذلك الصنف إلا القليل مما كان في الدرجة الثالثة، وإنه ينتظر وصول القوات المعلن بقدومها من مواقع مختلفة أخصها من أهالي البلاد وما جاورها من الأقطار العربية كحلب وجنوب الموصل المشاع بأن عددها ما ينوف عن المائة ألف على ما يزعمون، وأنه يؤمل إن كانت الأكثرية من القوة المذكورة من العرب فهو عازم على إجراء الحركة والقيام بها، وإن كان العكس يعني الأكثرية من الأتراك وسواهم فسيناظر تقدمهم نحو الترعة وعند اشتباك الحرب حركته بهم عندما يريدون.

ثانياً – عزمنا على إرسال نجلنا الكبير إلى المدينة المنورة بقوة كافية ليكون ردءًا لأخيه الذي بالشام ولكل احتمال واستيلائه على الخط الحديد وما هو في معنى ذلك مما تظهره الشئون. وهذا هو المبدأ للحركة الأساسية المكتفين في مبادئها بما جندناه برسم المحافظة على راحة داخلية البلاد وبأهل الحجاز أهل المركز فقط لأسباب يطول شرحها.

(أولاً) – تعسر إحضار لوازمهم بصورة تجعل المشروع في حيز الكتمان، مع عدم الضرورة على ذلك وسهولة جلب الامدادات عند الحاجة. هذا خلاصة ما رغبتم الجواب عليه والاستفهام عنه، وفي ظني أن فيه الكفاية واتخاذه أساساً وقياساً في أعمالنا أمام كل التبدلات والطوارىء التي يظهرها سير الحالة. بقي علينا بيان ما نحتاجه والحالة هذه هو:

أولاً – مبلغ خمسين ألف جنيه لمشاهرة القوات المجندة ونحوها مما ضرورته تغني عن بيانه. فالرجاء إحضارها بوجه السرعة الممكنة.

الثاني – إحضار عشرين ألف كيس أرز وخمسة عشر ألف دقيق وثلاثة آلاف شعير ومائة وخمسين كيس بن قهوة ومثلها سكر ومقدار خمسة آلاف بندقية من الطراز الجديد وما تحتاجه النسبة لها من المرميات وأيضاً مقدار مائة صندوق من النوع المرسل منه مرميتين طيه. ومن مرميات بواريد مارتن هنري وبارودات غرا أعني بواريد معمل سانت اتيين الافرنسية لاستعمال هذين الصنفين في بواريد أي بندقيات قبائلنا، ولا بأس من جعل لكل نوعهما خمسمائة صندوق.

الثالث– إنا استنسبنا مركز سوقيات هذه المواد المرغوبة يكن بور سودان.

الرابع– بالنظر لكون المواد الغذائية واللوازمات الحربية الموضحة أعلاه لا حاجة لنا بها إلا عند ابتداء الحركة وسنبلغكم إياها بصورة رسمية تبقى في الموضع المذكور، وعند الحاجة اليها يبلغ أمير الجهة المذكورة وقائدها بالمواقع التي يقتضي سوقها إليها والوسائط التي سيكونون حاملين الوثائق بتسليمها أياهم.

الخامس– النقود المطلوبة يقتضي إرسالها في الحال إلى أمير بور سودان، وسيرده من طرفنا معتمد يتسلمها أما دفعة أو دفعتين على حسب استطاعته. وهذه علامة اعتماد الرجل(T).

السادس– مندوبنا في قبض المبالغ المذكورة سيتوجه إلى بور سودان بعد ثلاثة أسابيع يعني يكون وصوله إليها في ٥ من جماد الأول حامل كتاب منا باسم الخواجه الياس افندي[١] وأنه يصرف له بموجبه ما لديه من ايجارات أملاكنا و الأمضاء صراحة باسمنا، غير أننا معمدينه يسأل عن قائد الموقع وأميره، فأنتم تخبروهم عن ذلك الشخص

---

(١) الياس دبانة وكيل املاك الشريف في مصر.

وبمراجعته يجري له ما يقتضي من صرف ما لـديهم بـشرط ألا يبحثوا معه في أي موضوع كان مؤكدين غاية التأكيـد فـي عـدم المظاهرة له وكتمان امره ومعاملته في الظاهر بأنـه لا شـيء، لا يظن أن ثقتنا للشخص الأخير من اعتماد الأول حامله هذا، لا بـل لعدم ضياع الوقت لتعيننا له خدمة في جهة ثانية، مع تكرر رجاءنا بعد اركابه وابعاثه في بابور أو في شيء من هذه الرسميات فـإن وسائطه كافية.

السابع- مندوبنا حامل هذا أكدنا عليه بالاكتفـاء بإيـصال هـذا، وأظـن أن مأموريته في هذا الدور تمت، حيث إن الحالـة علمـت أساسـاتها وفروعها فلا حاجة في بعث شخص آخر، إذ أن اللزوم للمخـابرة يكن منا، ولا سيما أن مندوبنا الأخير سيردكم بعد ثلاثة أسابيع يمكن في ظرفها إفادتنا بما يلزم له الحال وأن لا يعامـل فـي الـصورة الظاهرة إلا معاملة بسيطة.

الثامن- تعهد الحكومة البريطانية العظمى قبول هـذه المـصاريف الحربيـة بموجب الدفاتر التي تقدم إليها ببيان الوجهة التي صرفت فيها.

وبالختام أهديكم أشواقي التي لا تعد واحتشامي الذي ليس له.

(ي)

وصلت رسالة الشريف إلى مكماهون فأجاب عليها دون إبطاء، مرسلاً بعض المطالب الخفيفة مع الرسول ومؤكداً وجود الذخائر الكافية في بور سودان تحت الطلب. ولا يخفى ما في الرسالة من الاشارات إلى انتصارات الحلفاء في الميادين. وليس لهذه الاشارات من مغزى سوى تشجيع الحسين على إعلان الثورة.

من مكماهون إلى الشريف حسين

القاهرة في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤

الموافق ١٠ آذار ١٩١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى ساحة ذلك المقام الرفيع ذي الحسب والنسب الفاخر قبلة الاسلام والمسلمين معدن الشرف وطيب المحتد سلالة مهبط الوحي المحمدي الشريف ابن الشريف صاحب الدولة السيد الشريف حسين بن علي أمير مكة المعظم زاده الله رفعة وعلاء آمين.

بعد ما يليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحتشام وتقديم خالص التحية والسلام وشرح عوامل الإلفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية، أرفع إلى دولة الأميرالمعظم إننا تلقينا رقيمكم المؤرخ ١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤ من يد رسولكم الأمين، وقد سررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوونها وإنها لموافقة في الأحوال الحاضرة، وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تصادق عليها. وقد يسرني أن أخبركم بأن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبكم وأن كل شيء رغبتم الاسراع فيه وفي إرساله فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا. والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة وتبقى في بور سودان تحت أمركم لحين ابتداء الحركة وابلاغنا إياها بصورة رسمية (كما ذكرتم) وبالمواقع التي يقتضي سوقها إليها والوسائط التي يكونون حاملين الوثائق بتسليمها إياهم.

إن كل التعليمات التي وردت في محرركم قد أعلمنا بها محافظ بور سودان وهو سيجريها حسب رغبتكم – وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لارسال رسولكم حامل خطابكم الأخير إلى جزان حتى يؤدي مأموريته التي نسأل الله أن يكللها بالنجاح وحسن النتائج، وسيعود إلى بور سودان وبعدها يصلكم بحراسة الله ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله.

وننتهز الفرصة لنوضح لدولتكم في خطابنا هذا ما ربما لم يكن واضحاً لديكم أو ما عساه ينتج سوء تفاهم، ألا وهو أنه يوجد بعض المراكز أو النقط المعسكرة فيها بعض العساكر التركية على سواحل بلاد العرب يقال أنهم يجاهرون بالعداء لنا والذين هم يعملون على ضرر مصالحنا الحربية البحرية في البحر الأحمر، وعليه نرى أنه من الضروري أن نأخذ التدابير الفعالة ضدهم. ولكننا قد أصدرنا الأوامر القطعية أنه يجب على جميع بوارجنا أن تفرق بين عساكر الأتراك الذين يبدأون بالعداء وبين العرب الأبرياء الذين يسكنون تلك الجهات، لأننا لا نقدم للعرب أجمع إلا كل عاطفة ودية.

وقد أبلغنا دولتكم ذلك حتى تكونوا على بينة من الأمر إذا بلغكم خبراً مكذوباً عن الأسباب التي تضطرنا إلى أي عمل من هذا القبيل. وقد بلغنا إشاعات مؤداها أن أعداءنا الألداء باذلون جهدهم في أعمال السفن ليبثوا بها الألغام في البحر الأحمر ولالحاق الأضرار بمصالحنا في ذلك البحر. وإنا نرجوكم سرعة اخبارنا إذا تحقق ذلك لديكم.

وقد بلغنا أن ابن الرشيد باع للاتراك عدداً عظيماً من الجمال، وقد أرسلت إلى دمشق الشام، ونؤمل أن تستعملوا كل ما لكم من التأثير عليه حتى يكف عن ذلك، وإذا ما صمم على ما هو عليه امكنكم عمل الترتيب مع العربان الساكنين بينه وبين سوريا أن يقبضوا على الجمال حال سيرها، ولا شك أن في ذلك صالح لمصلحتنا المتبادلة.

وقد يسرني أن أبلغ دولتكم أن العربان الذين ضلوا السبيل تحت قيادة السيد أحمد السنوسي وهم الذين اصبحوا ضحية دسائس الالمان والأتراك، قد ابتدأوا يعرفون خطأهم وهم يأتون إلينا وحداناً وجماعات يطلبون العفو عنهم والتودد إليهم. وقد والحمد لله هزمنا القوات التي جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا، وقد أخذت العرب تبصر الغش والخديعة التي حاقت بهم.

وإن لسقوط ارضروم من يد الاتراك وكثرة انهزاماتهم في بلاد القوقاز تأثير عظيم، وهو في مصلحتنا المتبادلة وخطوة عظيمة في سبيل الأمر الذي

نعمل له وإياكم.

ونسأل الله عز وجل أن يكلل مساعيكم بتاج النجاح والفلاح وأن يمهد لكم في كامل أعمالكم احسن السبل والمناهج.

وفي الختام، اقدم لدولتكم ولكامل افراد اسرتكم الشريفة عظيم الاحترامات وكامل ضروب المودة والاخلاص مع المحبة التي لا يزعزعها كر العصور ومرور الأيام.

كتبه المخلص

السير ارثر هنري مكماهون

نائب جلالة الملك بمصر

هذه صيغة مراسلات الحسين مكماهون كما أذيعت. وقد تعهدت فيها بريطانيا رسمياً بما يلي:

١- الاعتراف باستقلال العرب في بلادهم من الخليج العربي إلى المحيط الهندي إلى البحر الأحمر فالبحر الأبيض المتوسط، ثم من خط يبتدىء من مرسين إلى الخليج، مشتملاً على لواء الاسكندرونة (الذي اقتطعته فرنسا فيما بعد وسلمته إلى تركيا). وقد استثنيت عدن من هذه الحدود.

٢- الموافقة على إنشاء دولة مستقلة في هذه البلاد، أو حلف دول تحت رئاسة الحسين، على أن لا يكون في ذلك إخلال بالاتفاقات المعقودة بين بريطانيا وبين أمراء العرب الآخرين.

٣- مساعدة هذه الدولة بالأسلحة، والتعاون معها في صد أي عدوان خارجي، وعدم الاخلال باستقلالها، ومعاونتها بالموظفين الفنيين والخبراء، على أن تكون سلطتهم محصورة في دائرة أعمالهم، وأن لا يتدخلوا في إدارة البلاد.

ومقابل هذه التعهدات من جانب بريطانيا، تعهد الحسين باسم العرب

لبريطانيا بما يلي:

١- يرحّب العرب بالاتفاق مع بريطانيا والقيام بالثورة ونزع نير الاتراك. وهذا الاتفاق ينتج عنه مساعدة العرب لبريطانيا: مادياً، باعلان الثورة على الترك وما ينتج عن ذلك من تخفيف للضغط على مصر وبالتالي فتح الطريق أمام الجيش البريطاني للزحف على سوريا[١]، وأدبياً، باعلان فساد الاتراك وابتعادهم عن جادة الصواب، وتخليص الحرمين الشريفين من أيديهم، مما سيكون له أعظم الأثر عند الرعايا المسلمين للحلفاء،وفي بلاد العرب ذاتها.

٢- عقد محالفة مع بريطانيا وتفضيلها في الشؤون الاقتصادية، والاستعانة بخبراء من أبنائها في إنشاء قواعد ثابتة للدولة العربية الفتية والتعاون معها في حالة اعتداء خارجي.

٣- الموافقة على (أ) احتلال بريطانيا لولاية البصرة لمدة قصيرة ولقاء تعويض مالي، (ب) احتلال فرنسا لبيروت وسواحلها (لبنان الصغير) خلال مدة الحرب فقط.

ومن الواجب أن نذكر هنا، أن خطط الحسين كانت ترتكز على فكرة قومية توحيدية. أما قول البعض أن تكلمه باسم العرب كان بمجرد الصدف فهو تضليل. لأن الحسين تكلم أولاً باسم العرب بعد تفويضهم له في سوريا والجزيرة. ويومذاك كان الحسين هو الزعيم البارز في بلاد العرب كلها، وما كان غيره يستطيع تحدي الاتحاديين كما تحداهم. ثم أن الحسين فاوض باسم العرب مفاوضة شريفة عادلة وكان يقدّر المسؤولية الملقاة على عاتقه كل التقدير. ويجب أن لا نغمط فضله في قيامه بالثورة بعد أخذ هذه العهود الوثيقة باستقلال العرب والاعتراف بهم كأمة عظيمة موحّدة تستحق أن تأخذ

---

(١) جاء في التاريخ الرسمي للحملة البريطانية على سورية انه في ١١ حزيران ١٩١٦ أشارت وزارة الحربية على الجنرال موراي – قائد الحملة ٠ أن ينظر في أمر التقدم إلى العريش، مما كان احتمال القيام به قبلاً محوطاً بالابهام (ثاني يوم لاعلان الثورة العربية)

مكانها اللائق بها بين الأمم. أما إذا قيل أن هذه العهود لم تؤدّ إلى ما علّق عليها الحسين من آمال ؛ فالجواب أن الذنب في هذا لم يكن ذنب الحسين وإنما ذنب أولئك الحلفاء لم يفوا بعهودهم.

ولا يجب أن ننسى أن مجرد القيام بالثورة في وجه الدولة التي احتلت بلاد العرب ما يزيد عن أربعة قرون– أدى إلى انقلاب عظيم في نفسية الشعب العربي، فهب للجهاد يطلب حريته ويسعى للحصول عليها.

***

وقد جاء في رسالة مؤثرة وجهها عبد الغني العريسي إلى أخوانه العرب قبيل اعدامه: :ألتمس منكم أن لا تتفرقوا فرقاً وطوائف. فاليوم لا مسيحي ولا مسلم ولا يهودي ولا درزي ولا وثني. بل الجميع عرب ومن العرب وللعرب. فلا تشكّوا ووحدوا آراءكم... ان الفرج سوف يأتي من البادية. والجذوة الميمونة المتقدة الآن في الحجاز هي فاتحة البركات للبلاد العربية جمعاء".

وتجدر الاشارة إلى أن هذه المراسلات لم تنشر رسمياً من قبل الحكومة البريطانية حتى عام ١٩٣٩ . وقد أثيرت في مجلسي عموم ولوردات بريطانيا عدة مناقشات حول اذاعة هذه الوثائق .

وفي شباط عام ١٩٣٩. خلال مفاوضات الدول العربية مع الحكومة البريطانية في لندن بشأن قضية فلسطين – طلبت الوفود العربية اذاعة هذه المراسلات التي يتمسكون بالعهود المقطوعة فيها للملك حسين. فأجابهم ماكدونالد وزير المستعمرات بأن بريطانيا وعدت العرب بالاستقلال، وتعتقد بأنها وفت بهذا الوعد، وبرهنت للعرب أن بريطانيا أصدق اصدقائهم.

غير أن رؤساء الوفود العربية ألحّوا في نشر المراسلات، مما اضطر المستر تشمبرلين رئيس الوزارة البريطانية أن يصرح في مجلس العموم، أن حكومته ستنشر نصوص المراسلات في كتاب أبيض. وأجاب على سؤال بهذا الصدد، فقال: أنه لا يعلم السر الذي حدا بالوزارات السابقة إلى ابقاء هذه الرسائل في طي الكتمان ولماذا لم تستصوب نشرها.

وفي أول آذار نُشرت المراسلات. وقد جرت ترجمتها بحضور مندوبي الانكليز والعرب وباشراف كبير المحاضرين باللغة العربية في معهد العلوم الشرقية بجامعة لندن. وارفقت المراسلات بخريطة للبلاد السورية قبل الحرب. وقال أحد المشرّعين الانكليز في هذا الصدد "ليس في مقدور أية محكمة، الاستنكاف عن تأييد وجهة نظر العرب، إذا ما عرضت هذه الوثائق عليها".

وفي ١٦ آذار قدم المندوبون البريطانيون والعرب إلى الوفدين الرئيسيين البريطاني والعربي تقريراً عن نتيجية ابحاثهم. وأهم ما فيه بخصوص فلسطين هذه الفقرة "الاعتراف بأن انجلترا أبلغت الملك حسين بواسطة الكومندان هوغارت: إن الوطن القومي اليهودي يجب أن لا يمسّ حقوق العرب الاقتصادية والساسية وان هذا البلاغ يجب احترامه. وانه بالنظر للعهود المقطوعة، فإن الحكومة البريطانية لم تكن حرّة التصرف بمصير فلسطين دون احترام رغبات سكانها". ونُشرت مع التقرير الرسمي نصوص رسالة هوغارت، والتصريح البريطاني للزعماء العرب السبعة. وتوكيدات اللنبي لفيصل، والتصريح البريطاني – الفرنسي في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨[1]

---

(١) أصدرت الحكومة البريطانية في عام ١٩٣٩ كتابين رسميين تحت رقم cmd.5974 ورقم cmd.5957. ويتضمن الأول الرسائل العشر التي تبودلت بين الشريف حسين وهنري مكماهون. اما الثاني فيتضمن تقرير اللجنة التي عُيّنت لفحص هذه الرسائل مع نصوص عهود بريطانيا الأخرى.

وفي عام ١٩٤٠ نُشر كتاب(مؤتمر فلسطين العربي البريطاني) الذي ضمّ ترجمة محاضر جلسات هذا المؤتمر، ويقع في ٣٩١ صفحة، وقد ترجمه ابراهيم عبد القادر المازني وراجعه خير الدين الزركلي.

(٢) نُشرت نصوص هذه المراسلات في عدة كتب عربية وأجنبية. واستطيع القول بكل ثقة، إن النصوص المنشورة هنا، أكثر دقةً وأقرب إلى النص العربي الأصيل، من أية نصوص أخرى نُشرت من قبل. إن النصوص التي نُشرت في كتاب (تاريخ مقدرات العراق السياسية)، وفي كتاب أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى)، وفي الكتاب الذي نشرته الأمانة العامة لجامعة الدول العربية عام ١٩٤٦ بعنوان (الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين) – ليست نصوصاً كاملة ودقيقة. وأقرب النصوص إلى الدقة هو الذي نشره جورج انطونيوس في كتابه (يقظة العرب) لأنه ترجمة مباشرةً عن النص العربي الأصيل الذي سمح له الملك حسين بنسخه في شتاء ١٩٣١/١٩٣٠ (الصفحات ٥٤٣-٥٧٧ من الترجمة العربية). وقد استعنت في مراجعة =

- ١١ -

الساعة الفاصلة

من الانصاف أن نذكر، التفكير في الثورة جدياً قد بدأ في سورية في أذهان أعضاء جمعيتي العهد والفتاة، وكان زعماء هاتين الجمعيتين يرون أن في مقدورهم القيام بثورة أو بالاحرى بانقلاب عسكري، إذ كان للدولة في أواخر عام ١٩١٤، ثلاث فرق في ولاية سورية وفرقتان في ولاية حلب. وكانت أكثرية رجال أربع فرق من هذه من ابناء العرب كما أن الجيش الموجود في العراق كان معظم أفراده من العرب. ولذا فقد أخذوا يقلبون وجوه الرأي للقيام بالانقلاب في سورية والعراق في آن واحد، ولكنهم تلفتوا إلى زعيم تؤهله امكاناته لقيادة الانقلاب ورئاسة الدولة العربية، فلم يجدوا سوى الحسين، ولذلك قرّروا أن يرسلوا رسولاً يحمل عروضهم.

كان الرسول هو السيد فوزي البكري نجل عطا باشا البكري، وقد جاء ايفاده بمحض الصدف، إذ أنه دعي لاداء الخدمة العسكرية، ولصغر سنه فقد طلب الشريف حسين أن يقضي مدة الخدمة كأحد أفراد حرسه الخاص

= النصوص وتدقيقها بما عثرتُ عليه منها في أوراق الأمير زيد، وبالصور الفوتوغرافية التي نُشرت لسبع من هذه الرسائل في كتاب (مؤتمر فلسطين العربي- البريطاني)، الصفحات ٩٠ - ١٠٣. كما إنني قارنت النصوص العربية بالنصوص الانكليزية التي نشرتها الحكومة البريطانية في عام ١٩٣٩ وأشرتُ اليها في مكان آخر من هذا الكتاب. وقد تبين لي من المقارنة أن النص الانكليزي لرسالة مكماهون المؤرخة ١٤ كانون الأول ١٩١٥، انطوى على نقص خطير ومهم بالنسبة للنص العربي الذي تسلمه الشريف حسين. فبينما تضمن النص الذي تسلمه الحسين القول بأن بريطانيا لن تبرم صلحاً إلا إذا "**كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الالمان والاتراك**" فإن النص الانكليزي المنشور اقتصر فقط على ذكر "حرية الشعوب العربية من سلطة الالمان والاتراك". وقد بيّنت في كتابي (صور من البطولة)، ص ص ٣٠- ٣١، أهمية الفرق بين النصين. مع الأخذ بعين الاعتبار أن النص العربي الذي تسلمه الحسين هو النص المعتمد والمعوّل عليه رسمياً. وللحقيقة أقول أن النص الذي نشره انطونيوس بالانكليزية تضمن النص الصحيح ايضاً لهذه العبارة بالذات، كما تضمنت ذلك الترجمة العربية للكتاب ذاته.

ووافق الجيش على طلبه. وهكذا فقد أخذه اخوه نسيب إلى دار جمعية الفتاة وحلّفه اليمين. ثم اجتمع إليه زعماء الحركة : ياسين الهاشمي وعلي رضا الركابي وعبد الغني العريّسي، وأوصوه أن ينقل للشريف رسالة خلاصتها: "ان الزعماء الوطنيين في سورية والعراق ومعهم كبار الضباط العرب في الجيش العثماني يستحسنون القيام بثورة للحصول على استقلال الشعب العربي. فهل يقبل الحسين أن يقود الثورة ؟ وإذا كان جوابه بالموافقة، فهل يستطيع أن يقابل وفداً منهم في مكة، أو يرسل من ينوب عنه إلى دمشق للاتفاق على التفاصيل؟.

وصل فوزي إلى مكة في الاسبوع الاخير من كانون الثاني ١٩١٥. فقابل الحسين ونقل إليه رسالة زعماء العرب، فلم يبد الحسين شعوره تجاهها، وصدف يوم ذاك عثور رجال الأمير علي على الوثائق التي سقطت من وهيب باشا. فأرسل الحسين نجله فيصل إلى الآستانة لاطلاع ذوي الشأن فيها على الدسائس التي تحاك ضده. وأوعز إلى نجله الأكبر علي أن يقيم في المدينة ويعمل على تجنيد العربان باسم التطوع لحملة القناة. وأوعز إلى نجله الثاني عبد الله بتأليف قوة من قبائل الطائف ومكة وتزويدها بالسلاح.

وفي تلك الأثناء، أوفدت جمعية الفتاة رسولاً آخر إلى الشريف حسين، هو الشيخ كامل القصاب، الذي كان له تأثير كبير في اقناع الشريف بضرورة قيام العرب بثورة للتخلص من مظالم الاتحاديين.

كان لرحلة فيصل غايتان رئيسيتان : اولاهما ظاهرة، وهي محادثة أقطاب الترك وبسط شكوى والده للسلطان والصدر الأعظم. وثانيتهما باطنة، وهي المداولة مع قادة العرب في الشام ومعرفة موقفهم من العروض التي تعرضها بريطانيا.

وصل فيصل إلى دمشق في ٢٦ آذار ١٩١٥، وبقي فيها أربعة أسابيع، ثم بارحها إلى الآستانة فبلغها في ٢٣ نيسان، ثم عاد إلى دمشق فوصلها في ٢٣ ايار، وهناك استقبله جمال باشا بنفسه في المحطة واظهر له كل حفاوة

وأكرام. وحل فيصل ضيفاً في دار البكري أصدقاء عائلتـــه القــدماء. وفـــي زيارته هذه دخل عضواً في جمعية الفتاة، وأقسم اليمين، وتذاكر مع أقطابهـــا فيما يجب على العرب عمله إذا ما نشبت الثورة. ثم لم يلبث ان غادر دمـــشق إلى القدس، وزار ميدان الحرب في سيناء، ثم عاد إلى دمـــشق ومنهـــا إلـــى الحجاز.

وتعرّف فيصل خلال اقامته في دار البكري بكثير من رجال جمعيتي الفتاة والعهد. فأوقفوه على مطامح العرب، وأفهموه أنهم يعملون على خلع نير الاتراك إذا لم يلبوا مطالب العرب القومية. وقص عليهم بدوره المحاولات التي تبذلها بريطانيا لدى والده، وطلب أن يعرّفوه برأيهم تجاهها. وبناء عليه فقد اجتمع رجال الجمعيتين ووضعوا قاعدة للشروط التي يستطاع الاتفاق عليها مع بريطانيا، لكي يحملها فيصل إلى والده. وهذا نص القرارات:

"تعترف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد ضمن الحدود التالية :

شمالاً – من خط مرسين – أضنه على موازاة درجة العرض ٣٧. ومنها إلى خط أورفه – ماردين – جزيرة ابن عمر حتى الخليج العربي.

شرقاً – الخليج العربي.

جنوباً – المحيط الهندي (باستثناء عدن).

غرباً – البحر الأحمر ثم البحر الأبيض المتوسط إلى خط مرسين.

الغاء جميع الحقوق الممنوحة للأجانب والمعروفة باسم الامتيازات الأجنبية. وتعقد في النتيجة محالفة دفاعية بين بريطانيا وحكومة العرب المستقلة عند تكوينها، يكون التفضيل فيها لبريطانيا في المشاريع الاقتصادية".

وجدير بالذكر إن مفاوضات الحسين مع بريطانيا فيما بعد كانت تتفق مع هذه القرارات.

واتصل فيصل أيضاً بالدكتور أحمد قدري والدكتور عبد الرحمن الشهبندر وياسين الهاشمي وعلي رضا الركابي، وفهم منهم أن باستطاعتهم

القيام بالثورة العربية في سورية، وأن عندهم جميع ما يحتاجون إليه من معدات وذخائر. هذا إلى انه كان في سورية يومذاك من الجنود العرب ما يكفي لطرد الاتراك دون عناء. كما كانوا يأملون أن ينزل الحلفاء بقواتهم في الاسكندرونة – فيما إذا تم الاتفاق معهم – ويتعاون الفريقان على حصر الأتراك وأسر قواتهم. وقبل مغادرة فيصل لدمشق سلمه الزعماء مضبطة سرية يفوضون بها الحسين بمباحثة بريطانيا باسم العرب ويعترفون له بالملكية على البلاد العربية، وقد وقعها الشيخ بدر الدين الحسني، وعلي رضا باشا الركابي، والفريق شكري باشا الأيوبي، وياسين باشا الهاشمي، وسليم باشا ونسيب بك الأطرش من الدروز، ونوري باشا الشعلان، والشيخ نوار الفهد والشيخ محمد المهان عن البدو. كما أعطاه الركابي باشا والشيخ بدر الدين ختميهما الذاتيين لتسليمهما إلى والده. علامة على موافقتهما على كل ما يقوم به باسم العرب.

غادر فيصل دمشق إلى مكة فبلغها في ٢٠ حزيران، وهناك قصّ على والده نتائج رحلته، ووصف له ما شاهده من نشاط العرب في سورية، وسلمه القرارات التي اشترطوها للمفاوضة باسمهم. ولم يلبث الحسين حتى غادر مكة إلى الطائف، حيث وافاه إليها أنجاله علي وعبد الله وفيصل، وهناك عقدوا مؤتمراً سرياً تم في نهايته القرار على أمرين أولهما: عودة فيصل إلى سورية ليتصل برجال العرب فيها ويعمل معهم على التمهيد للقيام بالثورة في سورية والحجاز في وقت واحد. وثانيهما : فتح باب المفاوضات مع بريطانيا.

عاد فيصل إلى سورية، وأقام فيها بعد أن أخبر جمال أن أخاه علي يقوم بتجهيز قوات المتطوعين، وأنه سيقودهم عند اتمام الاستعدادات إلى صحراء سيناء. وعاد إلى اتصاله برجال العرب، إلا أن شعوره بامكان مداومة الاتفاق مع الاتراك هبط هبوطاً محسوساً، بعد أن أعدم جمال القافلة الأولى من زعماء العرب خلال اقامته في الحجاز. ولكنه أقام على موافاة أبيه بالاخبار الطارئة وبحركات الترك. وفي شباط عام ١٩١٦ وصل أنور باشا إلى دمشق ثم سافر إلى المدينة المنورة مع جمال وفيصل، وأظهر رغبته بالاجتماع إلى الحسين. إلا

أن الحسين اعتذر وأرسل إلى أنور وجمال سيفين مرصعين بالحجارة الكريمة مع هدايا ثمينة اخرى. وعاد ثلاثتهم إلى دمشق. واقام فيصل فيها إلى ان قام جمال باعتقال القافلة الثانية من أحرار العرب.

وتوسط فيصل لدى جمال طالباً اطلاق سراح المعتقلين. وألح في ذلك الحاحاً عظيماً. حتى أن جمال اعترف في مذكراته بشدة الحاح فيصل عليه بهذا الصدد. إذ قال: "لقد جاهد فيصل أعظم جهاد للحصول على العفو عن المجرمين. وصار يحضر اليّ كل يوم ويحوّل دفة الحديث إلى جهة العفو عنهم". غير أن توسطات الحسين وفيصل ذهبت سدى وتم آخر فصل من فصول الفاجعة.

وبعد إعدام الأحرار، عُقد اجتماع في دار البكري قرّ الرأي فيه على أن الثورة أصبحت غير ممكنة في سورية، لتشتيت الجنود العرب منها وإعدام زعمائها، وإن على الحجاز أن يقوم بالعمل الخطير وحده، وعليه فقد استأذن فيصل من جمال أن يعود إلى المدينة لكي يحضر على رأس المتطوعين مع أخيه علي، فأذن له. وسافر فيصل على رأس وفد تألف من كاظم بك مفتش الجيش وآصف بك مستشار الجيش ونسيب البكري والشيخ عبد القادر الخطيب. فوصلوا إلى المدينة في أيار.

من المعروف أن الثورة قامت على مقياس أضيق بكثير مما كان الحسين يستعد له في البداية، فقد كان مشروعه الأصلي يقضي باعلان الثورة في وقت واحد في سورية والحجاز، على أن يرافق ذلك نزول حملة من قوى الحلفاء في نقطة قريبة من الاسكندرونة. وبهذا يقع الترك بين نارين، ويستطاع القضاء على قواتهم المعسكرة جنوبي جبال طوروس، ثم تمتد الثورة شرقاً لتوقع ضربتها القاصمة بهم في العراق.

ولكن الحلفاء لم يقبلوا بهذه الفكرة، خوفاً من أن تتكرر الهزيمة التي لحقت بهم في غاليبولي، بل إنهم رفضوا القيام بالمظاهرة البحرية التي طلب الحسين إليهم ان يقوموا بها. ثم إذا راجعنا رسالته المؤرخة ١٨ شباط

١٩١٦، نجد أن تدابير الاتحاديين التعسفية في سورية وتشتيتهم للفرق العربية، قضت على أمل الحسين باشتراك سورية في الثـورة، واضـطرته للاكتفـاء باعلانها في الحجاز.

***

نخطئ إذا ظننا أن محاولة الحسين الأخيرة مع الدولة العثمانية كانت حباً لكسب الوقت أو لأي غرض آخر. فبرقيته المشهورة التي أرسلها في آذار كانت آخر سهم في جعبته للتوصل إلى اتفاق بين الامتين العربية والتركية. وطبيعي ان طلبه منح نظام اللامركزية لسورية واطلاق سراح أحرارها، وكذلك طلب تثبيت أمارة مكة في عائلته، لم تكن ترمي إلا إلى توطيد الأواصر بين الامتين على قواعد ثابتة. والحسين لو أراد كسب الوقت أو أخذ الأتراك على حين غرّة، لاكتفى بسياسة الهدوء والانتظار بل والمصانعة. ولكنه كان صريحاً مستقيماً لا يعرف اللف والدوران ولا يحسن الغدر والمخاتلة، فأنذرهم المرة بعد الأخرى وبصّرهم بالعواقب السيئة التي سوف تنجم من جراء سياستهم الهوجاء. بل أن موقفه معهم كان في غاية الصراحة منذ ان استشاروه في إعلان الحرب. إذ بين لهم أنهم الخاسرون على كل حال إذا ما اشتركوا في معمعانها. ولكن أقوال الحسين كانت كمثل صرخة في واد فلم يستمع الاتحاديون لنذيره ولم يتساهلوا مع العرب، بل صرّحوا بعداوتهم الكامنة، فنصبوا المشانق لأحرارهم وشردوا عائلاتهم. ولم يسهلوا نقل الأغذية فقضوا على عشرات الألوف منهم جوعاً. ولم يسلم الحسين من أذاهم إلا لكونهم تهيبوا الاقدام على مصارحته بالعداوة، لما كان يتمتع به من نفوذ عظيم في العالمين العربي والاسلامي، ولأنهم لم يتمكنوا من إيجاد سبب جوهري معقول لعزله. ولأنه كان عالماً بنياتهم وعلى استعداد لمقاومتهم بالسلاح إذا حدثتهم نفسهم بالايقاع به، الأمر الذي ما كانوا على استعداد لاثارته في ظروف الحرب.

كان الحسين يقدّر مسؤوليته تجاه الامة العربية. وكان يرى أن قومه يقفون على مفترق الطرق، وأن نتائج هذه الحرب ستكون فاصلة بالنسبة لهم. وكان يزن

الدول المتحاربة بنظر الرجل السياسي الحصيف، ويرى أن بريطاينا وحلفاءها سيتمكنون من التغلب على المانيا وحلفائها. ولم يدع الاتحاديون لــه مجــالاً للاختيار، فبأظهار عداوتهم للعنصر العربي دفعوه دفعاً إلــى الاتفــاق مــع المعسكر الآخر. وكان يتخوف أن تنتهي الحرب والعرب على حــالهم مــن الهوان فتتقاسمهم مطامع الدول أيدي سبأ، ويعبث بهم العابثون. أضف إلى هذا الاغراء العذب والوعود المعسولة التي كانت تتوالى عليه من بريطانيا. وهي تحمل في طياتها ما يصبو إليه وقومه من استقلال بأمرهم، وتوحيد لكلمــتهم، وجمع لشملهم، واظهار لقوميتهم، بعد مئات السنين من خضوع الأمة العربية للمتغلبين من أبناء الأمم الأخرى.

ونستطيع أن نجمل الأسباب التي تعاونت على خلق فكرة الثورة في أذهان العرب، فيما يلي :

١- النهضة العلمية وانتشار روح القومية بين الكثيرين من أبناء الأمة.

٢- التطورات في الدولة العثمانية خاصة وفي العالم عامة. وتطلع الشعوب بأجمعها إلى النهوض والاستمتاع باستقلالها.

٣- الخوف من أن يؤدي ضعف الدولة العثمانية إلى وقوع البلاد العربية لقمة سائغة لدول أوروبا، كما جرى لولايات الدولة في شمالي افريقيا.

٤- اشتراك العرب مع الترك في الثورة على استبداد عبد الحميد، ثم تفرد الترك بالاستيلاء على مقاليد الأمور وانتقاضهم على شركائهم العرب، مما نبّه الشعور العنصري وأذكى النعرة القومية.

٥- التشجيع الأجنبي، الذي كان يحمل في طياته الوعد العاجل بالمال وبالسلاح، والوعد الآجل بالحرية والوحدة.

وكذلك نستطيع ان نجمل الأسباب التي دعت بريطانيا إلى نشدان معونة العرب فيما يلي :

١-ضرورة تأمين المواصلات البريطانية في الشرق لأوسط، وأهم النقاط في هذه

الطرق هي قناة السويس والبحر الأحمر وعدن.

٢- الحرب القائمة مع الدولة العثمانية وضرورة تصديع جبهتها الداخلية مما يؤدي إلى تسهيل هزمها حربياً، وكذلك مجابهة دعايتها الدينية بدعاية مماثلة.

٣- مركز العرب في الامبراطورية العثمانية، إذ انهم اكثر عناصر الدولة عدداً، ثم من الوجهة الدينية لهم تقدير أكبر من التقدير الذي يتمتع به الاتراك. وكذلك بلادهم تجاور طريق الحلفاء الكبير إلى الشرق.

٤- الدوافع السياسية والاقتصادية وأهمها محاولة السيطرة على بلاد العرب، واستغلالها والانتفاع بمركزها الحربي الممتاز.

ولا بد لنا أن نسجل الدوافع التي أهابت ببريطانيا إلى اختيار مفاتحة الشريف حسين، بينما كان في بلاد العرب خمسة أمراء يتقاسمون السلطة في مختلف بقاع الجزيرة. وهم عدا الشريف في الحجاز: الامام يحي في اليمن، وابن السعود وابن رشيد في نجد، والادريسي في عسير.

ومن الواضح أن ذلك الاختيار لم يقع بطريق الصدفة، ولذلك فيمكن استخلاص الدوافع فيما يلي :

١- الزعامة القومية- فقد تبنّى الحسين قضايا العرب العامة، وأخذ يدافع عن حقوقهم، مما نتج عنه أن أنظار زعماء العرب كانت تتجه إليه دائما كزعيم بارز، وقد وطد من هذه الزعامة مقاومته للاتحاديين وعدم اكتراثه بهم.

٢- الزعامة الدينية- فهو من سلالة الرسول، وأمير البلاد المقدسة، ومركزه الديني لا يوازيه إلاّ منصب الخليفة. كذلك بحكم القواعد التي ندعوها (بروتوكول) كان يعتبر ثاني شخص بعد ولي العهد في الدولة كلها. فكان بذلك الشخص الوحيد الذي يستطيع ان يبطل دعوى الخليفة لأجل الجهاد.

٣- المركز الحربي- وبما أن الحجاز يشرف على البحر الأحمر ويتصل بسورية شمالاً وبجنوب الجزيرة وشرقها، فقيام ثورة فيه يؤدي إلى قطع مواصلات

القوات العثمانية الموجودة في اليمن وعسير، ويهدد القوت المتمركــزة في سورية.

هذه مجمل الأسباب التي تعاونت على خلق الثورة العربية واعلانها بقيادة الحسين. ونحن أول من يعترف ان تطلّع الأمة العربية إلى استعادة أمجادها كان الدافع الأول في خلقها. ولكن لا نستطيع ان ننكر أن الحسين قاد الثورة قيادة حازمة، وعمل على إنجاحها جهد طاقته مما لم يكن في طوق سواه أن يعمل أفضل منه. ويشهد له الأعداء والأصدقاء بالبطولة وشدة العزم، وبما أبداه خلال أيام الثورة العصيبة من إيمان مطلق وهمة لا تعرف الكلل.

لقد كانت الثورة التي قادها الحسين نقطة انطلاق للأمة العربية كلها. ونحن إذا استعرضنا تاريخنا الحديث، نرى أن تلك الثورة كانت أما وأبا لسلسلة متلاحقة من الثورات الدامية على الاستعمار والجهل والاستغلال. وستتوالى هذه الثورات حتى يتحقق الهدف الذي قامت لاجله ثورة الحسين: ألا وهو ايجاد دولة عربية قوية مستقلة تضم أقطار العرب تحت لوائها وتحتل مكانها المرموق بين أمم العالم.


الذخيرة العربية

القسم الثاني

في طريق الحرية


الذخيرة العربية

- ١ -

الرصاصة الاولى

في الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم السبت ٩ شعبان ١٣٣٤هـ الموافق ١٠ حزيران ١٩١٦ م، بدأ الحسين بإعلان الثورة رسمياً بأن أطلق رصاصة من شرفة قصره، على الثكنة العسكرية في مكة المكرمة، فكانت إيذاناً باعلان استقلال العرب وبدء ثورتهم على سلطة الترك، كما كات إشارة اتفق عليها مع رجاله الذين بدأوا هجومهم عند سماعهم صوت إطلاقها.

كانت تلك الرصاصة البشير الأول بزوال عهد العسف والارهاق. وقد هزّ دويّها الغرب كما هزّ الشرق، وأعلنت للعرب أن النضال بينهم وبين أولئك الذين استعبدوهم مئات السنين قد ابتدأ، وأنه قد آن للعنصر العربي أن يتلمس كيانه، ويستشعر قوميته. وأدرك الترك انهم خدعوا وأن الفرصة افلتت من بين أيديهم. وكان بصري باشا محافظ المدينة أول من تنبه إلى هذه الحقيقة، وكان يدعو إلى الفتك بالشريف وأولاده. ويشير باتباع سياسة الشدة والحزم في الحجاز، فقال كلمته المأثورة "لقد انتصر الذكاء العربي على الذكاء التركي في هذه المعركة، وفاز عليه". وهكذا بدأت الثورة في طول الحجاز وعرضه:

- هاجم الاميران علي وفيصل المدينة يوم الخميس ٨ حزيران.
- وهاجم الأمير عبد الله الطائف يوم ١١ حزيران.
- وهاجم الشريف عبد المحسن البركاتي ثكنة الترك في "جرول" بمكة يوم السبت ١٠ حزيران.

- وهاجم الشريف محسن بن احمد منصور، شيخ قبائل حرب، مدينة جـدة صباح الأحد ١١ حزيران.

وقبل أن نسرد أخبار المعارك والقتال، نرى أن نعطي القارئ صورة عن الأحوال التي سادت قبيل إعلان الثورة.

يتحدث جمال باشا في مذكراته عن هذه الفترة فيقول :

بعد أن غادرنا الشريف فيصل، أرسلت فخري باشا إلى المدينة، وكان مشهوراً بوطنيته وثباته، وبعد أن شرحت له رأيي في الحالة، وأخبرته أني اتوقع أن يثور الشريف حسين قريباً – لكي يرتب مع بصري باشا محافظ المدينة، وسائل الدفاع. وأعطيت كلاً من بصري باشا وفخري باشا التعليمات السرية وتقضي بأن يستلم فخري باشا عند أول انذار بقيام الثورة، قيادة الحركات العسكرية، وبأن يقوم بصري باشا بأعباء الادارة المدنية. واحتياطاً للطوارئ، أمرت أن تبقى كتيبتان أو ثلاث وبطاريتان جبليتان في دمشق، على استعداد تام للزحف على المدينة عند أول إشارة.

ولما وصل الشريف فيصل إلى المدينة، كتب إلي معرباً عن سروره لأن أخاه علي سيقابلني قريباً. وبما أن الشريف حسين قد سألني أن أرسل إليه قدراً من المال لتغطية نفقات المجاهدين الذين كانوا على استعداد للزحف، فقد طلبت إلى حاكم المدينة أن يسلمه المبلغ المطلوب دون أن نعلم أن هذه التقدمة ستكون إعانة نافعة له للخروج علينا بعد يوم أو يومين.

وبينما أنا ببيروت في اليوم الثاني من حزيران، إذ بفخري باشا يدعوني من المدينة لمحادثتي بالتلفون، فقال لي: منذ وصولي إلى هنا ما زالت علاقاتي حسنة مع الشريفين علي وفيصل، وقد دعواني منذ يومين لزيارة مقام سيدنا حمزة حيث هناك معسكر للمجاهدين فتغدينا معاً. وجعل المتطوعون يلعبون العاب الفروسية وينشدون الأغاني الحماسية حول الضربات القاصمة التي سيقومون بها. وفي مساء الأمس دعيت إلى منزل الشريف علي فقررنا أن تذهب إلى درعا خلال يومين، أول كتيبة من كتائب المجاهدين. ولكني صباح اليوم رأيت أن الحالة قد تغيرت تغيراً غريباً، فقد جاء اليّ أحد رجال

الشريف علي ودفع إليّ ثلاثة خطابات: الأول لي والثاني من الشريف حسين لك، والثالث منه أيضاً للصدر الأعظم، وإذ كان الأخيران مكتوبين بالارقام، فقد عجلت بارسالهما اليك، اما الخطاب المرسل إلي فقد كتب الشريف علي فيه ما نصه: "بناء على الأوامر الصادرة من والدي سيقف نقل المتطوعة إلى فلسطين، ولهذا عقدت النية على العودة بالمجاهدين إلى مكة، بدلاً من ضياع الوقت هنا. وإني آسف لاضطراري إلى الرحيل دون أن أودعك. فأرجو قبول عذري والسلام". وقد أرسلت في الحال كتيبة إلى المكان الذي أقام فيه المجاهدون بالامس فوجدته خاوياً على عروشه. وقد أخبرني الشريف علي بأنه ذاهب إلى مكة، ولكن المعلومات التي استقيتها من شيوخ العرب الموالين، تدل على انه قسم قوته إلى ثلاث كتائب، وأنه أرسلها إلى جهات مختلفة. وإني لأظن أنها ستهاجم السكة الحديدة هذه الليلة أو في صباح الغد على أكثر تقدير. وانهم سيعطلون مواصلاتنا بين المدينة وسورية، ويقومون بهجمة فجائية على المدينة. ولذلك وبناء على تعليماتك، تسلمت قيادة الجنود المرابطة في المدينة، وأعددت جميع معدات الدفاع استعداداً للطوارئ. فالأمل أن لا تتركنا بلا امدادات.

وبعد فك رموز الخطابين المرسلين من الشريف حسين، وجدت أنه يعتذر في كتابه اليّ عن عدم استطاعته الاشتراك في الحملة على القناة قبل أن تُجاب المطالب التي طلبها في برقيته المرسلة إلى الصدر الأعظم، وقبل أن تكف الحكومة عن اتباع خطة الابهام والغموض حياله.

أما خطابه إلى الصدر الأعظم، فقد قال فيه أنه لا يعرف أيّ الرجلين يصدّق: أهذا السياسي الذي يتعامل معه مباشرة، ولطالما أظهر له المجاملة والود، أم ذاك الذي استعمل معه ألفاظاً جارحة مهينة. فهو يرى نفسه مضطراً إلى قطع العلاقات مع الدولة، حتى تجاب المطالب التي طلبها من أنور باشا منذ شهرين.

وكنت أنا المقصود بالسياسي الذي عامله بالمجاملة، وأما الآخر فيريد به أنور باشا. ومن هنا نقرر أنه أراد أن يستغل لهجة الخطابات، في الوقت

الذي لم تكن ثمة كلمة جارحة في خطاب أنور باشا. ولو إني اسلّم بأنه لم يكن كله مكتوباً بعبارات المجاملة (انتهى).

هذه صورة لوجهة نظر جمال حول ما جرى في المدينة حال اعلان الثورة. وكان الحسين في مكة يدير الترتيبات النهائية. وكان الأمير عبد الله دائم التنقل بين مكة والطائف، حيث تقرر أن يقوم بدوره فيها، فكان يؤمها للاتفاق مع قبائلها وتزويدهم بالسلاح، ثم يعود إلى مكة ليكون إلى جانب والده ويساعده في ترتيب الخطط.

ولا بد من ايراد ما كتبه رونالد ستورس، عن الفترة التي سبقت اعلان الثورة إذ يقول :

في يوم ٢٣ أيار ١٩١٦ وصلت إلى السير هنري مكماهون برقية من بور سودان هذا نصها: "أن الأمير عبد الله يطلب حضور ستورس إلى الشاطئ العربي على عجل لكي يتقابل معه. الحركة ستبدأ حال وصول فيصل إلى مكة".

غادرت القاهرة في ٢٨ أيار وأخذت معي عشرة آلاف دينار. وفي ٥ حزيران بينما كنت في المدرعة مقابل جدة مع هوغارت وكورنواليس احضر لي عريفان رسالة بامضاء الشريف الأكبر وقد وقعه هكذا: "الحسين أمير مكة المكرمة". ومعنونة اليّ وهذا مضمونها : "تحية واحترام، انني شديد الأسف لعدم تمكني من السماح لولدي عبد الله بالذهاب إليكم لأمور ضرورية سيشرحها حامل رسالتنا لكم، ولكن أخاه سينوب عنه مع أحد أعمامه الشريف شاكر أمير عتيبة، حتى كأنما عبد الله يقابلكم بالذات". وفي الحاشية جاء ما يلي : "أرجوكم أن تأمروا حالاً بالبرق بارسال ٥٠٠ بندقية من ذات النوع الذي وصلنا سابقاً، مع أربعة مدافع كاملة الذخيرة، أما تفاصيل التسليم فعند ولدنا زيد وشاكر".

وسلمني الرسول رسالة أخرى من الأمير عبد الله هذا نصها: "إنني شديد الأسف لعدم تمكني من مقابلتكم شخصياً، لأن أعمالاً هامة تدعوني للبقاء هنا، وعليه فسيحضر أخي إلى عندكم ومعه كل الأخبار. وطلبي

الوحيد منكم أن تقوموا بالحركة في سورية بأسرع وأقوى ما يمكنكم".

وفي مساء ذلك اليوم تقابلت مع زيد وشاكر على الشاطئ، فأبلغني زيد تحيات والده وأخيه، وأبلغته سلام المندوب السامي ورسائله، ثم تحادثنا عن قرب إعلان الثورة، فأكد لي ان الحركة ستبدأ قريباً، وزاد على ذلك بأن قال أنها قد بدأت فعلاً حول المدينة المنورة. وفهمت أخيراً أن أكثر ما يخشاه الشريف حسين وأولاده هو تخلي بريطانيا عنهم أو تقصيرها بامدادهم بالعتاد. فأكدت له أن بريطانيا بحاجة ماسّة لحركتهم وأنها ستمدّهم بكل ما يحتاجون إليه، لأن في ذلك مصلحتها الخاصة ومنفعتها. ودلّلت على ذلك بأنه وردت إليّ برقية من مصر في ذلك اليوم جاء فيها : أن الحكومة البريطانية مستعدة أن تدفع مبلغ ٥٠ ألف ليرة للشريف الأكبر وعشرة آلاف ليرة أخرى للأمير عبد الله حال إعلان الثورة رسمياً. ثم عدنا بعد أن أوصيت اميرال الاسطول أن يقدم كل مساعدة ممكنة ودون أي ابطاء[١].

وهكذا أعلن الحسين الثورة وغرضها الأساسي أن يصل العرب إلى استقلالهم بمساعدة بريطانيا، التي كان يثق بأقوال رجالها ثقة مطلقة لا حدّ لها.وكان يعتقد أن المواثيق التي بينه وبين بريطانيا تبرّر إقدامه على هذه المغامرة الجريئة، وتعريض نفسه وبلاده لجميع ألوان التضحيات في سبيل المثل الأعلى الذي كان يهدف إليه.

***

نعود إلى الحركات الحربية التي دارت ساعة إعلان الثورة في مكة. فقد بدأ العرب باطلاق الرصاص على ثكنة جرول. وكان الجنود في الساحة يقومون بتمريناتهم الرياضية المعتادة بدون سلاح أو استعداد، إذ لم يكن عندهم أي علم بالحركات الدائرة حولهم. وكان يتولى قيادتهم بكباشي اسمه درويش بك. وحينما رأى هذا أن موقف جنوده حرج، خاطب القصر الشريفي بالهاتف سائلاً عن السبب الذي أدى إلى هذا الهجوم. فأجابه الشريف: إن العرب لا يرضونكم حكاماً عليهم بعدما قتلتموهم وأهنتموهم

---

(١) رونالد ستورس، المشرفيات، مصدر سابق، الصفحات ١٨٠ – ١٨٨.

وعاديتموهم، فأجابه: ما دام الأمر كذلك فأرسل من قبلك مأموراً مدنياً لكـــي نسلمه السلاح والجنود، فنحن لا نريد إراقة الدماء.

وأجاب الحسين الطلب، وأرسل الشريف شرف عبد المحسن البركاتي، لمقابلة درويش بك، واستلام الثكنة ومن فيها. فقال له هذا : لا بد من دخول الجند إلى الثكنة لإتمام عملية التسليم، ولما كان ذلك غير مستطاع قبل أن يكف الثوار عن اطلاق النار ويرفعوا الحصار، فأرجوك الايعاز اليهم بالانصراف فندخل سوية ونجري العملية المطلوبة. فانخدع الشريف وأمر الثوار بالتفرق، فدخل الجند الثكنة فوراً وتقلدوا سلاحهم، وأخذوا أهبتهم للقتال. وحذّر أحد الضباط العرب الشريف فنجا بنفسه.

وفي صباح اليوم التالي، هجم العرب على (باش قرة قول) الواقع حول الصفا، واستولوا عليه عنوة. وفي اليوم الثالث حمل العرب حملة شديدة على الحميدية حيث كان وكيل الوالي، واستولوا عليها عنوة وأسروا من فيها. ولما وصل وكيل الوالي إلى دار الأمارة واطلع على حقائق الامور أرسل كتابين بخط يده الأول إلى قائد ثكنة جرول، والثاني إلى قائد قلعة جياد، يخبرهما بما كان من أمره وأمر جنوده، ويطلب منهما أن يسلّما للعرب حقناً للدماء، فرفضا ذلك. وجعلت القلعة تشدد اطلاق القنابل والرصاص على الكعبة، بصورة متوالية حتى لم يكن مستطاعاً لأحد أن يدخلها للصلاة، كما ألقوا وابلاً من الرصاص على قصر الحسين، وأصابت قنبلة أحد عقود الأروقة في الكعبة. وبالصدفة وقعت على اسم عثمان بن عفان فأزالته، فكان هذا فألاً على زوال دولة آل عثمان. وأخيراً وصلت المدافع التي غنمها العرب في جدة فاستعانوا بها على ضرب الحامية التركية، وسلطوا نيرانهم على القلعة فدمروها، ثم اقتحموها يوم الثلاثاء ٤ رمضان (٤ تموز) وأسروا حاميتها، وغنموا فيها ثلاثة مدافع جبلية ومدفعين من العيار الكبير، وكمية كبيرة من الذخائر والعتاد. وقد دام حصارها خمسة وعشرين يوماً.

وتحولت المدفعية بعد استسلام حصن جياد إلى قلعة جرول. وبعد ضربها أربعة أيام متوالية هاجمها العرب بالسلاح الأبيض، فاستسلم رجالها

رويداً رويداً، إلى أن تم اقتحامها في مساء يوم الأحد ٩ تموز، واسروا حاميتها وجردوها من السلاح. ولكن الشريف اصدر أمراً خاصاً بابقاء جميع أمتعة الجنود الخاصة وأموالهم وجيادهم. وقد قتل من الترك ٢١ وجرح ٧٦ جندياً وكان عدد الأسرى ٣٠ ضابطاً و ١٢٠ جندياً. وبذلك تطهرت مكة المكرمة من السلطات العثمانية.

كانت جدة أول مدينة استسلمت للعرب فقد هاجمها الشريف محسن بن احمد منصور صباح يوم الأحد ١١ حزيران، وهو على رأس أربعة آلاف مقاتل من قبائل حرب. وكانت الحامية العثمانية مجهزة بالمدافع والرشاشات فلم يكن من السهل أن يستولي عليها العرب دون مساعدة وتحصّنت الحامية في شمال المدينة وجنوبها. وفي اليوم التالي ضرب الاسطول الانكليزي مراكز الأتراك بالمدافع، وكان الاسطول مؤلفاً من الدارعة هاردنغ والطراد فوكس والبارجة دفران.

ولم تطل مقاومة الأتراك، فرفعت الحامية راية التسليم في ١٦ حزيران. وأُنذرت بعدم اتلاف مدافعها وأسلحتها، وبلغ عدد الجنود الذين استسلموا فيها ١٣٤٦ يقودهم ٤٧ ضابطاً، وغنم العرب عشرة مدافع ميدان، وأربعة مدافع جبلية وأربع رشاشات ومستودعاً كبيراً للذخائر والعتاد، فكانت فاتحة طيبة.

وفي يوم ٢٧ تموز استولى العرب على ينبع ورابغ على الساحل. وفي ١٥ آب استولوا على ثغر الليث بين الحجاز واليمن، وعلى ثغر املج وعلى القنفدة بمساعدة الاسطول البريطاني، فدخلت هذه النواحي في طاعة الحكومة الهاشمية.

***

حينما تقرر اعلان الثورة وحُدد ميعادها، غادر الأمير عبد الله مكة إلى الطائف بحجة أنه ذاهب لتأديب عشيرة البقوم المتمردة، فبلغ الطائف في ٦ حزيران، وكان يصطاف فيها الفريق غالب باشا والي الحجاز وقائده العسكري العام، وأركان حربه، مع عدد من جنود الفرقة العسكرية لا يقل عن ثلاثة

آلاف. وكان لدى هذه القوة ما يزيد عن عشرة مدافع من نوع كروب الالماني.

وأحسّ الاتراك في الطائف بما يدبّره الأمير في طي الخفاء، وأيقنوا أن المسألة ليست في تأديب البقوم، فطلب قائد الفرقة الأميرالاي أحمد بك إلى غالب باشا أن يصدر أوامره باعتقال الأمير، إلا أن الوالي رفض ذلك قائلاً: إن اعتقاله يثير القوم علينا ونحن في غنى عن ذلك.

وغادر الأمير الطائف في ٩ حزيران، وكان أول ما فعله أن أمر بتقطيع أسلاك الهاتف وقطع طريق المسافرين إلى مكة. واتجه إلى سفح جبل سواقة ليدير الحركات منه. وأخذت القبائل تتجمع حوله من عتيبة وثقيف وهذيل وسبيع وبني الحارث والبقوم وغيرهم وأخذ الأمير يجهزهم بالأسلحة والعتاد.

وفي منتصف ليلة ١١ حزيران ابتدأ الهجوم على الطائف، فردّت المدفعية التركية على المهاجمين وشتتّتهم. وظل الموقف بين أخذ ورد حتى وصلت شحنة من الأسلحة الجديدة والعتاد، فعاد العرب إلى الهجوم واحتلوا هضبة أم السكارى واستولوا على مدفعين وقضوا على حاميتها التركية. وأسر الحرس رسولاً من غالب باشا إلى قائد الأتراك في مكة ومعه رسالة إليه وإلى قواته جاء فيها: "قاتلوا في مراكزكم ببسالة حتى ترد الامدادات من الشام والمدينة المنورة. قاتلوا كما يقاتل هؤلاء العصاة، واذكروا أسلافكم من آل عثمان ، ولا تهابوا صولة هؤلاء العرب الذين تقدموا بأكمامهم البيض وسداريهم الحمر مستخفين بالموت في سبيل أميرهم. قاتلوهم في سبيل السلطان، والملّة، وإذا رأيتم راياتهم بألوانها الأربعة من خضراء وحمراء وسوداء وبيضاء كالحية المدفونة فاسحقوهم بأقدامكم، ولا توفروا منهم أحداً". ولما لم يكن لدى العرب أية أسلحة ثقيلة فقد اكتفوا بحصار الطائف، إلى أن جاءت بطاريات مدفعية جديدة من مكة، ثم جاءت المفرزة المصرية ومعها أربعة مدافع جبلية بقيادة اللواء سيد بك علي. وبعد ذلك وصلت مدافع هاوتزر فأحاطت بالطائف، وابتدأ ضرب المدفعية مدة عشرة أيام، حتى تغلبت على مدافع الأتراك وأسكتتها وخربت معاقلهم. واستمر الحصار وضرب المدفعية حتى ٢٢ أيلول

إذ استسلم الوالي وأركان حربه وجنوده دون قيد أو شرط. واحتل العرب الطائف رسمياً. وبلغ عدد الترك الأسرى ٨٣ ضابطاً و ١٩٨٢ جندياً. وغنموا مدافع القوة وكمية كبيرة من البنادق والعتاد. وكان بين الجنود فريق من أصل عربي فتطوعوا للقتال إلى جانب اخوانهم العرب. وبتسليم الطائف زال الخطر الأكبر عن الثورة.

***

عندما وصلت أوامر الحسين لنجليه علي وفيصل بتحديد يوم الثورة، قابلا يوم ٣٠ أيار فخري باشا واطلعاه على مضمون برقية أنور للحسين وفيها ما فيها من التهديد والوعيد، وقالا أنه لم يعد باستطاعتهما التعاون وان علي سيرجع إلى مكة. فاعتذر فخري باشا قائلاً إن ما ورد في البرقية كان نتيجة تسرّع، وإنه لا بد من تسوية هذه الأمور في المستقبل. وكان الترتيب على أية حال أن يسافر علي إلى مكة، وعليه فقد غادر المدينة في أول حزيران وتوجه إلى "سيدنا حمزة" حيث معسكر المتطوعين. ورافقه أخوه فيصل لوداعه على أن يرجع بعد سفره، فقضى الأخوان ليلتهما هناك، وفي الصباح التالي ٢ حزيران أرسلا كتاباً مشتركاً إلى فخري باشا وبصري باشا قالا فيه: إن المطالب العربية المعتدلة قد رفضت من جانب الدولة العثمانية، وربما أن الجند الذي تهيأ للجهاد لا يرى أن يضحي لغير مسألة العرب والاسلام، فإن عدم تنفيذ شروط شريف مكة حالاً تعني قطع العلاقات بين العرب والترك. وإنه بعد وصول هذا الكتاب بأربع وعشرين ساعة تكون حالة الحرب قائمة بين الأمتين.

وعلى أثر ارسال الكتاب ركب الأميران مع حاشيتهما و ٢٠٠ هجان باتجاه الطريق الشرقي لمكة، حتى وصلا إلى الخنق فنزلا فيه. ثم غادراه في صباح ٣ حزيران إلى الحسا "بيار علي" ووجّها الرسل إلى القبائل يدعوانها إلى الانضواء تحت لواء الثورة، وما انقضى اسبوع حتى وافاهما نحو ستة آلاف مقاتل، فهاجما السكة الحديدية بين محطة المدينة ومحطة المحيط في ٩ حزيران. ووقعت المعركة الأولى بين العرب والأتراك الذين خرجوا من المدينة لقتالهم. وفي اليوم التالي عاد العرب إلى محطة المحيط ذاتها فخرج فخري باشا لمقاتلتهم على

رأس قواته واستمرت المعركة من الفجر حتى الظهر، وانتهت بتراجع العرب حتى "بير الماشي" لنفاد ذخائرهم، ثم ارتدّوا منها إلى الغدير وفيها افترق الأخوان، فسار فيصل إلى ينبع وبقي علي وحده. وأخذ كلاهما يستعد للنضال ويسلحان الرجال من قبائل حرب وجهينة وبلي ومسروح وبني سالم وغيرها.

وشجع فخري باشا ما لقيه من فوز في المصادمة الأولى، فحمل بقوة كبيرة على جيش الأمير فيصل في منتصف حزيران فاحتل العلاوة وبلغ بير الماشي وهي تبعد ٣٠ كيلومتراً عن المدينة فاحتلّها وحصّنها. أما الأمير فقد وجد من شيخ رابغ حسين بن مبيريك معاكسة، فهاجمه واحتل رابغ وفرّ ابن مبيريك إلى الجبال الوعرة.

وحمل فخري باشا يوم ١٩ آب على جيش الأمير فيصل، فدارت معركة حامية بين الفريقين، انتهت بارتداد الترك بعد أن شتّت العرب سريتين من قواتهم وأسروا منهم ضابطين و ٦٠ جندياً.

ودارت بعد ذلك عدة معارك كان التغلب فيها للترك بسبب وفرة أسلحتهم، وتنظيم جنودهم، وكثرة عددهم، بعكس العرب الذين لم يتدربوا على الحرب النظامية. ومرت على الثورة أيام عصيبة كان يُخشى فيها أن يزحف الأتراك على مكة، ويقضوا على مهد الثورة، خصوصاً وأن الطائرات الالمانية كانت تهاجم قوات القبائل الثائرة فتؤثر في معنوياتها أسوأ تأثير. غير أنه لم يكن في وسع الأتراك الزحف على مكة دون القضاء على قوات علي وفيصل أو حصرها على الأقل، وهو ما لم يكن في طوقهم.

***

عندما أصبحت الثورة حقيقة واقعة سارع الانكليز لاثبات وجودهم. وفي ٢٧ حزيران وصل إلى جدة الكولونيل ولسن حاكم بور سودان مندوباً من قبل الجنرال ونجت حاكم السودان، ويحمل كتاباً إلى الشريف يهنئه بالثورة والاستقلال، ويعرب عن اعجابه به، ويقول أنه من الانكليز الذين يحبون الشرق وأهله وخاصة العرب منذ صغره، وانه ارسل مع هذه التحية قوة بسيطة من قبيل المساعدة مجهزة ببطارية ميدان وبطارية مكسيم وثلاثة آلاف بندقية، وان عدد رجال القوة ٣٢٠ جندياً معهم ٢٤٠ دابة وجميعهم

بقيادة اللواء "سيد بك علي".

وعُيّن الكولونيل ولسن ممثلاً للحكومة البريطانية عند حكومة الشريف، وواسطة لتبادل وجهات النظر بين الحكومتين. وقد قام ببذل المساعدات المدنية والعسكرية حتى وصول البعثة العسكرية الانكليزية بقيادة الكابتن نيوكمب. وأما الجنرال السير ونجت فقد كان مسؤولاً عن إدارة الحركات الحربية في الحجاز (لدى حكومته). وكانت مهمته محصورة بأن يرسل للشريف ما يستطيع من أسلحة وذخائر. وأن يكون مستشاراً له في الشؤون العسكرية(١).

يقول رونالد ستورس في كتابه المشرقيات: "إن الثورة العربية حققت نتيجتين هامتين حال اعلانها: أولاً – انها جعلت امتداد نفوذ الحلفاء في الشرق الأدنى غير محدود براً وبحراً. وثانياً – انها وجهّت القوات البريطانية عبر قناة السويس حيث سدّدت منها مزراقاً فذ من صميم الامبراطورية العثمانية".

وزيادة في الايضاح نجمل هنا النتائج العاجلة التي حصلت حال اعلان الثورة، فيما يلي:

١- حبوط دعوة الجهاد التي اعلنها الخليفة في الآستانة، وخصوصاً في البلاد العربية والهند، وتحويل موقف أهل هذه البلاد من موقف عداء وكره إلى موقف صداقة وعطف ومساعدة (للحلفاء).

٢- انتفاء خوف بريطانيا في مصر وعدن من هجوم الأتراك،وتحويل جيوش الترك في كلا الجبهتين من موقف الهجوم إلى موقف الدفاع. وكانت القوات التركية قد هاجمت مصر في ٢ شباط سنة ١٩١٥ وهاجمت عدن في ٤ تموز من ذات السنة. وكان الاعتقاد سائداً أن الأتراك يحاولون

---

(١) خلف الجنرال ونجت السير هنري مكماهون في أول سنة ١٩١٧ مندوباً سامياً في مصر بالاضافة إلى مركزه الأول كحاكم عام للسودان. وبقي في هذه الوظيفة حتى آذار سنة ١٩١٩. وعندما بدأ زحف الجنرال اللنبي على فلسطين تقرر أن تتم جميع عمليات العرب الحربية من العقبة شمالاً، بالتعاون مع قيادة جيشه، وان تبقى الأعمال الحربية في الحجاز، ضمن اطار التعاون مع الجنرال ونجت في مصر.

معاودة الهجوم. وتبدّل الموقف باعلان الثورة فتقدمت الجيوش البريطانية في شبه جزيرة سيناء. ووقفت حامية عدن موقف الاطمئنان حتى نهاية الحرب.

٣- وهناك أمر ثالث كبير الأهمية لم تعرف عنه معلومات إلا بعد انتهاء الحرب، وهو أمر البعثة العسكرية الالمانية بقيادة البارون فون ستوتزنجن. وكان هذا قد بلغ دمشق في ١٢ نيسان ١٩١٦، وواصل سفره إلى المدينة ومعه قوة تركية بقيادة خيري بك قوامها ٣٥٠٠ جندي مع مدفعية ورشاشات. وكانت أهدافها (١) انشاء محطة لاسلكية في اليمن للاتصال بالجيش الالماني في افريقيا الشرقية ولابلاغه تعليمات برلين (٢) بث الدعاية الالمانية في الصومال والحبشة والسودان ودارفور والهند، وتحريض المسلمين على القيام بالجهاد ضد بريطانيا. (٣) مهاجمة عدن والادريسي والقضاء على البريطانيين في شبه جزيرة العرب. (٤) محاولة نقل فرقة تركية من شواطئ اليمن إلى شواطئ ارتريا والمسافة بينهما أقل من مئة ميل لتشجيع الثورة في تلك الجهات. والمعروف أن وصول هذه الحملة هو الذي دفع بالشريف إلى اعلان الثورة في حزيران. مع العلم بأنه لم يكن ينوي اعلانها قبل نهاية شهر آب، كي يفرغ من انجاز كافة الاستعدادات[1].

وقد جاء في تاريخ الحرب الرسمي في باب الاعمال الحربية في مصر وفلسطين ما يؤيد هذه الاستنتاجات. وعندما عثر الانكليز على بعض الوثائق الخاصة بهذه البعثة في جيوب الالمان الثلاثة الذين قتلهم العرب من رفاق ستوتزنجن يوم هجوم العرب على ينبع- تنفسوا الصعداء وأيقنوا أن الثورة العربية أحبطت خطط المانيا في هذا الميدان. وكتب الكولونيل بريمون قائد بعثة فرنسا العسكرية في الحجاز عن هذه البعثة فصلاً جاء فيه ما يلي: إن الحملة التركية الالمانية المرسلة إلى اليمن ، كانت عظيمة الأهمية، بحيث كان

(١) كان للترك في اليمن فرقتان إحداهما تراقب الادريسي والثانية زحفت في تموز عام ١٩١٥ فاحتلت (لحج) وهزمت القوات البريطانية فيها. ولو وصلت فرقة خيري بك والالمان إلى اليمن لكان محتملاً احتلال عدن رغم مدافع الاسطول.

في مقدورها تعريض قوات الحلفاء للخطر، وأن تملأ البحر الأحمر بالاضطراب، وتجعل المحيط الهندي بؤرة للدسائس الالمانية. ومن حس الحظ أن ثورة الحسين في الحجاز أحبطت هذه الحملة فقدمت للحلفاء بهذا العمل خدمة عظيمة الاهمية.

وقضت الثورة على جميع الاحتمالات من ناحية هذه البعثة، وعاد ستوتزنجن إلى دمشق، وبقي جنود خيري بك في المدينة لتعزيز حاميتها.

– ٢ –

ملاحق الثورة

أعلنت الثورة بعد أن اطلق الحسين رصاصته في مكة، وهجمت قوات العرب على كتائب الترك المنظمة، يملأ صدرها الايمان بالحق، فلم تمض على اعلانها ثلاثة اشهر حتى برهنت على وجودها عملياً بنحو ٦٠٠٠ اسير تركي وكميات كبيرة من المدافع والذخائر الحربية، وبتخليص مدن الحجاز الرئيسية من سلطة الترك عدا المدينة.

وكان للثورة صدى بعيد الأثر في الشرق والغرب. أما الأتراك فقد خانهم الجلد، وراحوا يتهمون بعضهم بعضاً. غير أنهم بعد المفاجأة الأولى صمموا على اخمادها، فأرسلوا الامدادات لحاميتهم في المدينة، حتى صار لهم فيها ما يزيد على ١٥ ألف مقاتل، على امتداد خط سكة الحديد. وراحوا يحثون فخري باشا للقضاء على الثورة. وكان جمال باشا أشد الاتراك كمداً، لأن الثورة اندلعت تحت سمعه وبصره، فألّف وفداً من (أولاد عمنا) قوامه محمد فوزي العظم وعبد الرحمن اليوسف وأسعد الشقيري، سافر إلى المدينة على الفور لمقابلة شيوخ القبائل واقناعهم بموالاة الأتراك. وكان الأتراك يرمون إلى ضرب العرب ببعضهم، والادعاء للعالم أن أغلبية العرب تؤيدهم، وأن الحسين ورجال ثورته أقلية لا يؤبه بها.

وعيّن السلطان الشريف علي حيدر باشا أميراً للحجاز، وكان معروفاً

بتأييده للاتحاديين، فسافر بقطار خاص من الآستانة إلى دمــشق، ثــم قــصد المدينة المنورة. وقد تقرر أن يحط فيها رحاله ويتخذها عاصمة مؤقتــة لــه. فوصلها في أوائل شهر أيلول ١٩١٦ ومعه شقيقه الشريف جعفر باشا.

وأقام الشريف الجديد يبث الدعاية للترك بين العربان، ويوزع الأموال على الشيوخ، ويبعث اليهم بالهدايا ويمنّيهم بالرتب والألقاب. غير أنه لم يتمكن من القيام بعمل حاسم، وبعد أن أقام في المدينة نحو ثمانية أشهر غادرها إلى دمشق ثم إلى لبنان. ولم يتحقق حلم الأتراك بانشقاق العرب على أنفسهم.

وعلى أثر اعلان الثورة، زار قنصلا المانيا والنمسا في دمشق جمال باشا، وتحدثا معه بشأنها، فقال لهما: إنها حركة موضعية بسيطة لا تلبث أن تخمد، وأنه أصدر الأمر إلى قواده في الحجاز ليسرعوا في القضاء عليها. وأنه يأمل أن يزف إليهم بعد بضعة أيام بشرى انتهائها والقبض على الشريف حسين، ليأتي به ويشنقه على أبواب دمشق.

ولم تنشر معلومات رسمية في مصر عن الثورة إلا يوم ٢٢ حزيران.

أما في لندن فقد تأخر اعلان النبأ إلى يوم ٢٨ تموز، فقد أذيع فيه البلاغ الرسمي التالي: منذ سنين والعرب المعذبون بسوء الحكم التركي ينتظرون اليوم الذي يتمكنون فيه من استرجاع حريتهم السابقة، وقد قاموا في الماضي بثورات عديدة ضد الحكم التركي في البلاد العربية.

وقد أدّى سوء تصرف الحكومة الحالية في الآستانة وخضوعها التام لسلطة الالمان، إلى دخول تركيا مضطرة في حرب مشؤومة أوصلت الأحوال فيها إلى أقصى درجة من السوء. فرأى شريف مكة وغيره من زعماء البلاد العربية أن الأوان قد آن لخلع النير التركي عن اعناقهم والمناداة باستقلالهم.

وكانت بريطانيا العظمى تعطف دائماً على العرب، ولكن صداقتها التقليدية لتركيا، اضطرتها في الماضي إلى البقاء على الحياد. أما الآن وقد

انضمت تركيا إلى صف الدول الوسطى، فقد اصبحت بريطانيا العظمى حـرّة في اظهار عطفها على العرب، الذين انخرطوا في عداد الحلفاء ضـد العـدو المشترك.

على أن بريطانيا ستبقى محافظة على سياستها السابقة في الابتعاد عن أية مداخلة في الشؤون الدينية، وعلى بذل غاية جهدها في إبقاء الأماكن المقدسة أمينة من كل طارئ خارجي. ومن القواعد الجوهرية في سياسة انكلترا، التي لا تقبل التغيير والتبديل، أن تبقى هذه الاماكن المقدسة في أيدي حكومة اسلامية مستقلة.

ولا يخفي أن أحوال الحرب الحاضرة، تلقي العقبات الكثيرة والاخطار في سبيل الذين يرغبون في القيام بفريضة الحج. ولكن العمل الذي قام به شريف مكة يجعل الأمل كبيراً في اتخاذ التدابير اللازمة، التي تمكّن الحجاج في المستقبل من زيارة الاراضي المقدسة بسلام واطمئنان اه.

وكما قوبل اعلان الثورة بالارتياح في بريطانيا فقد قوبل كذلك في فرنسا. وأسرعت الحكومة هناك إلى تأليف وفد من عرب افريقيا الشمالية، فسافر إلى جدّة يوم ١٦ ايلول ١٩١٦ على رأس عدد كبير من الحجاج. وقد حمل رئيسه قدور بن غبريط كتاباً رقيقاً من المسيو بوانكاره رئيس الجمهورية الفرنسية إلى الشريف الحسين، مع مليون وربع مليون من الفرنكات سلمها الكولونيل بريمون مندوب فرنسا في الحجاز إلى الشريف محسن بن احمد منصور في جدّة مع هدايا خاصة إلى مكة.

وتبادل الحسين وبوانكاره برقيات الشكر والتأييد

وفي حفل استقبال وفود شمالي افريقيا، خطب رؤساء الوفود مهنئين الحسين ومشيدين بهذه الخطوة المجيدة، فأجاب الحسين على خطبهم بخطاب مرتجل جاء فيه: –

إن نهضتنا إنما قامت لتأييد الحق ونصرة العدل، واعزاز كتاب الله واحياء سنّة رسوله، ولم أرد لنفسي زيادة جاه وثروة في هذه الدنيا بعد أن

كنت حاصلاً على كل شيء. ولو أردت الدنيا مع المسايرة في اغماض العين عما يستلزمه حق الإنسانية والاصلاح – لما امتنع عليّ شيء منها.

إن الغضب للحق، والغيرة على سلامة البلاد وأهلها، هو الذي حملني على الجهاد بالنفس والولد والقوم، لصيانة كل ما يزيدنا قرباً من رحمة الله ورضاه. وأن أعظم غاياتنا هي المحافظة على كياننا القومي والديني.

وخطب الحسين مرة أخرى في حفلة عيد الأضحى التي جرت بعد ذلك بأيام، رداً على خطبة ألقاها الشيخ رشيد رضا، جاء فيها : –

"إن وجودنا السياسي مكفول لنا بالاستقلال التام الذي لا تشوبه شائبة. ولو أن هذا العمل الذي أعتقد فيه كل الصلاح لقومي وبلادي وديني، يعترضه أحد بسوء ولو كان أولادي، لصلبته بيدي غير آسف عليه. لاني أحب بلادي وديني أكثر من كل شيء في الوجود. ولولا هذه المحبة لما نهضت هذه النهضة. وسأبقى مستمراً في خطتي غير متزعزع فيها ولا متحول عنها حتى يقضي الله أمره.

إن هذه النهضة عربية تشمل كل عربي كائناً من كان. على شرط أن يكون صادقاً لوطنه مخلصاً لقومه".

لم تقابل الثورة العربية بارتياح من ابن الرشيد والامام يحي. ولكن أمراء العرب الآخرين في الجزيرة استقبلوها بالاستحسان وبرهنوا على ذلك في اجتماع عقدوه في الكويت يوم ٢٠ تشرين الثاني حضره الأمير عبد العزيز آل سعود وأمير الكويت وشيخ المحمّرة وأكثر من مئة وخمسين زعيماً بينهم شيوخ عشائر كبيرة. وقد تكلم ابن سعود فدعا العرب إلى الانضمام تحت راية الثورة. وان لا يدخروا جهداً في توطيد العلاقات مع انكلترا.

وكان لا بدّ للحسين من اذاعة بيان على العالم العربي خاصة والاسلامي عامة. ولهذا قام بوضع منشور بسط فيه الأسباب التي دعته لاعلان الثورة بسطاً وافياً. وقد دلّ على عمق نظر ودراية، ووضعه بنفسه مسجلاً فيه جميع المراحل التي مرّت بالعرب قبيل الحرب وفي أوائلها. ويجدر بكل عربي يودّ أن

يتفهم تاريخ قومه أن يدرس هذه الوثيقة التاريخية الهامة. وقد تم طبعه يوم ٢٥ شعبان ١٣٣٤ الموافق ٢٦ حزيران ١٩١٦، وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

منشور عام من شريف مكة واميرها إلى جميع اخوانه المسلمين

"ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين"

كل من له إلمام بالتاريخ، يعلم أن أمراء مكة المكرمة، هم اوّل من اعترف بالدولة العلية من حكام المسلمين وامرائهم، رغبة منهم في جمع كلمة المسلمين واحكاماً لعرى جامعتهم، لتمسك سلاطينها من آل عثمان العظام بعروة الايمان بكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه، ولبناء أحكام دولتهم على الشريعة الغراء. ولنفس تلك الغاية السامية الرفيعة ما زال الأمراء المشار إليهم يحافظون عليها، حتى إنني حملت بالعرب على العرب بذاتي في سنة ١٣٢٧ لفك حصار أبها، محافظة على شرف الدولة. وفي السنة التي تلتها كان مثل هذه الحركة تحت قيادة ابنائي، إلى غير ذلك مما هو في المعنى مشهود ومعهود – إلى أن نشأت في الدولة جمعية الاتحاد وتوصلت للقبض على ادارتها وجميع شؤونها بقوة الثورة. فحادوا بها عن سراط الدين، ومنهج الشرع القويم. ومهدوا السبل للمروق منه واحتقار أئمته – وسلبوا شوكة السلطان المعظم ما له من حق التصرف الشرعي والقانوني أيضاً، وجعلوه هو ومجلس الامة ومجلس الوكلاء منفذين للقرارات السرية لجمعيتهم الثورية. وأسرفوا في أموال الدولة وحمّلوها الديون الفاحشة، التي لا يخفى أمر خطرها ووخامة عاقبتها على أحد. وأضاعوا عدة ممالك كبيرة من ممالكها. ومزقوا شمل الأمة

العثمانية، بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية بالقوة القاهرة، فأوقعوا بينها وبين العنصر الذي أرادوا تسويده عليها وادغامها فيه : العداوة والبغضاء وخصّوا العرب ولغتهم بالاضطهاد.

ولم يكتفوا بذلك كله حتى خاضوا بالدولة والأمة غمرات هذه الحرب الأوروبية الساحقة الماحقة. فوقفوا بالدولة موقف الهلكة، وألقوا بأيديهم إلى التهلكة، واستنزفوا باسمها ثروة الأمة، كما استنزفوا قبلها ثروة الدولة، ثم اتخذوها ذريعة للفتك بجميع المخالفين لرأيهم في سياستهم الخرقاء، وادراتهم الظالمة، وللتنكيل بالعرب خاصّة، حتى أن حرم الله سبحانه وحرم رسوله الأعظم صلى لله عليه وسلم، لم يسلما من شرّهم فانهم عرضوهما للخوف والخراب. اما انحرافهم عن صراط الدين، فلا نأخذ فيه هنا بمجرد ما اشتهر عن زعمائهم من الكفر والالحاد في الصحف الاسلامية والاوروبية، ولا بما نعلم عن سوء اعتقاد جمهور علماء الآستانة وغيرهم فيهم. بل نأخذ فيه بأقوالهم وأفعالهم. فمن باب الأقوال ما نشروه في دار السلطنة من الكتب والصحف التي جاهرت بالطعن في الإسلام، وانتقاص ما عظم الله تعالى من قدر خاتم رسله، وقدر خلفائه الراشدين الكرام. ككتاب (قوم جديد) الذي اشتهر بما فيه من الكفر والضلال، وتحريف نصوص الكتاب العزيز والسنّة السنية ومجلة (اجتهاد) التي شوهدت أجمل سيرة في الخلق وأشرفها. وهي سيرة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه. ولا يمكن أن تنشر أمثال هذه المطبوعات في دار السلطنة على مرأى ومسمع من شيخ اسلامها وعلمائها ومن رجال السلطنة ووزرائها، لولا أن الجمعية هي الناشرة لها، وما بالنا نرى من ينتقد جمعيتهم ولو بحق يعاقبونه بالقتل أو النفي أو السجن المؤيد، ومن يطعن في دين الله وصفوة خلقه يعزّز ويكرم.

ومن باب الأعمال: انهم ابطلوا ما كان محتماً على تلاميذ المدرسة الحربية وغيرها، وعلى جميع العسكر من التزام الصلاة. فجلعوا الصلاة في نظامهم العسكري اختيارية غير واجبة، توسلاً بذلك إلى ابطالها بالفعل. وقد جعل كتاب (قوم جديد) لدينهم أركاناً لا صلاة فيها ولا صيام ولا حج. ثم جاءت

أوامرهم في أثناء هذه الحرب إلى الجود المقيمين في مثل المدينة المنـورة أو مكة المكرمة أو الشام تحتم عليهم الافطار في رمضان، بعلّة المساواة بيـنهم وبين الجنود الذين يقاتلون في حدود الروس. ولفقوا أقاويل لمعارضة الـنص الصريح الذي لا يقبل التأويل، وهو قوله عز وجل "فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر". بل شرعوا في ابطال أحكام الشريعة المنصوصة في القرآن الكريم، المجمع عليها، المعلومة من الدين بالضرورة. وقد يعدّ من هذا القبيل ما ورد أخيراً إلى قاضي محكمة مكة الشرعية، بـأن لا يحكـم إلا بالشهادة التي تحررت في محكمته وبين يديه، والا يلتفت إلى الشهادات التـي يكتبها المسلمون فيما بينهم. غير مبالين بما في آية البقرة. ومـن اسـتحلالهم لقتل المسلمين والذميين بغير محاكمة شرعية ولا حكم. أو بأحكام عرفية مـا أنزل الله بها من سلطان. واستحلال مصادرتهم، وسلب أموالهم، واخراجهم من ديارهم. وسيأتي شيء من شواهد ذلك فـي المنـشور، ولا يمكـن إحـصاء جرائمهم ولا بدعهم واحداثهم في الإسلام. ومن اغربهـا مـشروع سـجلات المستشفعين الذي قرره شيخ اسلامهم الـسابق وأصـدر بـه إرادات سـنية، وقصاراه بيع الشفاعة النبوية لطالبها بليرة عثمانية. وكتابة اسماء المـشترين للشفعة في سجلات تودع في الحرم النبوي الشريف.

وأما سلبهم ما للسلطان المعظم من حق التصرف الشرعي، وكذلك القانوني، فهو مما لا يجهله أحد من أهل العاصمة، وأهل المعرفة، في جميع أقطار المملكة، ولا من الاجانب أيضاً، حتى أنه لا قدرة له على اختيار رئيس الكتاب (المابين) في سلطته الشريفة، ولا رئيس خاصته المبجلة المنيفة. فضلاً عن اختيار الصدر الأعظم وشيخ الاسلام. فضلاً عن النظر في أمور المسلمين ومصالح العباد والبلاد. وقد اسقطوا بهذا بقايا شروط الخلافة، التي يطالب بها المسلمون كافة. إذ يجب أن يكون لهم إمام خليفة شرعي مستقل قادر على التصرف في إقامة الشرع ورفع لواء العدل.

وأما اسرافهم في أموال الدولة، وارهاقها بالقروض الفاحشة، فأمره معلوم للخاصة والعامة. وكذلك أضاعتهم لعدة ممالك من الدولة – كمملكتي

البوسنة والهرسك، والممالك الألبانية، والمكدونية، وطرابلس الغرب، وبرقـــة. وكذلك اثارة الأحقاد الجنسية الممزقة لشمل الأمة العثمانية. وبهـــذه الـــسياسة السوأى أضاعوا المملكة الألبانية، وفقدوا الشعب الارناؤوطي الباسل، الـــذي كان سياجاً للدولة أمام البلقان. وهي التي حملتهم على ما اشتهر خبره في هذه الايام من الفتك بالأرمن، من رجال ونساء وأطفال، فأين هذا إن صحّ عـــشر معشاره،من قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم: "من آذى ذميّـــاً فأنـــا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة". رواه الخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود. وفي الوصية بحقوق أهل الذمة والعهد، أحاديث الـــصحاح والسنة. ومن الأحاديث المخيفة في هذا الباب ما رواه الطبراني مـــن حـــديث جابر "إذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو". وإن كان في سنده ضعف، فإن متنه في غاية القوة تؤيده السنن الاجتماعية.

وأما ما خصّوا به العرب ولغتهم من الاضطهاد، فهو أعظم ما جنوه على الدين والدولة من الفساد. حاولوا قتل اللغة العربية في جميع الولايات العثمانية بابطالها من المدارس ومن الدواوين والمحاكم. وأصدروا في ذلك أوامر كثيرة لقيت من مبعوثي العرب معارضات شديدة، ونفّروا عنها في كتبهم الجديدة. والّفوا لذلك الجمعيات الكثيرة. ولا يخفى أن قتل اللغة العربية قتل للاسلام نفسه، فالاسلام في الحقيقة دين عربي، بمعنى أن كتابه أنزل باللغة العربية، وجعل متعبداً بتلاوته وتدبره، لا بمعنى خاص بالعرب. فمن المعلوم من الدين بالضرورة أنه عام لجميع الامم، وقال الله في سورة الرعد "وكذلك أنزلناه حكماً عربياً".

وقد أمكنتهم فرصة اعلان الاحكام العرفية في البلاد، من تنفيذ كل ما يريدون في العرب فطفقوا يقتلون ويصلبون كبراء ونوابغ رجال النهضة العربية، الذين اشتهروا بغيرتهم على الأمة والدولة من أرباب المعارف والأفكار، وحملة الأقلام وبارعي الضباط . وآخر ما وصل الينا من أخبارهم في بلاغاتهم الرسمية أنهم صلبوا في الشام ٢١ رجلاً في آن واحد. وانه ليصعب على كثير من ذوي القلوب القاسية ازهاق مثل هذا العدد الكثير من الأنفس،

لأجل الانتقام. ولو كانت من الدواب أو بهيمة الانعام. وانما يقلتــون أمثــال هؤلاء جهراً ويصلبونهم في الشوارع العامة صلباً، حتى لا يطمح عربي بأن يقول أن لغتنا لغة الاسلام، فيجب على الدولة الاسلامية الكبرى مساعدتنا على حفظها، وأن لنا في المملكة حقوقاً شرعية وقانونية يجب علينا المطالبة بهــا. وأما من يقتلون رمياً بالرصاص بعلل عسكرية، ومن يقتلــون اغتيــالاً فــي السجون والشوارع، فلا سبيل إلى العلم باخبارهم إلا اجمالاً. وأنه ليعزّ علــى كل انسان أن يرضى لقومه أو لغيرهم من أبناء جنسه، بأن تكــون دمــاؤهم مهينة غير محترمة إلى هذا الحد، وقد عظّم الاسلام أمر احترام الدماء، وجعل من يتعمد القتل خالداً في النار.

ثم أنهم صادروا أموال من لا يحصى من الناس، وعمدوا إلى كثير من الأسر الغنية أو المغضوب عليها لأسباب سياسية، فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وعقارهم، وأبعدوهم عن نسائهم وأطفالهم، إلى بلاد الاناضول، بلا كافل شرعي. وهتكوا حرمة المخدرات من النساء المؤمنات، اللواتي لا يعرفن السياسة. وعرضوا أطفالهن للهلاك بين أيديهن، في طريق النفي الطويل، الذي لا يجدن فيه الكفاية من القوت، والأسباب الواقية من البرد أو الحر. والله تعالى يقول "ولا تزر وازرة وزر أخرى". والظاهر أن الغرض من هذا أن يكون من يسلم من الهلاك من هؤلاء النساء والأطفال كالأماء والعبيد، للترك في الأناضول. ولا بد من أن ينسى الأطفال لغتهم هناك فيكونوا أتراكاً، تعمر بهم بلاد الترك. ولعلهم يريدون أن يأتوا بترك يحلّون محل هؤلاء المنفيين، فيسهل جعل البلاد السورية كلها تركية.

ولم يكتفوا بالتنكيل بالاحياء تقتيلاً وتصليباً ومصادرة ونفياً، بقساوة على الاطفال والمخدرات تتفطر لمجرد تصورها القلوب، وتذهب الانفس حسرات – بل وصل حقدهم على العرب إلى اهانة الأموات، فتجرأوا على قبر الأمير المجاهد الشريف عبد القادر الحسني باهانته وتحقيره.

أي مسلم، بل أي بشر يرضى لقومه بمثل هذا الظلم والخسف، وقد جعل الله أمر نفي المرء من وطنه مقارناً لأمر قتاله ليرتد عن دينه، وسبباً

لمشروعية القتال. فقال تعالى في تعليل الاذن بالجهاد "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق". الآية. وقال في شأن معاملة غير المسلمين بالعدل والبر والأحسان. "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبروهم وتقسطوا اليهم. إن الله يحب المقسطين. انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فاؤلئك هم الظالمون".

وأما نصيب الحجاز وسكان الحرمين الشريفين من هذه الارزاء، فلو سكتنا على ما كان من بوادره وأوائله. لطغى مدّه حتى لا يعلم إلا الله أين سيكون حدّه. ساقوا إلينا الألوف الكثيرة من جنودهم المنظمة، مستكملة الاسلحة والذخائر. وهم يعلمون كما نعلم أن الحجاز لا يهاجمه أحد من الدول المحاربة حتى يحتاج إلى قوة مدافعه. وأنهم في أشد الحاجة إلى هؤلاء الجنود في ميادن القتال. فلم يبق إلا أنهم يريدون أن يفعلوا في الحجاز ما فعلوا بسوريا والعراق ليتم لهم القضاء على الامة العربية في عقر دارها، وموطن منعتها وعزها وفخارها، ويذيقوا هذا الحرم الذي جعله الله آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء، ما أذاقوا جنة الدنيا (الشام) من الجوع والخوف، وسلبوا ما من الله عليه وامتنّ به على سكانه في كتابه العزيز، فكان وجود هذه الجنود سبباً لمنع ورود الاقوات على الثغور الحجازية وعليها مدار معيشة البلاد، وسبباً لمنع ورود الحجاج عليها، ولا كسب لاهلها إلا منهم. فاشتد الضيق حتى اضطر كثير من أبناء الدرجة الثانية من الاهالي إلى بيع أبواب بيوتهم، وخشب سقوفها بعد بيعهم لجميع ما يملكون، لاجل الحصول على سدّ الرمق، وصار من المحتم عليّ دفع أسباب الهلاك عن قوم جعلني الله راعياً مسؤولاً عنهم، وأسباب منع سواد المسلمين الأعظم عن إقامة ركن من أهم أركان دينهم. ولو كان ذلك البلاء في سبيل الدفاع عن الأوطان، أو المصلحة الراجحة للاسلام لتحملته البلاد بالافتخار، ولساوى فيه الشرفاء والموسرون غيرهم ولو بالاختيار، ولكنه كما أسلفنا ضد مصلحة الإسلام والوطن.

فيا أيها الاخوان المسلمون

إننا قد وصلنا إلى حال من الخطر لم يسبق لها في الإسلام نظير – كان لنا دول عزيزة قوية أفضلها دول اسلافنا العربية، وقد ورثتها هذه الدولة العثمانية فكنا نحن العرب أحرص الناس على حياتها على كونها هي التي خذلت اللغة العربية وانتحلت لنفسها منصب الخلافة دون الدول التركية والكردية قبلها. وكنا نحن امراء مكة وشرفائها، اخلص زعماء العرب وغيرهم لها، على حرمانها بلادنا مهبط الوحي والعرفان من علوم الدين والدنيا. كل ذلك حرصاً منا ومن العرب كافة على أن يكون للاسلام دولة قوية تحفظ استقلاله، وتنفذ شرعه، ولو في الجملة.

وقد صار أمر هذه الدولة إلى جمعية اغتصبت آل عثمان الكرام، ملكهم بقوة الثورة، وجعلته في أيدي زعانف ليس لأكثرهم في الشعب التركي الاسلامي أصل راسخ، ولا في الإسلام علم صحيح وعمل صالح. كأنور باشا وجمال باشا وطلعت بك، فكان من سوء تصرفهم فيها وفينا ما اجملناه لكم في هذا المنشور، وقد كانت مقاومة اخواننا الترك لهم أشد من مقاومة العرب. وأما نحن فكنا كلما سمعنا أو رأينا شيئاً من هجماتهم على الإسلام، ندفعه بالتأويل. إلى أن اعيانا التأويل. وكلما علمنا بجناية منهم على الدولة أو على العرب نقول لعلّه ذنب عارض يرجعون عنه بعد قليل. ولا نستحل مقاومتهم لأجله لئلا يترتب عليه صدع في الدولة، ويزيد له ما يريدون من التفرقة بين العرب والترك. حتى انني ساعدتهم على مقاتلة قومي، ومقاومة ابناء ابي وأمي، فلم يرضهم كل ذلك من العرب ولا مني.

ولما رأيناهم عرّضوا استقلال هذه الدولة التي نحرص عليها للزوال ولم يبقوا على كرامة الدين ولا على احكام الشرع، ولا على استقلال السلطان. ولم يبق من سبب نحتمل لأجله منهم هذا الخسف والهوان. فلما وصل الينا سيل طغيانهم في حرم ربنا الذي اكرمنا بخدمة بيته واقامة دينه، وحرم جدّنا ورسولنا عليه الصلاة والسلام، الذي نحفظ من حديثه الصحيح "إذا ذلت

العرب ذلّ الاسلام". اضطررنا إلى مقاومة بغيهم من اسلم الطرق، وهي حصر جنودهم في معاقلها، من غير أن نبادئهم بقتال، فمن سلّم سلم، ومن قاتلها كانت جنايته على نفسه، فما كان من حاميتهم بمكة إلا أن فعلت ما يعدّ برهاناً على ما تكنّ صدورهم للدين والعرب، وهو رميهم للبيت العتيق الذي اضافته العزة الأحمدية لذاتها العليّة في قوله تعالى " وطهر بيتي للطائفين " وهي قبلة المسلمين وكعبة الموحدين: بقنبلتين من قنابل مدافعهم التي بحصن – جياد– عندما علموا بقيام البلاد مطالبة باستقلالها. وقعت احداهما فوق الحجر الأسود بنحو ذراع ونصف، والثانية تبعد عنه بمقدار ثلاثة أذرع. فالتهبت بنارها استار البيت حتى هرع الألوف من المسلمين لاطفاء لهيبه بالضجيج والنحيب واضطروا إلى فتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من اطفاء اللهيب. وما أن انتهى أمرهم بهذا حتى عززوا الاثنتين بثالثة، وقعت في مقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام. هذا عدا ما وقع من القذائف في بقية المسجد، الذي اتخذوه هدفهم الوحيد في غالب مقذوفاتهم بالقنابل والرصاص. وما زالوا يقتلون الثلاثة والاربعة في نفس المسجد كل يوم حتى تعذّر على العباد التقرب من الكعبة المشرفة. وفي هذا من الاستخفاف بالدين، وازدراء ببيت الله تعالى، والالحاد فيه، ما نترك القول والحكم فيه أيضاً لجماعة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها، بعد تذكيرهم بقول الله عز وجل "ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم". وتذكيرهم بأن الجاهلي كان يرى قاتل أبيه في هذا البيت فلا يمسه بسوء – نعم– نترك الحكم في هذا الاستخفاف والازدراء للعالم الاسلامي، ولكنا لا نترك مشاعر ديننا وشعائره ألعوبة في أيدي الاتحاديين، ولا نبيح لهم التصرف في حرم الله وحرم رسوله ما استباحوا في ديار الشام ولا في الآستانة نفسها، ولا نسكت لهم بعد على شيء من بغيهم على أحد من أبناء جنسنا. إذ لم يعد في السكوت مصلحة راجحة: لا لدين ولا لدولة. بل صارت المصلحة الاسلامية والعربية – وهما متلازمتان – في مقاومة هذه الفئة الباغية.

ولما كان أمر حماية الحجاز من هذا البغي والعدوان، واقامة ما فرضه

الله فيه من شعائر الاسلام. ووقاية العرب والبلاد العربية من عاقبة الخطر الذي استهدفت له الدولة العثمانية، بسوء تصرف هذه الجمعية الباغية – كل ذلك لا يتم تداركه إلا بالاستقلال التام، وقطع كل صلة بكل هؤلاء المتغلبين السفاكين للدماء، الناهبين للأموال، فقد هبّت البلاد بتوفيق الله تعالى للنهوض بأمر استقلالها، بعد أن ضربت على أيدي عمال الاتحاديين ورجال حامياتها، فاستقلت فعلاً وانفصلت عن البلاد التي لم تزل تئن تحت سلطة المتغلبين من الاتحاديين انفصالاً تاماً مطلقاً، بكل معاني الاستقلال الذي لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية، ولا تحكم بينهم وبين جميع من يدخل في حوزة استقلالها من المخالفين. قائمة في كل اعمالها على أساس احكام الشرع الشريف الذي لا يكون لنا مرجع سواه، ولا مستند إلا اياه، في جميع الاحكام وأصول القضاء وفروعه، مع استعدادها لقبول ما ينطبق على أصول الدين ويلائم شعائره من أنواع فنون الترقي الحديث وأسباب النهضة الصحيحة، باذلة كل ما في الجهد والطاقة لاعزاز العلم وتعميمه بين الناس على اختلاف الطبقات وعلى حسب الحاجة والاستعداد.

هذا ما قد قمنا به لاداء الواجب الديني علينا. راجين من اخواننا المسلمين في مشارق الارض ومغاربها، أن يؤدوا كذلك ما يرونه واجباً لنا عليهم، من إحكام روابط الاسلام والتناصح على البر والتقوى. وليعلموا اننا قمنا بما قمنا به ونحن نعتقد اعتقاداً راسخاً انه أفضل خدمة للاسلام، إذا لم تتحقق به اكبر اماني المسلمين الصادقين حتى الترك منهم، فإنه لا ضرر فيه يوازي عشر معشار الضرر في تركه. وستظهر لهم الأيام حقيقة ذلك، فليصبروا إن الله مع الصابرين. والله نسأل وبحبه وبحب رسوله نتوسل، أن يتولانا بالتوفيق ويمدّنا بالهداية إلى ما فيه خير الاسلام والمسلمين. والاعتماد على الله العلي الكبير. وهو حسبنا ونعم المصير.

شريف مكة وأميرها

الحسين بن علي

إن هذا المنشور هو أول وثيقة تصدر عن الملك حين لتعطي أسباب الثورة العربية. ويمكن تلخيص النقاط الأساسية التي وردت فيه، كما يلي :

١- كان الشريف حسين مخلصاً للدولة العثمانية، إلى حدّ أنه حمل السلاح وخاض الحرب في عسير، ضد قوات عربية، من أجل الحفاظ على سيادة الدولة ووحدتها.

٢- إن الانقلاب العسكري الذي قام به الاتحاديون، كان بداية سلسلة الأحداث التي أدّت إلى استياء العرب ونفورهم. فالاتحاديون ساروا على سياسة عنصرية "ومزّقوا شمل الأمة العثمانية، بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية بالقوة القاهرة... وخصّوا العرب ولغتهم بالاضطهاد". بل إنهم عملوا على قتل اللغة العربية، فألغوا التعليم بها في المدارس وألغوا استعمالها في دوائر الحكومة. "ولا يخفى أن قتل اللغة العربية قتل للاسلام نفسه".

٣- انحرف الاتحاديون "عن صراط الدين"، واغتصبوا صلاحيات السلطان، خليفة المسلمين.

٤- عمل الاتحاديون على زجّ الدولة العثمانية في حرب نشبت بين دول أوروبا، وبذلك دفعوا البلاد إلى التهلكة.

٥- سلّط الاتحاديون سيف النقمة على العرب، فأعدموا "نوابغ رجال النهضة العربية"، وصادروا أموال الناس، وأخرجوا كثيراً من الأسر من ديارهم إلى بلاد الأناضول من أجل تتريك العرب واذلالهم، على الرغم من الحديث الشريف. "إذا ذلّت العرب ذل الاسلام". وقد امتدّ الاضطهاد إلى الحجاز، فأصاب أهله ضيقُ عظيم، وقصد الاتحاديين من ذلك "القضاء على الأمة العربية في عقر دارها".

٦- نتيجة بغي الاتحاديين، وفسادهم وسوء تدبيرهم، أصبح من المصلحة "الإسلامية والعربية... وقاية العرب والبلاد العربية من عاقبة الخطر" الذي أصبحت تواجهه أقطار الدولة. ومن هنا قامت الثورة نتيجة اعتقاد راسخ بأنها "أفضل خدمة للاسلام"[١].

ولا بد لنا قبل ختام هذا الفصل من نشر قصيرة الثورة التي ألقاها الشاعر العربي فؤاد الخطيب وكان يحرر جريدة القبلة - بين يدي الحسين، بعد اعلان الثورة، لأنها تعد في الواقع من الوثائق التاريخية...

قال الشاعر يخاطب الشريف حسين:

حيّ الشريف وحيّ البيت والعلما ... وانهض فمثلك يرعى العهد والذمما

يا صاحب الهمة الشماء أنت لها ... إن كان غيرك يرضى الأين والسأما

واسمع قصائد ثارت من مكامنها ... إن شئتها شهباً، أو شئتها رجما

من شاعرٍ عربيٍ غير ذي عوجٍ ... قد بارك الله منه النفس والكلما

***

بالله يا دار قسطنطين إن نطقت ... فيك الرسوم وثار البحر ملتطما

واقتصّ منك قضاء الله ثانية ... شرّ القصاص وأمضى فيك ما حكما

أنحو على امة كانت لهم عضداً ... في النائبات ورِدءاً يدفع النقما

وقد سكتّ فلم أنبسْ ببادرة ... جاشت إليّ كأني ما رُزقت فما

وكيف أقعدُ عن ثأرٍ وأندبهم ... ندبَ العجائز حلس الدار مهتضما

هيهات أكتب منذ اليوم مرثيةً ... إلا إذا كان حدُّ السيف لي قلما

---

(١) من المهم أن يعرف القارئ أن الثورة العربية قامت ضدّ الاتحاديين المتعصبين عنصرياً، وليس ضد السلطانِ العثماني - خليفة المسلمين. وقد استمر الدعاء في مسجد الكعبة المشرّفة باسم السلطان سنة كاملة بعد اعلان الثورة. ولم يتم ايقاف الدعاء باسم السلطان إلا بعد أن ثبت أنه مغلوب على أمره. وبقي العرب يعترفون للسلطان بالخلافة على المسلمين، إلى أن ألغاها الاتراك أنفسهم في عام ١٩٢٤.

فمن يكن عن أباة الضيم في صمم فليسمع اليوم صوتاً يحسم الصمما

فقد تكلم صوتُ النارِ مرتفعاً من الحجاز فشقّ البيد والأكما

***

يا ابن النبي وانت اليوم ناصره قد عاد متصلاً ما كان منفصما

والتفّ حولك أبطالٌ غطارفةٌ شم الأنوف يرون الموت مغتنما

فاصدم بهم حدثان الدهر مخترقاً سدّاً من الترك إن تعرض له انهدما

وابتر بسيفك عضواً لا حياة له لولاه لم يكن الإسلام متّهما

إن كان قد ورث المجد المدلّ به عجباً، فلم يرث الأخلاق والشيما

أين المفاخر بن أين المكارم بل أين الحضارة: أمست كلها عدما

وقد تكون على الأيام وارفةً في المشرقين تظل السهل والعلما

وكيف يصدر خيرٌ من بزنطيةٍ والشرٌّ يمسكُ بالانفاسِ محتكما

***

يا من ألحَّ علينا في ملامته بعضَ الملامِ وجربّ مثلنا الألما

لو كان من يسمع الشكوى كصاحبها مضنى، لما ضجّ بالزعم الذي زعما

***

ايهٍ بني العرب الأحرار إن لكم فجراً أطلّ على الأكوان مبتسما

يستقبل الناس من أنفاسه أرجٍ ما هبّ في الشرق حتى أنشرَ الرمما

تلك الحياة التي كانت محجبةً في الغيب لا سأماً تخشى ولا سقما

سارت مع الدهر من بدوٍ ومن حضرٍ حتى استتبتْ فكانت نهضةً عمما

من ذلك البيت، من تلك البطاح على تلك الطريق، مشت أجدادكم قدماً

من كلّ أروع وثابٍ إذا انتسبتْ بيضُ الصوارم كان الصارم الخذما

وانقضّ من عدواء الدار منصلتاً وانفلّ في غمرات الموت مقتحما

لستم بنيهم ولستم من سلالتهم إن لم يكن سعيكم من سعيهم أمما

إلى الشام، إلى أرض العراق، إلى أقصى الجزيرة: سيروا واحملوا العلما

- ٣ -

مرحلة خطرة

أدرك الترك إن انخذالهم في الحجاز وخروجهم منه، سوف يزعزع مركزهم أمام العالم، ويتيح الفرصة الكبرى للشريف حسين لاثبات دعواه بأنه الممثل الحقيقي للمسلمين، وفي هذا ما فيه من الخطر على مركزهم الأدبي، فضلاً عن الاخطار الحربية التي ستنتج عن توحيد جبهات القوات العربية، وزحفها شمالاًن مما يستلزم ايجاد قوات كبيرة لصد العرب، وايقاف زحفهم. وعليه فقد صمموا أن يدافعوا عن مراكزهم هناك بعناد، وأن يقوموا بكل ما في وسعهم للحيلولة دون استفحال الثورة، إذا لم يكن بالامكان خنقها والقضاء عليها. ومع أن الاتراك ما كانوا يجهلون ضعف العرب في الوسائل الحربية، إلا انهم كانوا يعلمون أن بريطانيا تسندهم في حركتهم، وإنها ستعمد إلى تدريبهم وتزويدهم بالاسلحة والمعدات.

وأبرق جمال باشا إلى قواده في المدن الحجازية بلزوم الدفاع عنها حتى الموت، ووعدهم بالمساعدة العاجلة. وبناء على هذه الأوامر رأينا القوات التركية في مكة وجدّه والطائف تدافع ما أمكنها الدفاع. ولم تسلّم إحدى حامياتها إلا بعد قتال عنيف وحصار شديد. غير أن استسلام الترك في مكة وجدّه والطائف وينبع لم يفتّ عضدهم، وصمموا على الاحتفاظ بالمدينة مهما كلفهم الأمر، للإدعاء أمام العالم أن الحجاز لا يزال بيدهم وأنهم لا بدَّ بالغون يوماً إلى القضاء على الثورة.

وحمل فخري باشا على جيشي الأميرين علي وفيصل. فتمكن من ردهما إلى الوراء. ومع إنه لم تكن عنده قوات كافية لمواصلة الهجوم، إلا أن صلابته وعناده واتباعه خطة الهجوم جعلت العرب يتخذون موقف الحذر والتراجع. وكان من جراء هذا التراجع أن تمكن الترك من إصلاح سكة الحديد بعد أن

خربها العرب في عدة مواضع وإعادة سير القطارات بين المدينة وسورية.

على أن ارتداد العرب، وتوقف الاتراك عن مواصلة الهجوم، انتظاراً منهم لوصول النجدات والذخائر من سوريا، أتاح فرصة ثمينة للمّ شعث القوات العربية وترتيبها، وتنظيم الجنود، وتسليحهم بالأسلحة التي كانت تصل من بريطانيا، مما كان سبباً قوياً في ثباتهم أمام الترك عندما عاودوا الهجوم.

والباحث في تاريخ الثورة العربية يستطيع أن يدرك أن السبب الأكبر لنجاح العرب في الأشهر الأولى يعود لعامل المفاجأة. أما في المدينة فقد حال دون استسلامها عوامل كثيرة، أهمها: كثرة عدد القوات التركية ووفرة عتادها ومدافعها واتصالها مباشرةً بمراكز الاتراك إلى الشمال. بينما كان العرب يفتقرون إلى السلاح والتنظيم والاتحاد أيضاً، كموقف ابن مبيريك، الذي كان يهدد مؤخرة جيش الثورة في رابغ. ومن المؤكد أنه لو كان لدى العرب بعض المدافع والاسلحة الحديثة، لتمكنوا من تضييق الحصار على المدينة والحيلولة دون وصول النجدات إليها وارغامها على الاستسلام، كما حدث في الطائف. ولكن ضعفهم وعدم تخاذل فخري باشا المشهور بشراسته وعناده، أدى إلى ذلك الموقف المائع الذي نتج عنه ازدياد القوات التركية حتى بلغت في نهاية الاربعة شهور الأولى للثورة ١٤ ألف جندي، بينما تمكن العرب من تأليف جيشهم النظامي في ينبع ورابغ. ولو تسنّى للعرب الاستيلاء على المدينة عام ١٩١٦ لتغيّر وجه الحرب بالنسبة للعرب تغيراً حاسماً، إذ يكون في مقدورهم توحيد جميع قواهم في جبهة قوية واحدة.

وتُعدّ الثلاثة أشهر الأخيرة من ١٩١٦ أشد أشهر الثورة ضيقاً وخطراً. فقد كان الخطر قائماً من احتمال زحف الاتراك على مكة بطريق الساحل، والقضاء على الثورة في عرينها. فبعد الهجوم الذي حصل في شهر آب على جيش العرب، قام فخري باشا بهجوم آخر في أول تشرين الأول على جيش

فيصل، ودفعه حتى ينبع البحر. وارتدّ فخري فجأة في اليوم التالي فلحق بـه الأمير، ثم عاود فخري الهجوم على بير عباس بقوات كبيرة يوم ١٤ تـشرين الأول فاحتلها. ولكن الأمير فيصل اضطره إلى اخلائها فارتد إلى بير الرايق. وخلال هذه الفترة العصيبة أرسل الحسين يطلب من حلفائه الوفاء بعهـودهم، وبعد محاولات ومماطلات أظهرو عزمهم على مساعدته خوفاً من أن يـؤدي تقاعسهم إلى اضطراره لعقد صلح منفرد مع الترك.

***

جاء في تاريخ الحرب الرسمي. في باب الاعمال العسكرية في مصر وفلسطين، عن حوادث رابغ ما يلي:

وكان المشكل الرئيسي الذي بدا للجنة الحرب في الأشهر القليلة التي تلت شهر تموز، مسألة الدفاع عن رابغ التي تبعد ١٥٠ ميلاً عن المدينة في الجنوب الغربي منها. وكان الأتراك حينئذ قد حشدوا قوة عظيمة في المدينة. وأفادت التقارير الموثوقة أنهم على أهبة الزحف لاسترداد مكة. وكانوا قبل ذلك قد عزلوا الشريف حسين وعيّنوا مكانه الشريف علي حيدر، وجاؤوا به من الآستانة ليدخل مكة دخول الظافرين بالكسوة الشريفة التركية. وعززوا حاميات الحجاز بثماني كتائب، حتى أصبح لديهم ما يزيد عن ١٣٠٠٠ جندي، وكان أكثرهم في جنوب المدينة على مسافة تتراوح بين ٢٠ – ٤٠ ميلاً. وكان منهم ٢٠٠٠ في المدينة نفسها و ١٥٠٠ يحرسون السكة الحديدية في شمالها. وقد عرف انهم كانوا يجمعون وسائل النقل والعلف والمؤن من الشمال ومن حليفهم ابن الرشيد أمير حايل.

وهناك طريقان رئيسيان من المدينة إلى مكة: – طريق داخلي، وآخر ساحلي يخترق رابغ، والأول صعب المسالك قليل المياه. وكان المظنون أن قوة كبيرة لا تستطيع الزحف على مكة دون أن تمر على رابغ لتستقي من مياهها. وكان الانكليز قد احضروا كثيراً من المعدات لأجل العرب وتأهبوا لإرسال

بعض الطائرات إلى رابغ لكي تعاون العرب في الدفاع عنها، وقد كان هــذا الدفاع ذا أهمية عظيمة لكونها مركز الذخائر، ومكان التموين بالمياه في ملتقى الطرق الرئيسية إلى مكة.

وأشار السير مكماهون والجنرال ونجت بارسال فرقة بريطانية إلى رابغ وأيدا وجهة نظرهما بشدة. ولكن القائد الأعلى الجنرال موراي رفض هذا المشروع، والحجج الدالة على صوابية المشروع بيّنه ولا ريب فيها، أما الدوافع التي أثرت على موراي – عدا الدافع الخطير من أنه لا يستطيع الاستغناء عن هذه القوة – فقد كانت أقل وضوحاً ولكنها لم تكن أقل قوة، فقد اعتبر أن وجود الجنود المسيحيين في الحجاز سينفر العرب من الانكليز.

وبدأ البحث بشأن هذه المعضلة في مؤتمر عُقد في الاسماعيلية بين الجنرال موراي والسير مكماهون في ١٣ أيلول واستمر وقتاً غير قصير، وتبودلت البرقيات باستمرار حول هذا الموضوع بين وزارة الخارجية ومكماهون والجنرال ونجت والجنرال موراي، وهيئة أركان الحرب العامة.

وفي أول تشرين الأول ١٩١٦ جدّد الأتراك غاراتهم، وهزموا العرب في الجنوب الغربي من المدينة، وقد أبدى الأمير فيصل براعة عسكرية في هذه المصادمات، ولكن المدفعية التركية ذهبت بعزائم رجاله.

وأقام الأتراك في الجبال بين المدينة ورابغ. وانفصل جيش فيصل وتمركز في ينبع، عن جيش علي الذي تحصّن في رابغ. وغدا الموقف ينذر بالخطر. وفي تشرين الثاني وصلت الطيارات البريطانية وقامت على حراستها قوات من رجال المدفعية والمشاة المصريين وعددها ٦٠٠ جندي. وحينما بدت على الاتراك دلائل الهجوم رأى الجنرال موراي أن يحشد في السويس لوائين من المشاة ولوائين من رجال المدفعية، ووحدتين من الهجانة، ووحدات أخرى معاونة على تمام الاستعداد للتوجه إلى رابغ فيما إذا اشتدت الحاجة إليها.

وفي تشرين الأول قام ستورس بزيارة الحجاز ومعه لورانس. وفي جدّة قابل الأمير عبد الله وبعد أن تحدث كثيراً عن ضيافتهما له وصفه بقوله أن له حظاً كبيراً من الذكاء والنشاط والجاذبية، ويقول أن الكولونيل بريموند أخبره بكثير من التشاؤم أن الشريف يتبادل شروط الصلح مع الأتراك. فترقب فرصة وسأل الأمير عبد الله فيما إذا كان حدث أي اتصال من هذه الناحية، فأجابه الأمير أن عدة استفسارات غير رسمية من قبيل جس النبض قد وصلتهم، ولكن والده الحسين كان دائماً يجيب بأن العرب قد اتحدوا مع بريطانيا العظمى ولا يستطيعون أن يوقعوا صلحاً منفرداً عنها.

وفي ١١ كانون الأول ١٩١٦ وصل ستورس إلى جدة للمرة الرابعة. وفيها قابل الملك حسين مقابلتين طويلتين، وبحث الموقف معه مدللاً بأن انزال جنود انكليز في الحجاز سيثير العالم الاسلامي، وخصوصاً في الهند، على بريطانيا، وان الانكليز سيقدمون جميع المساعدات اللازمة، وسيعملون جهدهم على ارسال جميع الأسرى العرب لتأليف جيش نظامي منهم. وقال ستورس انه قدّم للحسين رسائل نائب الملك مع التمنيات بالنصر النهائي للعنصر العربي، وأن الحسين أجابه أنه شديد التأثر لهذه العواطف وأنه يشكرهم عليها. وفي ١٣ منه سافر إلى ينبع وزار فيها الأمير فيصل وكان الاتراك يهددون جيشه، فحثه على الدفاع عن كل شبر فيها، ويقول انه وجد نفسه معجباً بشخصيته التي رأى فيها مثالاً من شخصيات أشراف العرب في أيامهم الأولى.

وقد وقف لورانس كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" على وصف أحداث الثورة العربية، وفي كتابه كثير من النقاط الهامة ولكنها لا تهمنا فيما نحن فيه. وكان لورانس يعمل في مصلحة الاستخبارات البريطانية في القاهرة وزار قبيل الحرب العظمى بلاد العراق وسورية في بعثة أثرية، وكانوا يسمونه " لورانس كركميش" ولكن الاسم الذي غلب عليه أخيراً هو "لورانس العرب"، وغالى بعضهم في تقدير خدماته وأعماله فدعاه ملك العرب غير المتوج.

والواقع أن لورانس خدم العرب كما خدمهم غيره من الانكليز بحكم انتدابهم للعمل في تلك المنطقة من مناطق الحرب العالمية، وفي خدمة دولتهم بريطانيا، وقد اعترف في كتابه أنه لعب دورين متناقضين.

وكان لورانس قد سافر مع ستورس في شهر تشرين الأول من مصر إلى الحجاز، وبعد أن قضى بضعة أيام، عاد إلى الخرطوم واجتمع بالجنرال ونجت، ثم قصد القاهرة وبحث مع المسؤولين فيها أمر ارسال قوة من الجنود الانكليز إلى الحجاز مبدياً معارضته لارسالها. وقدّم تقريراً إلى القيادة العليا أكد فيه أن العرب قادرون على الدفاع عن بلادهم فيما إذا تيسرت لهم المدافع الكافية والارشادات الفنية. فسّرالقائد بتقريره وأرسل المال والسلاح والضباط الفنيين إلى رابغ وانتدبه للاشراف على تنفيذ هذه الخطة كمستشار عسكري للأمير فيصل.

ويقول لورانس أنه عند سفره للحجاز عرف أن مدافع العرب ما كانت ترمي إلى أبعد من ثلاثة آلاف ياردة، بينما كانت مدافع الأتراك ترسل قذائفها إلى أبعد من تسعة آلاف ياردة، مما جعل المدافع التي لدى العرب عديمة الجدوى. فسعى بكل قواه لارسال مدافع جديدة بعيدة المرمى، حتى لا تضطر بريطانيا لارسال جنودها الذين قد لا يغيّر وجودهم مصير الثورة ولا يعوق زحف الاتراك على الطريق الداخلي.

***

والخلاصة التي يصل اليها الباحث هي أن هذه الفترة العصيبة من أيام الثورة، رغم خطورتها، أبرزت وبلورت جوانب عديدة للموقف. ويمكن اجمال النتائج فيما يلي :

١- تألفت نواة جيش العرب النظامي المدرب. وقد أدى هذا الجيش خـدمات عظيمة وأخذ على عاتقه المهام الحربية، حتى أن الحسين بعد تأليفه لم يعد يطلب سوى الاسلحة والأموال.

٢- أوقفت الحسين على حقيقة كبيرة وهي أن الاتكال المطلق على الانكليز لا يجدي، وانهم سيجعلون مساعدتهم له في حدود ما تقتضيه مصلحتهم الخاصة.

٣- تجمّع خلالها رجال الطليعة العربية على مستوى لم يسبق له مثيل. وأخذت فكرة القومية العربية تبرز بوضوح في نطاق تحرير الأقطار العربية.

ولا يمكن اغفال الاشادة بموقف الحسين شخصياً في هذه الفترة. فقد أظهر ثباتاً عجيباً مما شجع العرب على مواصلة النضال، كما شجعهم من قبل يوم كانت القذائف تنهال على القصر الشريفي وهو ثابت فيه كالطود الراسخ. فضرب بذلك أسمى الأمثلة في الاخلاص للمبدأ والدفاع عنه إلى النهاية.

- ٤ -

ابتسامة الظفر

رأينا في الفصل السابق كيف كان الترك يهددون الثورة بالاخطار. ورأينا استصراخ الحسين لحلفائه سائلاً اياهم المعونة، وما كان من مماطلتهم. ولبيان أسباب مماطلة الانكليز يجب أن ندرك أن الذين قاموا بمفاوضة الحسين هم من السياسيين في دار الاعتماد البريطاني التابعة لوزارة الخارجية، بينما كانت الاسلحة الحربية تحت تصرف القائد العام للقوات العسكرية التابعة لوزارة الحربية، وهو لم يكن يرى في هذه الثورة جدوى، ولا يرضى عن تدخل السياسيين فيما لا يعنيهم. ومن الحقائق التاريخية أن القادة البريطانيين في مصر لم يغيروا موقفهم السلبي تجاه الثورة إلا عندما وصلت قوات العرب إلى الوجه ثم إلى العقبة، وأخذت تشكل جناحاً أيمن لجيشهم الزاحف من قناة السويس... وكان الجنرال موراي لا يعير الثورة أي اهتمام



فيصل بن الحسين

حتى تمّ احتلال الوجه فتغيرت وجهة نظره. إذ انه كما يقول لـــورانس "أدرك فجأة أن القوات التركية التي تقاتل العرب أعظم من القوات التي تقاتل جيشه". أضف إلى هذه الأسباب ما كان يتخوفه السياسيون من ثـــورة الـــرأي العـــام الاسلامي، إذا علم بوجود قوات بريطانية في الحجاز، واستغلال الأتراك لهذا الأمر في دعايتهم.

وقد ارسل الفرنسيون بعثة عسكرية صغيرة بقيادة الكولونيل بريمون في أيلول ١٩١٦. كما أن الانكليز أرسلوا بعثة أخرى في كانون الثاني ١٩١٧ بقيادة الكولونيل نيوكمب. وكانت الخدمات التي قام بها رجال هذه البعثات فنية بحتة، إذ وزعوا على الجيوش العربية الثلاثة، واخذوا يرافقون العرب في هجماتهم، ويزرعون الألغام تحت جسور وخطوط سكة الحديد فيدمرونها.

وعندما كانت قوات الأمير عبد الله مشغولة بحصار الطائف، كانت قوات الأمراء علي وفيصل وزيد تنتشر إلى الجنوب الغربي من المدينة، لتحول دون زحف الاتراك على مكة. على أن الموقف تبدل بعد ذلك، إذ تحرك جيش الأمير عبد الله بعد احتلال الطائف. وأخذ مراكز جديدة في الشمال الشرقي من المدينة. وبذلك قطع وصول الامدادات من إمارة ابن الرشيد إلى الأتراك. وأخذ يهدد جناحهم الشرقي، فلم يعد باستطاعتهم الزحف على رابغ ومكة إلا إذا زحزحوا جيش الأمير عبد الله عن مراكزه مما لم يكن في وسعهم. ثم زحف الأمير عبد الله شمالاً من الحناكية إلى وادي العيص. وبذلك انتقل مركز الثقل في الحركات الحربية من جنوبي المدينة إلى شماليها، وأصبح في مقدور قوات فيصل المرابطة في ينبع أن تزحف شمالاً على الوجه التي تبعد ١٨٠ ميلاً عنها، مهددة بذلك مؤخرة الاتراك وسكة الحديد التي يتلقون الامدادات عليها.

وكان الحسين يدرك فائدة إنشاء جيش عربي منظم يستطيع الاعتماد عليه في الاعمال العسكرية والسياسية. وتدلنا المكاتبات التي تبادلها مع مندوبه في مصر ومع المندوب السامي البريطاني فيها، أنه أخذ يلح في إرسال الضباط

والجنود العرب إلى الحجاز منذ الشهر الثاني للثورة، حتى يبدأ بتنظيم الجيش وانشائه على أحدث الأصول العسكرية. يؤيد هذا ما جاء في برقية مؤرخة في ١٥ رمضان إلى مندوبه بمصر جاء فيها "بكل امكان من السرعة تبعثوا لنا ضباطاً لتأليف قوة البلاد المنظمة فإن أمرها أصبح أول شيء تحتاجه البلاد". وكان الحسين يعتبر هذه الخطوة من الأهمية بمكان عظيم، ويعلق عليها أعظم الآمال. ولا ريب في أن الانكليز لو أجابوه إلى ما طلب من ارسال الأسرى العرب الذين في أيديهم دون مماطلة، لما وقف العرب ستة أشهر موقفاً تحيطه الشكوك والمخاوف.

وفي أول آب ١٩١٦ غادرت السويس أول قافلة من العسكريين العرب، وكانت تتألف من ٧ ضباط وهم : نوري السعيد، محمد حلمي، راسم سردست، رؤوف عبد الهادي، ابراهيم الراوي، جميل الراوي، رشيد الهاشمي، ومعهم عدد من الجنود. وسافر معها الدكتور أمين المعلوف ومعه مستشفى كامل يتسع لمئة سرير مع جميع لوازمه وخمسين خيمة.

وفي شهر ايلول غادر عزيز علي المصري القاهرة إلى الحجاز ليتولى انشاء الجيش النظامي. وهذا الضابط اللامع كان مقيماً في مصر بعد اطلاق سراحه من الاعتقال في الآستانة. وكان ناقماً على الأتراك ويعدّ من أقطاب الحركة العربية في عهدها الأول. وقد تطوع لمعاونة بني قومه، فسافر وقابل الحسين في مكة، ثم سافر إلى رابغ، وكانت الأزمة على أشدها. وبعد ذلك توالى وصول الجند والضباط والمعدات، فأنشأ أولاً فوجين من المشاة وفوج رشاش وبطارية مدافع.

وعند إعلان الملكية عيّن عزيز علي وزيراً للحربية ورئيساً لأركان حرب الجيش، وقام بمهمته خير قيام، حتى تمكن بمعونة الضباط العرب الآخرين من انشاء قوة منظمة نالت اعجاب الأعداء والأصدقاء. غير أن اقامته لم تطل. فبعد ثلاثة أشهر غادر الحجاز عائداً إلى مصر. وقيل ان عودته سببها عدم رضى الانكليز من موقفه المتطرف منهم. وقيل أيضاً أنه كان يصطدم كثيراً بآراء الحسين الصلبة، ولما كان بطبعه يكره الخضوع، فقد قدم استقالته

ورحل. ومما لا شك فيه أن تنظيمات العرب العسكرية لا تدين في مراحلهـــا الأولى لرجل كما تدين لعزيز علي. وقد خسرت الثورة برحيله قائـــداً حاذقـــاً ممتازاً.

غادر عزيز علي الحجاز بعدما تم انشاء ثلاثة أفواج من المشاة وثلاث بطاريات مختلفة الحجم وفوج مهندسين، فحلّ نوري السعيد محلّه في رئاسة أركان حرب الجيش كما حلّ محمود القيسوني محله في وزارة الدفاع. وخلال إنشاء هذه القوات في رابغ – مركز جيش علي – كان مولود مخلص وعبد الله الدليمي وراسم سردست يعملون على تأليف قوات جيش نظامي في ينبع – مركز جيش فيصل– فتولى الأول تنظيم قوة الخيالة والثاني المشاة والثالث المدفعية. وقد نشأت من هذه النواة قوات الجيش الشمالي فيما بعد.

وغادر الأمير عبد الله الطائف فبلغ الخانق في أوائل كانون الأول ١٩١٦ وهي في جنوبي المدينة. وكانت قواته تتألف من فئتي هجانة مدربين. وفئة خيالة معها بطارية جبلية بالاضافة إلى قوات من عشائر عتيبة ومطير وحرب وهتيم وجهينة. وفي أثناء زحفه أرسل قوة هجانة احتلت حجر موطن حسين مبيريك، وبعث بقوة أخرى شنّت الغارة على مخافر الترك بجبل وعيرة وجبل أحد. ثم واصل سيره بالقوة الرئيسية إلى الحناكية، وتقع شرقي المدينة. وهناك التحقت بجيشه عشائر تلك الناحية فبلغت القوة عشرين ألف راكب، ثم بعد إقامة قصيرة توجه نحو الشمال الغربي ليعبر سكة الحديد ما بين محطتي أبا النعم وهديه.

وبينما جيشه بالحرّة التقى بعصابة الأمير الاي أشرف بك، وكان ذلك في ١٣ كانون الثاني ١٩١٧، فهاجمها ودار قتال شديد بين الطرفين انتهى باستسلام قائدها وإبادة معظم أفرادها. وغنم العرب ٣٨ ألف ليرة ذهبية وعدة مدافع ورشاشات وغنائم كثيرة، وكان أشرف في طريقه إلى اليمن وهو من فتاكي الاتحاديين.

ثم عبرت القوات غرباً، واجتازت سكة الحديد، بعد أن اقتلعت

أعمدة البرق وانتزعت قضبان السكة حتى بلغت وادي العيص فعسكرت فيه، وهو يبعد سبعين ميلاً إلى الشمال الغربي من المدينة. وحالما عرف فخري باشا بتمركز جيش الأمير عبد الله، تراجع من ينبع النخل ومن وادي صفرا ومن بئر سعيد إلى بير درويش، كما تراجع جناحه الأيمن الذي كان يعمل ضد الأمير فيصل.

وعلى هذا أصبحت الجيوش العربية حول المدينة كما يلي:

١- الجيش الجنوبي ويقوده الأمير علي ومعه الأمير زيد، ومركزه رابغ، ومهمته منع الترك من الزحف على مكة.

٢- الجيش الشرقي ويقوده الامير عبد الله، ومركزه وادي العيص. ومهمته منازلة الأتراك وتخريب سكة الحديد.

٣- الجيش الشمالي، ويقوده الأمير فيصل ومقره ينبع.

وحينما توقف الجيش الشمالي في ينبع، وخيف من زحف فخري باشا، ألحّ الحسين على الامير علي فتقدم بقواته يوم ٦ كانون الأول ١٩١٦ حتى أبو دهيبة. وألقت الطيارات البريطانية القنابل على الترك أثناء زحفه. وجاء فخري باشا بعشر كتائب للوقوف في وجه القوات العربية. وأغار البدو على الترك فوصلوا حتى بيار علي وعادوا بنحو ٦٠ أسيراً، ويوم ٢٣ من ذات الشهر عسكر الامير في بير العبد، ثم عاد إلى رابغ وجهّز حملة جديدة وسار بها فبلغ بير عباس يوم ١٠ آذار ١٩١٧. وبلغ البدو في غاراتهم أبواب المدينة وعادوا بكثير من الأسرى، فكان هذا أول نصر باهر ناله العرب. وهنأ مكماهون الحسين على هذا الإنتصار. أما الترك فقد خندقوا وراء حصونهم وسكتوا، وكان البدو يتوارون وراء الصخور في الجبال ويطلقون النار عليهم صباح مساء. وفي ٢٧ آذار ضرب الأمير علي مخيمه في بير درويش.

***

عندما عسكر جيش الأمير عبد الله في وادي العيص، وشكلت قواته مع قوات الأميرين علي وزيد، مروحة تمتد من جنوب المدينة إلى شمالها، واضطروا بذلك قوات الأتراك إلى التزام خطة الدفاع بدل الهجوم، تبين أن

جيش الأمير فيصل الشمالي – أصبح حراً في اتخاذ خططه الحربية الخاصة، وعليه فقد تقرر أن يزحف شمالاً لتحرير باقي البلاد الحجازية مــن قبــضة العدو.

وفي صباح ٢٤ كانون الثاني ١٩١٧ اطلقت البوارج البريطانية قنابلها على الوجه، وأنزلت على مسافة ثلاثة أميال منها ٢٥٠ بحاراً بريطانياً و ٥٠٠ جندي عربي حملتهم من ينبع، فدارت بينهم وبين الأتراك المتحصنين في خنادق قوية، معركة حامية انتهت بانهزام هؤلاء تاركين وراؤهم ٧٠ قتيلاً وجريحاً و١٠٠ أسير ومدفعين و ٤٠٠ بندقية.

وفي اليوم التالي بلغ الأمير فيصل الوجه ومعه لورانس ونيوكمب وثلاثة آلاف هجان وأربعة مدافع و١٠٠ رشاش. وفي ١١ شباط استولى العرب عنوة على المويلح وضبا. وفي ١٧ آذار نقل مطار رابغ إلى الوجه. وشرع العرب بمهاجمة محطات سكة الحديد وتخريبها.

ولا بدّ من الاشارة إلى وصول جعفر باشا العسكري إلى الوجه، وتعيينه قائداً عاماً للقوات النظامية في جيش الشمال، وتعيين نوري السعيد رئيس أركان حرب له، وكان جعفر من المتحمسين للترك وقد قاد قوات السنوسي لمهاجمة الانكليز في مصر، غير انه وقع أسيراً، وبقي في الأسر حتى كان اعلان الثورة العربية فسارع للانضمام إليها.

ثم لا بدّ من الاشارة إلى تطوّر الجيش العربي، ففى الأيام الأولى من الثورة ما كان يزيد عدده على ثلاثين ألف مقاتل، أكثرهم، إن لم نقل كلهم، من البدو الذين لا يعرفون الحروب النظامية. كما أنهم لم يكونوا مزودين بالأسلحة الكافية. فلم يكن لديهم من البنادق ما يزيد على عشرة آلاف، وكان رجال العائلة يتناوبون حمل بندقيتهم الواحد بعد الآخر، ليكون لكل منهم نصيب في الدفاع عن الوطن. ولم يكن لدى العرب مدافع. أما عندما سقطت الوجه فقد كان لديهم ما يزيد عن سبعين ألف مقاتل مع عدد كبير من المدافع والرشاشات والقنابل، وما يزيد عن ٢٨ ألف بندقية.

وباحتلال الوجه زال الخطر نهائياً عن الثورة، بل يمكن أن نعتبر أن

نزول الأمير عبد الله في وادي العيص، وتهديده للجيش التركي في المدينة من الشرق والشمال، ومنع الامدادات عنه من بلاد ابن الرشيد، والقيام بعدة تخريبات في سكة الحديد- كان حداً فاصلاً بين فترة الاضطراب والقلق، وبين عهد الاطمئنان إلى مصير الثورة واطّراد نجاحها. وأدّى كل هذا إلى زحف الجيش الشمالي على الوجه، فوجد الترك أنفسهم بين ثلاثة جيوش قوية، كل منها يقف موقفاً منيعاً لا يمكن مهاجمته دون التعرض لهجوم خلفي من الجيشين الآخرين. وعليه فقد عدل الأتراك عن فكرة الهجوم واكتفوا بالدفاع عن المدينة، وأتيحت الفرصة للجيش الشمالي، فتقدم شمالاً حتى وصل دمشق وحلب.

- ٥ -

جلالة الملك

انفرجت الأزمة وهدأت الخواطر. واطمأن العرب إلى أن الثورة وطّدت أقدامها، وأن الاستبداد العثماني في طريقه إلى الزوال، وكان لا بد من تنظيم الحكومة القائمة على هذا الأمر. فالأتراك كانوا ينظرون إلى العرب الثائرين كعصاة خارجين. وكان الحسين لا يزال يوقّع رسائله ومنشوراته باسم "شريف مكة وأميرها"، منذ اعلان الثورة إلى نهاية عام ١٣٣٤ هـ أي مدة خمسة أشهر تقريباً، والدول تخاطبه رسمياً بهذه الصفة.

ويذكر الملك عبد الله في مذكراته، أنه رأى الخطر في عدم تنظيم الثورة على قواعد دولية ثابتة، فتذاكر مع وجهاء الأمة وعلمائها، ومع من كان في مكة من رجالات الشام والعراق، كالشيخ كامل القصاب، ومحب الدين الخطيب، وآل البكري، وفؤاد الخطيب، وآل الداعوق، والضباط العراقيين. وعرض عليهم الأمر فوافقوا عليه، وألحّوا في سرعة التنفيذ. ثم يقول:

وعرضت الأمر على جلالته، فرفض بشدة وقال: أنا لا أعمل للملك ولا أقبل هذا الأمر الذي تعرضونه علي. فتقدمت ولثمت ركبته وقلت : هذه

العريضة مقدمة من عظماء الحجاز ومن حضر من سائر بلاد العرب، وهم يرجون قبول عرضهم. فقال : ليس عندي سوى ما قلته لك. فقلت: لسنا جميعاً على استعداد لخدمة الثورة، إلا على شرط قبول ما عرضناه، فاعمل ما تشاء مع سوانا. فقال : هل بلغت لكم الحال إلى هذه الدرجة. فقلت: نعم. فقال: قف. فوقفت ثم أمر بحضورهم جميعاً. فلما جاءوا. قال: أصحيح ما يقول هذا ؟ قالوا: لا يجرؤ أحد على أن يعرض على سيدنا ما لا صحة له. قال: هل عزمتم على ترك الدوام على الثورة إن لم أقبل أنا ما عرفتموه؟ قالوا: نعم، سننسحب كلنا، قال : افعلوا ما شئتم والتبعة عليكم. أنا أقبل ما عرضتموه منفذاً لرغبتكم لا موافقاً عليها. قالوا: إذن وفقك الله وستكون البيعة يوم الاثنين أول محرم ١٣٣٥ في المسجد الحرام. فقال : على بركة الله.

وهكذا، ففي يوم الاثنين أول محرم – ٢ تشرين الثاني ١٩١٦، جاء الحسين من القصر إلى مجلسه الخاص الملاصق للكعبة. فدخل يحف به آله وذووه والعلماء والكبراء. ولما استقر بهم المقام سلم الشيخ عبد الله سراج مفتي الحنيفة في مكة إلى الشيخ فؤاد الخطيب كتاب البيعة بالملك، فتلاه على الجماهير المحتشدة في الحرم. فتعالت أصواتها بالهتاف. ثم نهض الشيخ ابن سراج فبايع الحسين بالملك، ولقبه بملك البلاد العربية، وتبعه الناس بالمبايعة، وقد جاء في ختام البيعة ما يلي:

... وإننا نبايع جلالة الملك، سيدنا ومولانا الحسين ومولانا الحسين بن علي، ملكاً لنا نحن العرب، يعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ونقسم له على ذلك يمين الطاعة والاخلاص والانقياد في السر والعلانية. كما أننا نعتبره مرجعاً دينياً لنا. أجمعنا عليه ريثما يقرّ قرار العالم الاسلامي على رأي يجمعون عليه في شأن الخلافة الاسلامية

نبايعك على هذا يا صاحب الجلالة، ونقسم لك بالله العظيم على طاعتك، والرضى بك والانقياد إليك في السر والعلانية، ولك علينا في ذلك

عهد الله وميثاقه، ما أقمت الدين واجتهدت فيما فيه صلاح العرب والمسلمين، " ومن نكث فانما ينكث على نفسه. ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً".

وفاه جلالته بخطاب وجيز قال فيه:

إني أقسم لكم بالله العظيم، إنني لم أرد هذا الأمر الذي تكلفونني به، ولم يخطر على بالي عندما قمت معكم بنهضتنا السعيدة. ولكني رأيت كما رأيتم أننا أمام خطر عظيم وخطب جسيم، ربما قضى علينا القضاء المبرم إذا لم نبادر إلى إزالته.

إنكم حملتموني امراً أنا أعرف الناس بما يستلزمه من الجهد. وطالما قلت إني واحد من جمهور الأمة، أبرم ما يبرمون من حق، وأرفض ما يرفضون من باطل، وأمد يدي لكل من يتفقون على اسناد أمرهم على كتاب الله وسنة رسوله. وإذا كان لامناص مما اردتموه، فإني اشترط عليكم أن تعينوني على أنفسكم وتساعدوني بآرائكم وأعمالكم في كل ما يحقق آمالنا وآمالكم، من الخدمة للعرب والمسلمين.

وفي اليوم التالي تألفت الوزارة من الأمراء: علي رئيساً، وعبد الله للخارجية، وفيصل للداخلية، وعزيز علي المصري للدفاع. بالاضافة إلى وزراء آخرين للمعارف والأوقاف والمالية. كما أصدر الملك مرسوماً بانشاء مجلس للشيوخ.

وفي اليوم نفسه أرسل الأمير عبد الله بن الحسين، بصفته وزير الخارجية للحكومة الجديدة البلاغ الآتي:

إلى وزارات خارجية دول الحلفاء والدول المحايدة:

بملء السرور، أبلغ سعادتكم أن أفاضل البـــلاد ووجهائها وعلمائها وكافة طبقاتها، قد أجمعوا صباح هذا اليوم، وأقروا باتفاق الآراء، مبايعة حضرة صاحب الجلالة والسيادة مولاي الشريف الأعظم حسين بن علي،

بالملك على الأمة العربية. فهو اليوم ملك العرب الأعظم. بناء على ما تحققته البلاد من كفاءته واخلاصه الحقيقي للوطن، ورغبته الصادقة في نشر ألوية العلم والعدل في جميع أرجاء هذه البلاد العربية، التي غادرتها عصبة الاتحاد والترقي المعروفة لدى العالم بأسره بالمساعي والمقاصد المخالفة لكل شريعة ونظام، ولتعمدها استئصال كيان البلاد المادي والمعنوي، والمشهودة آثاره في طائفة غير قليلة من مسلمين ومسيحيين ودروز، ممن لا ذنب لهم غير وطنيتهم الصادقة ونجابتهم العلمية. وإن الأمة العربية لتودّ من سعادتكم اعتبارها عضواً عاملاً في الهيئة الأجتماعية، كما شيّدت ذلك بعناية الله.

تألفت هيئة المملكة الجديدة على هذا المنوال. ويمكن القول أن الأميرين علي وفيصل لم يتح لهما الاشراف على أعمال وزارتيهما، فقد كانا في الحرب. وقد بقي الأمير علي محاصراً المدينة إلى يوم فتحها، فعيّن أميراً لها. ولم يعد إلى مكة إلا في ١٩١٩ دون أن يطيل الاقامة فيها. وكذلك الأمير فيصل فقد بقي خارج مكة ولم يعد إليها إلا عام ١٩٢١ في طريقه إلى العراق. وقد أدار الأمير عبد الله شؤون وزارته بضعة أشهر، إذ كان مشغولاً بحصار المدينة، وغادر الحجاز نهائياً إلى الأردن عام ١٩٢٠.

لم يكن الشك يخامر أحداً من العرب، في أن هذه الخطوة ستقابل بالارتياح عند حلفائهم. ولكن دهشتهم كانت عظيمة في المماطلة التي حدثت بشأن الاعتراف بهذا الوضع. وكان الانكليز والفرنسيون يرون تأجيل اتخاذ هذه الخطوة إلى ما بعد الحرب. وقد نصح ستورس للأمير عبد الله عندما حدثه بهذا الأمر في جدّة، أن يؤجل اعلان الملكية حتى يتم التشاور بين الحسين وبريطانيا لتفادي الارتباك الذي قد يحدثه الاعلان المفاجئ. وكان الانكليز يقدّرون أن زعماء العرب وأمراءهم في البلاد العربية خارج الحجاز سيعارضون حتماً في تنصيب الحسين ملكاً على الأمة العربية. غير أن رجال الثورة في الحجاز، كانوا يرون أنه ليس أجدر من الحسين بحمل هذا اللقب، وأن أمراء العرب الآخرين سيوافقون بعد انتهاء الحرب على هذه الخطوة. ولا يجب أن ننسى فكرة توحيد البلاد العربية في دولة واحدة، كانت الهدف الأول

لكثير من متنوري العرب وزعمائهم. نرى مثالاً على هذا في اختيار علم الدولة الجديد من الألوان : الأسود والأبيض والأحمر والأخضر، لتمثّل أعلام الدول العربية الكبرى ابّان عنفوانها القديم[1].

اعترفت روسيا ثاني يوم باستقلال العرب وملكية الحسين دون أي تحفظ. ولكن قلم المراقبة الانكليزي حجز برقية الأمير عبد الله السالفة خمسة أيام، دون أن يحيط مندوب الحسين في مصر بمضمونها.

ودارت مخابرات عديدة بين الحسين والانكليز بشأن اللقب، ولكنه لم يستطع اقناع حلفائه بوجهة نظره، ثم اعترفت بريطانيا وفرنسا به ملكاً على الحجاز فقط.

ويتحدث الكولونيل بريمون رئيس البعثة العسكرية إلى الحجاز في كتابه عن مسألة اللقب فيقول : "وفي الفترة الأخيرة من ١٩١٦، حدث حادث ما كان الانكليز ولا الفرنسيون يتوقعون حدوثه مطلقاً. وأعني به المناداة بشريف مكة الأكبر ملكاً للعرب. ففي يوم ٢ المحرم دعا الأمير عبد الله إلى اجتماع لتبادل التهانيء بالسنة الجديدة. ولما تكامل الجمع وقف الشيخ فؤاد الخطيب، وألقى خطاباً ملأه بالثناء على الحسين، أشاد فيه بمجد العرب وختمه بعرض طائفة كبيرة من الكتب وردت إليه من سورية، وأنها اعترفت بالحسين ملكاً على العرب. فنهض الجالسون ونادوا بالأمير ملكاً على العرب. فأجابهم هذا بأنه ما أراد الحرب وإنه لم يخض غمارها إلا لأجل شعبه وفي سبيله، وإن للمسلمين أن يختاروا في المستقبل خليفتهم، وإن علينا أن نضع

---

(١) ظلّت حكومة الحجاز وقوات الثورة العربية، خلال السنة الأولى، ترفع راية الأشراف التقليدية في الحجاز ذات اللون الأحمر العنّابي. وفي تلك الاثناء تبنّى الملك حسين ألوان الراية العربية التي كانت جمعية العربية الفتاة أقرتّها قبل بدء الحرب العالمية، وتتألف من الألوان الثلاثة التي رفعتها دول العرب الكبرى شعاراً لها : الأبيض للأمويين، والأسود للعباسيين، والأخضر للفاطميين. وهكذا تّم تصميم الراية العربية التي رُفعت ابتداءً من ١٠ حزيران ١٩١٧ لتضم الألوان الثلاثة مع وجود مثلّث أحمر في قاعدة الراية، بمعنى أن الأشراف الهاشميين يتبنّون طموح الأمة العربية في العمل لاستعادة أمجاد العرب التالدة.

نصب أعيننا في الوقت الحاضر تحرير العرب وانقاذهم فقط. فرد عليه أحد شيوخ البدو بقوله: إذا كنت لا ترضى أن تكون خليفة فمن يكون الخليفة إذن؟

" وكانت القاهرة غير مرتاحة لما وقع، لأنها كانت تخشى أن يؤدي هذا التصرف إلى نفرة أمراء العرب الآخرين من الشريف، وتخوفهم منه. كما أن فشله أو سقوطه يكون عظيم الأثر في الهند.

"وفي يوم ١١ تشرين الثاني سلمت أنا والكولونيل ولسن، مذكرة متحدة المعنى إلى الشريف من الحكومتين الفرنسية والبريطانية بشأن المبايعة. وتولى ابن عزوز تقديم الرد الفرنسي إلى الأمير عبد الله، فقال له بهذه المناسبة – إن الحلفاء مخطئون بترددهم في الاعتراف رسمياً بلقب والدي الجديد. انظروا إلى الالمان كيف يعملون على اعلاء مقام تركيا وزيادة نفوذها، فقيصر المانيا لا يخاطب السلطان إلا بقوله: صاحب الجلالة المقدسة. فيجب على الحلفاء أن لا يقتصروا في مساعدتهم للدولة العربية الجديدة على الماديات، بل يجب أن يتخطوها إلى الأدبيات والمعنويات، فيعلوا مقامها ونفوذها. ثم زاد على ذلك قائلاً: إن العالم الاسلامي كله يتجه بأنظاره نحو الدولة العربية الجديدة.

" وأخيرا زار ابن عزوز الملك يوم ٣ كانون الثاني، وسلمه كتاباً من الحكومة الفرنسية جاء فيه أنها تعترف به ملكاً على الحجاز، وأن يكون لقبه هكذا " جلالة ملك الحجاز". فرد الملك على ابن عزوز قائلاً: إنه لا اهمية للقب الملك في نظره، وإنه لا يفكر إلا في خدمة امته وبلاده".

وكتب مندوب الحسين من مصر يسأله عما يجب أن يفعل تجاه اعتراف بريطانيا وفرنسا به ملكاً على الحجاز فقط، فأجابه: لا لزوم لمثل هذه المساعي لأنها تخلّ بما نحتاج لباقي الأعمال وتحدث مواضيع دقيقة.

وهكذا أُلعنت الملكية لأول مرة في تاريخ العرب الحديث، متمثلةً في شخص الرجل الذي استطاع بجهوده وأعماله، أن يدفع قضية العرب إلى مسرح النضال العالمي لأول مرة منذ عدة قرون.

وقد صبغ هذا الحادث نضال العرب صبغة شرعية، فأصبحت حربهم منذ اعلانه حرباً بين دول ودولة، لا ثورة فئة من الناس على دولتها الشرعية. وتوافد أحرار العرب من كل فجّ وصوب، ومن جميع الملل والنحل، على دولة العروبة الناشئة في جزيرتهم، التي طالما انبعثت منها المطولات، وكلهم يهتف لها بلسان شاعرها من قوله:

أنـــا لا أفـــرّق بين أهــلك أنهم   أهــلي وأنــت بـــلادهم وبلادي
ولكل ربع من ربوعك حرمة   وهوى تغلغل في صميم فؤادي

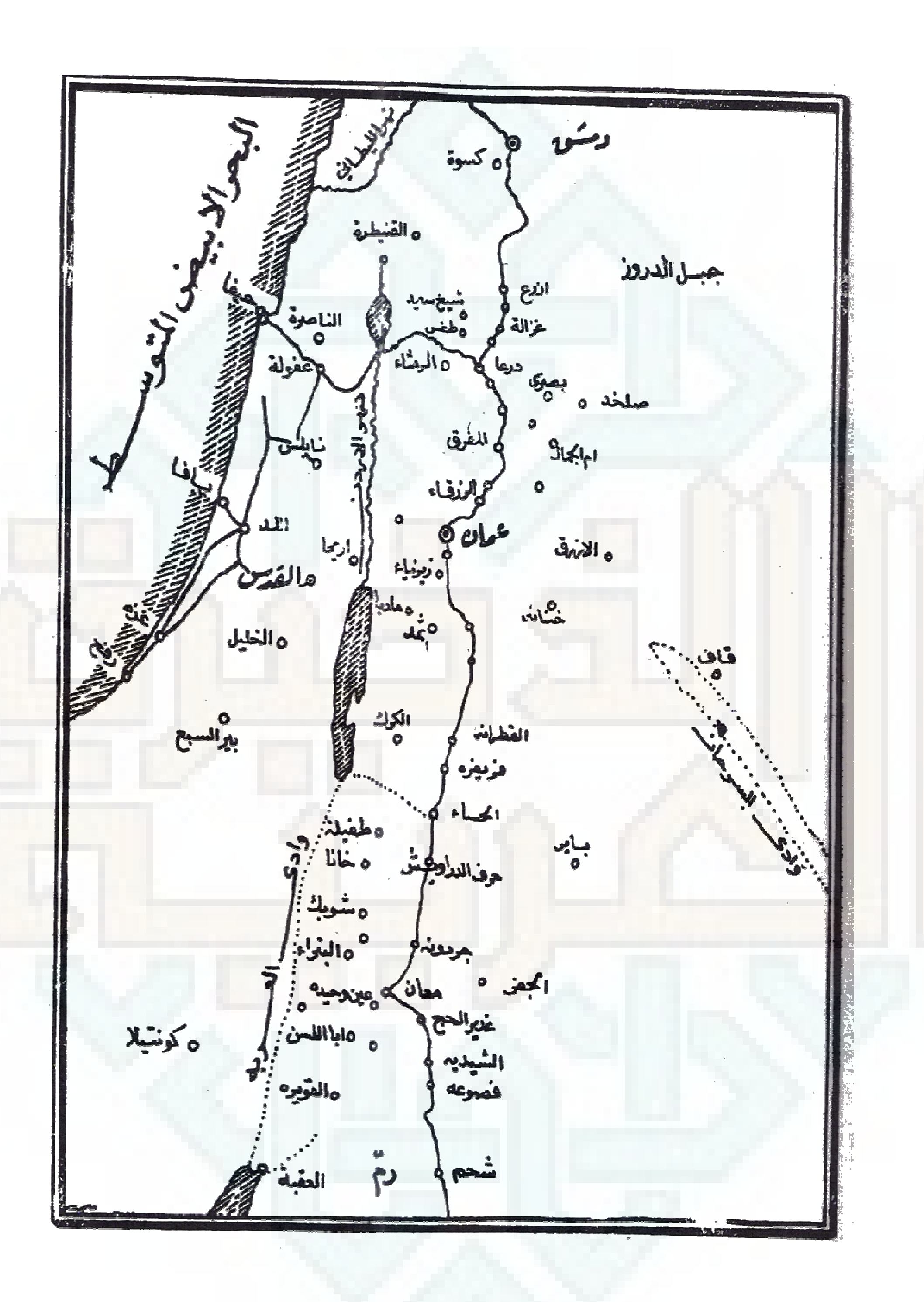
-٦-

وعود وعهود

كان العرب وعلى رأسهم الحسين، يصدقون ادعاءات الحلفاء، بأنهم لم يعلنوا الحرب في وجه المانيا إلا دفاعاً عن السلام العالمي، وحريات الشعوب الصغيرة، وكانوا لا يفتأون يعلنون، أنهم لن يغمدوا السيف إلا إذا عاد الحق إلى نصابه، وتنفست الأمم من جور الطغيان. وكان العرب يعتقدون وأن اتفاقهم مع بريطانيا اتفاق بين ندّ وندّ في سبيل مصالح الفريقين المشتركة، وأن بريطانيا ستحافظ على وعودها، وتأخذ بيدهم في تدرّجهم إلى مصاف الأمم الكبرى القوية.

ولكن الحلفاء كان يرون غير هذا، فقد عرفوا أن العرب يتأهبون لمقاومة الترك، فرأوا أن الفرصة قد سنحت لاستغلال هذا الموقف والتحكم بالشرق، بحجة مساعدة العرب على الترك، وقهر الترك على حساب مساعدة الثورة العربية. ولذلك شجعوا العرب على اعلان ثورتهم انتظاراً لمغنم عظيم.

وعندما أُعلنت الثورة، واستعر القتال بين العرب والترك، أخذت الحوادث تتتابع، وكلها تنذر بعدم إخلاص بريطانيا وحلفائها. وكانت أولى البوادر مماطلة الانكليز في تقديم المعونة العسكرية، عندما كان الخطر على



من العقبة إلى دمشق – المعارك التي خاضها جيش الثورة العربية

الثورة شديداً، خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من عام ١٩١٦، حتى إن معظم الاسلحة التي كانوا يرسلونها للعرب كانت مما بطل استعماله وأصبح لا نفع فيه.

أضف إلى ما تقدم أن المنشور الذي وضعه الحسين عن الثورة، لم يُنشر في مصر إلا بصورة مختصرة وبعد شهرين من صدوره في مكة. وكذلك ما تقدم من رفض الانكليز الاعتراف بالحسين ملكاً على العرب كيلا يكون اعترافهم الرسمي عاملاً من عوامل الوحدة العربية.

ثم أن الادريسي احتل ميناء القنفدة بمساعدة بارجة بريطانية، وكان الحسين يعتبرها حجازية، فاستاء كثيراً وطلب من مكماهون إجلاء الادريسي عنها وضمها إلى الحجاز. وبعد الحاح شديد من الحسين اضطر الانكليز إلى أن يطلبوا من الادريسي اخلاءها.

على أن كل ما تقدم كان هيّناً، إذا ما قسناه باتفاق بريطانيا وفرنسا على اقتسام بلاد العرب، مما يعرف الآن باتفاق سايكس – بيكو، وما تبعه من إصدار وعد بلفور الغاشم.

***

اتفاقية سايكس– بيكو

في أواخر عام ١٩١٥ قررت الحكومتان البريطانية والفرنسية التفاوض فيما بينهما للاتفاق على ادارة البلاد العثمانية التي ستكون في منطقة نفوذهما – بعد الاتفاق على هذه المناطق مع روسيا – فانتدبت بريطانيا لهذا الغرض السير مارك سايكس وانتدب فرنسا جورج بيكو، ليكونا مندوبين ساميين لدولتيهما في الشرق الأدنى، ويكون مقر عملهما في القاهرة.

ودارت المفاوضات بين المندوبين، مع اطلاع معتمد روسيا على تطوراتها، حتى كان يوم ١٦ أيار ١٩١٦، إذ جرى توقيع معاهدة بين الحكومتين اتفقتا فيها على جعل البلاد العربية ضمن دائرة نفوذهما، وأن يكون العرب طرفاً

ثالثاً معهما. وتُعرف هذه المعاهدة باتفاقية "سايكس- بيكو"، وفيما يلي تلخيص لبنودها :

١- إن فرنسا وبريطانيا مستعدتان أن تعترفا بدولة عربية مستقلة، أو حلف دول عربية، تحت رئاسة زعيم عربي في المنطقتين (أ- داخلية سوريا) و (ب- داخلية العراق)، على أن يكون لفرنسا في منطقة (أ) ولبريطانيا في منطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض، وأن تنفردا بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب، بناء على طلب الحكومة العربية.

٢- يُباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (شقة سورية الساحلية) ولبريطانيا في المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية) انشاء ما ترغبان فيه من أشكال الحكم المباشر أو غير المباشر، بعد الاتفاق مع الحكومة العربية.

٣- تنشأ في المنطقة السمراء (فلسطين) إدارة دولية مشتركة يُقرر شكلها بعد استفتاء روسيا أولاً، ثم بالاتفاق مع بقية دول الحلفاء، ومندوبي شريف مكة.

٤- تنال بريطانيا ميناءي حيفا وعكا.

٥- تكون الاسكندرونة ميناءاً حراً بالنسبة لبريطانيا، وحيفا ميناء حراً بالنسبة لفرنسا.

٦- ٧- ٨ – بنود خاصة بالسكك الحديدية والجمارك ضمن المناطق.

٩- لا يجوز لأحدى الحكومتين التنازل عن حقوقها في أي المناطق لغير الحكومة العربية، إلا إذا وافقت الحكومة الثانية.

١٠- تتفق الحكومتان بصفتهما حاميتين للدولة العربية، على أن لا تمتلكا، ولا تسمحا لدولة ثالثة أن تمتلك، أقطاراً في شبه جزيرة العرب، أو تنشئ قاعدة بحرية في جزائر البحر الأحمر الشرقي.

١١- إن المخابرات مع العرب لوضع حدود للحكومة العربية، أو حلف الحكومات العربية يستمر كما كان بالنيابة عن الحكومتين الفرنسية والبريطانية.

١٢- من المتفق عليه عدا ما ذكر، أن تنظر الحكومتان في الوسائل اللازمة لمراقبة توريد السلاح إلى بلاد العرب.

ولا يمكن أن يُقال أن اتفاقية سايكس – بيكو، التي وُقّعت في الأيام عينها التي كانت تقوم فيها الاستعدادات لاعلان الثورة، قد جرت بمعزل عن الاتفاقية التي عُقدت بين بريطانيا والحسين. وقد روى بعض المؤرخين أن مكماهون لم يكن على علم بها. ولكن من الثابت المؤكد اليوم أن جميع هذه الاتفاقات جرت تحت إشراف وزارة الخارجية البريطانية وبموافقتها، حتى ليمكن القول أن الانكليز ما كانوا يحسبون أنهم يناقضون وعودهم للحسين باتفاقهم مع فرنسا، فيما عدا فلسطين. وهي البلاد التي كانوا يطمعون في وضعها تحت إدارة دولية بالتعاون مع العرب، بسبب إصرار روسيا على ذلك.

وكانوا إلى ذلك يرون أن من الممكن تسوية الأمور بسهولة مع الحسين بعد انتهاء الحرب، ويأملون في الحصول على موافقته. ثم أنهم ما كانوا ينتظرون من العرب عامة والشريف خاصة أن يبدوا أقل مقاومة أو يثيروا أية مصاعب في وجوههم، ظناً منهم بأن هذا الشعب الذي رضي بالخمول تحت النير العثماني أربعة قرون متوالية، لا يستطيع أن يلم شعثه ويقف موقف العناد والتصلّب في وجه حلفائه الجدد.

***

وعد بلفور

في الاتفاق الثلاثي المعقود بين روسيا وفرنسا وبريطانيا، تقرر أن تخضع فلسطين لنظام دولي بالاتفاق مع الشريف حسين، لجل صيانة الأماكن المقدسة فيها. والتي تهم اتباع الديانات السماوية الثلاث. ولكن بعد أن حدث الانقلاب الروسي، وتخلى الشيوعيون عن جميع الاتفاقات الاستعمارية السابقة، وجدت بريطانيا وفرنسا انهما تستطيعان العمل في فلسطين بمزيد من الحرية، وعلى هذا فقد أصدرت بريطانيا ذلك الوعد الغاشم المعروف بوعد بلفور وزير الخارجية، بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩١٧، وهذا نصه:

" إن حكومة جلالة الملك، تنظر بعين الرضا والارتياح، إلى المشروع الذي يُراد به أن ينشأ في فلسطين وطن قومي للشعب اليهودي، وأن تبذل أقصى جهودها في سبيل ذلك. على أن لا يجري شيء يضر بالحقوق المدنية والدينية لغير اليهود في فلسطين، أو يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسي في غيرها من البلدان الأخرى".

والحقيقة أن هذ الوعد يُعدّ من أبشع أعمال العدوان التي عرفها تاريخ الإنسانية. فبريطانيا تقدم فيه جزءاً هاماً من الوطن العربي ليكون موطناً قومياً لأناسٍ غرباء من مختلف أقطار العالم.

وهناك عوامل كثيرة دفعت الحكومة البريطانية إلى إصدار هذا التصريح، وأهم هذه العوامل (١) رغبتها في استمالة العناصر اليهودية في أميركا لما لتلك العناصر من النفوذ، ولكسب عطف اليهود الموجودين في المانيا والنمسا وروسيا أيضاً. (٢) رغبتها في تأمين المصلحة الامبراطورية بإنشاء مجتمع يهودي في فلسطين يكون نقطة ارتكاز دائمية لنفوذها واستعمارها في بلاد الشرق.

وها نحن نجابه الآن في القسم المحتل من فلسطين قوى الصهيونية العالمية، التي فتحت بريطانيا لها أبواب بلادنا كي تبقى شوكة حادة في قلب الوطن العربي، وحصناً مكيناً من حصون الاستعمار، يهدد الأمة العربية دائماً وأبداً بالاستعباد والدمار.

***

وحاول الانكليز أن يخلقوا قاعدة للتفاهم مع الملك حسين بشأن سياستهم في بلاد العرب، فأوفدوا سايكس إلى جدّة فبلغها في ٤ أيار ١٩١٧ ومعه الكولونيل ولسن معتمد بريطانيا في الحجاز.

وجاء في برقية أرسلها مندوب الحسين بمصر إلى مكة يوم سفر سايكس ما يلي:

يسافر اليوم إلى جدة السر مارك سايكس لأجل مسألة في غاية الأهمية.

ولقد قابلته قبل سفره فأفهمني بعض الأمور التي سيتكلم عنها مع مولاي. ولاشك أن له نفوذاً عند حكومته، وهو يريد أن يقابله لعدة مسائل، أهمها تقرير موقفنا نحن العرب جميعاً مع الحلفاء، ولا سيما مع انكلترا وفرنسا. ولا ريب أن الأمور التي يتكلم عنها هي تعليمات حكومته. وقد قال إنه وإن كان بين هذه المسائل ما قد لا ينال ارتياح جلالة الملك، إلا أنها في مجموعها ستسرّه، وأعرب لي عن لزوم الاتحاد بين الحلفاء. وقال إن هذا أعظم شيء في نظرهم. وأرى أننا نحن العرب في أدق مرحلة من تاريخنا السياسي.

تلقي هذه البرقية ضوءاً كافياً على حقيقة مهمة سايكس، الذي تمكن من مقابلة الملك حسين يوم وصوله إلى جدّة في ٥ أيار، وتحادثا طويلاً في مختلف الشؤون المعلقة. وعلى أثر انفضاض الاجتماع قصد سايكس إلى دار البعثة الفرنسية، وأبلغ الكولونيل بريمون رئيسها أن أهم شيء في المسألة وفي موقف فرنسا وبريطانيا، هو موافقة الملك على ما يعتزمون القيام به لما له من نفوذ عند جميع سكان سوريا والعراق.

وفي اليوم عينه غادر سايكس جدّة وهو كبير الأمل بامكان الوصول إلى تسوية، لما لمسه من صراحة الملك وطيبة قلبه. وعند وصوله إلى القاهرة اجتمع بزميله جورج بيكو وتباحث معه في وجوه المسألة، فقررا العودة إلى الحجاز لمباحثة الملك. وغادرت طرادة انكليزية ميناء السويس وعليها سايكس وبيكو، والاميرال ويمس والكولونيل ولسن. ومنها قصدت إلى الوجه، فاستصحب هؤلاء الأمير فيصل معهم، وأبحروا جميعهم إلى جدّة فبلغوها يوم ٢٨ أيار.

وفي صباح اليوم التالي وصل الملك إلى جدّة، فاجتمع بالقادمين طويلاً، ثم عُقدت اجتماعات عديدة أخرى كان آخرها على ظهر الطرادة مساء ٣٠ أيار.

والمعروف أن هذه المحادثات انتهت بدون نتيجة حاسمة. فإن سايكس وبيكو لم يطلعا الملك على الاتفاق الذي وقعاه قبل عام بشأن المناطق العربية.

وقد دار معظم البحث حول موافقة العرب على حصول فرنسا على منطقة نفوذ خاصة بها في الساحل السوري. وكان موقف الحسين بطبيعة الحال ضد أي ترتيب كهذا، لأنه كان يُعتبر الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يعبّر عن رأي أحرار العرب بشأن وطنهم. وكل ما وعد به هو أن يقوم بمحادثات مع زعماء العرب محاولاً الحصول على موافقتهم بأن يكون لبنان منطقة نفوذ فرنسية لمدة مؤقتة، وبناء على شروط واضحة تماثل الشروط التي عقدها مع بريطانيا في مراسلاته الأولى بشأن ساحل العراق. وقد أبى إباء شديداً كل ما يتعلق بمساس المناطق الداخلية من سوريا والعراق. وأكد أن كل ما يلزم للدولة يكون منوطاً بها وحدها. وهي التي تقرر من أي الجهات تطلب المساعدات الفنية والاقتصادية وغيرها.

ويجب أن لا يفوتنا، أن الحسين في الأعوام التي تلت الحرب، كان يؤكد بصورة قاطعة أنه لم يسمع بأي اتفاق عقده الحلفاء لاقتسام البلاد العربية. كما أكد أن مباحثات جدّة في أيار ١٩١٧، دارت بالدرجة الأولى حول قبول العرب الاعتراف لفرنسا بمنطقة نفوذ في سواحل سوريا الشمالية، أي في لبنان.

ومما يلاحظ أن موقف الفرنسيين إزاء الملك قد تبدل منذ تلك المحادثات. فقد كانوا يعلقون الآمال على عقد اتفاق معه وتنفيذ سياستهم بموافقته. ولكن عندما رأوا ميله إلى بريطانيا دونهم، وصدوده عن عقد أي اتفاق معهم، أبدلوا سياسة اللين وأخذوا يقومون بالدعايات بين السوريين النازلين في مصر لحملهم على قبول انتداب فرنسا. ولكن هؤلاء أيضاً قابلوا تلك المحاولات بالرفض الشديد.

***

وكان الملك لا يزال يحسن الظن بحلفائه، ولا يخامره الشك في حسن نواياهم تجاه العرب، حتى أنه بعد سبعة أشهر من هذه المحادثات عندما وصلت إليه رسائل جمال تحمل تفاصيل الاتفاقية السرية بين سايكس وبيكو – لم يفعل إلا أن أرسلها بدوره إلى المندوب السامي في مصر سائلاً عن حقيقة الاتفاقية. فأبرق السير ونجت إلى وزارة الخارجية البريطانية بافتضاح

المعاهدة وطلب أن يُعطى تعليمات جديدة. وبدلاً من أن يوضح الانكليز الحقيقة، أرسل بلفور وزير الخارجية يومذاك بنص الجواب الذي يجب إرساله للحسين. وعند وصوله أرسله ونجت مع بريقة منه إلى الحسين هذا نصها:

إن البولشفيك لم يجدوا في وزارة الخارجية في بتروغراد معاهدة معقودة، بل محاورات ومحادثات مؤقتة بين انكلترا وفرنسا وروسيا، في أوائل الحرب، لمنع المصاعب بين الدول أثناء مواصلة القتال ضد الترك، وذلك قبل النهضة العربية. وإن جمال باشا إمّا عن جهل أو تخابث غيّر مقصدها الأساسي. وأهمل شروطها القاضية بضرورة إرضاء الأهالي، وحماية مصالحهم. وقد تجاهل ما وقع بعد ذلك من أن قيام الثورة العربية ونجاحها الباهر، وانسحاب روسيا، قد أوجد حالة جديدة تختلف عما كانت عليه قبلاً كل الاختلاف.

أما جواب الحكومة البريطانية فيعتبر من الوثائق التاريخية الهامة، التي أيّدت حقوق العرب وسرى مفعولها إلى إلغاء معاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور أيضاً. وهذا نصه:

جدة في ٨ شباط ١٩١٨ – ٢٧ ربيع الثاني ١٣٣٦

جلالة صاحب السيادة العظمى ملك الحجاز وشريف مكة وأميرها المعظم

بعد بيان ما يجب بيانه من الاحتشام والتوقير، قد أمرني جناب فخامة نائب جلالة الملك أن أبلّغ جلالتكم البرقية التي وصلت إلى فخامته من وزارة الخارجية البريطانية بلندن، وقد عنونتها حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى باسم جلالتكم، وهذا نصها بالحرف الواحد:

"إن الرغبة والصراحة التامة التي اتخذتموها جلالتكم في إرسال التحريرات – التي أرسلها القائد التركي في سوريا إلى سمو الأمير فيصل وسمو الأمير عبد الله – إلى جناب نائب الملك، كان لهما أعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى. وإن الاجراءات التي اتخذتموها في هذا الصدد لم تكن إلا رمزاً يعبّر عن تلك الصراحة والصداقة التي كانت دائماً

شاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية وحكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى.

ومما لا يحتاج إلى دليل، أن السياسة التي تنسج عليها تركيا، هي إيجاد الارتياب والشك بين دول الحلفاء والعرب، الذين هم تحت قيادة وعظيم إرشادات جلالتكم، قد بذلوا الهمّة الشماء ليظفروا باعادة حريتهم القومية. والسياسة التركية لا تفتأ تغرس ذلك الارتياب بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء يطمعون في الأراضي العربية، وتلقي بأذهان دول الحلفاء أنه يمكن إرجاع العرب عن مقاصدهم. ولكن أقوال الدساسين لن تقوى على إيجاد الشقاق بين الذين اتجهت عقولهم إلى فكر واحد وغرض واحد.

إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاؤها، ما زالت واقفة موقف الثبات لكل نهضة تؤدي إلى تحرير الأمم المظلومة، وهي مصممة أن تقف بجانب الأمة العربية في جهادها، حتى تبني عالماً يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني، وتجتث التنافس المصطنع الذي أحدثته السلطات الرسمية التركية.

إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تكرر وعدها السالف بخصوص تحرير الأمة العربية. فهي قد سلكت مسلك التحرير وتقصد أن تستمر عليه بكل استقامة وتصميم، بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط في وهدة الدمار، وتساعد الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم".

وفي الختام التمس قبول خالص التحيات وعظيم الاحتشامات والتمنيات.

نائب المعتمد البريطاني

الكولونيل باست

وعندما وصلت أنباء وعد بلفور إلى الحسين تأثر جداً، وطلب من حلفائه أن يطلعوه حالاً على كيفية الوعد. وأجاب الانكليز طلبه فأوفدوا إلى جدّة القومندان هوغارت، أحد كبار المسؤولين الانكليز في مصر، فوصل إليها في الأسبوع الأول من كانوا الثاني ١٩١٨، وقابل الملك حسين مرتين، وسلمه رسالة من نائب الملك، أعادت الهدوء إلى نفسه. وقد أيدت الرسالة **المحافظة على حقوق عرب فلسطين السياسية والاقتصادية**، بينما كان الوعد لليهود ينص على تأمين حرية السكان الدينية و المدنية فقط. وهذا ما أعاد الطمأنينة إلى قلب الملك العربي. وأجاب على تلك الرسالة بصراحته المعهودة بأن قال لهوغارت، أنه سوف يستعمل نفوذه لنبذ هذا الوعد مهما كانت وجوهه، كما أنه يوافق على أي نظام يمكن أن يوضع لحماية الأماكن المقدسة من قبل جميع الطوائف التي يهمها أمر فلسطين، وأضاف أن العرب على استعداد لأن يضمنوا سلامة الأماكن المقدسة للأديان الثلاثة، وحرية العبادة فيها.

وفيها يلي نص الرسالة، التي أوصي القومندان هوغارت أن يبلغها إلى الملك حسين. وقد نشرتها الحكومة البريطانية رسمياً في التقرير الذي أصدرته عن مباحثاتها مع الدول العربية بخصوص مراسلات الحسين – مكماهون في ١٦ آذار ١٩٣٩:

١- إن الدول المتحالفة مصممة على أن يُعطى العنصر العربي، فرصة كاملة ليشكل أمة متحدة في العالم مرة أخرى، ولا يُستطاع تحقيق هذا الغرض إلا باتحاد العرب أنفسهم. وستقتفي بريطانيا العظمى وحلفاؤها، سياسة تهدف إلى تحقيق هذا الاتحاد.

وبما أن فلسطين هي موضع الاهتمام فنحن مصممون أن لا يكون أحد الشعبين تحت حكم الآخر، ولكن:

أ- وبما أنه في الحقيقة توجد في فلسطين أوقاف ومزارات وأماكن مقدسة، بعضها تابع في قدسيته للمسلمين وحدهم، وبعضها لليهود وحدهم،

وبعضها للمسيحيين وحدهم، وبعضها مقدس عند الجميع. وربما أن هذه الأماكن هي موضع اهتمام جماهير كبيرة من الناس خارج فلسطين وبلاد العرب، فيجب أن يكون لها نظام خاص يلائم هذه الأماكن ويوافق عليه سكان العالم.

ب-من خصوص مسجد عمر، فسيعتبر في رعاية المسلمين وحدهم، وسوف لا يكون تحت سلطة غير المسلمين، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ج-بما أن الرأي اليهودي العالمي يتوق لعودة اليهود إلى فلسطين، ومن حيث أن هذا الرأي يجب أن يبقى عاملاً دائمياً، وزيادة على هذا : بما أن رأي حكومة جلالته مشبع بالعطف على تحقيق هذا الهدف، فإن حكومة جلالته مصممة أن لا يقف أي حائل في وجه تحقيق هذه الفكرة ما دامت لا تتعارض مع حرية السكان الحاليين من الوجهتين السياسية والاقتصادية.

وبهذا الخصوص، فإن صداقة اليهودية العالمية ستقف موقف التأييد للقضية العربية في جميع الدول التي لليهود نفوذ سياسي فيها. وأن قادة الحركة مصممون أن يجعلوا نجاح الصهيونية مرتكزاً على الصداقة والتعاضد مع العرب. وعرض كهذا جدير بأن لا يهمل جانباً باستخفاف[١].

وفي المحادثات التي دارت في لندن عام ١٩٣٩، بين مندوبي الدول العربية ومندوبي بريطانيا، بشأن مراسلات الحسين – مكماهون، جاء في رد رئيس الوفد البريطاني قوله: " من الصعب أن نرى كيف أن اتفاقية سايكس – بيكو يمكن أن تُعتبر مناقضة لعهودنا مع الشريف". وقد رد السكرتير العام للوفود العربية جورج انطونيوس على هذه النقطة بقوله: "إن اتفاقية سايكس – بيكو شكلت نقضاً للعهود لأسباب عديدة أحدها: أن فلسطين كانت سابقاً

---

(١) مؤتمر فلسطين العربي البريطاني،١٩٤٠، صفحة ٣٧٣. والمقصود بـــ "مسجد عمر" هو الحرم القدسي الشريف. وعبارة "مسجد عمر" اصطلاح غربي يُقصد به مسجد قبة الصخرة. والأصح بطبيعة الحال هو منطقة الحرم التي تضم مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى وما بينهما وحولهما من معالم اسلامية مقدسة.

قد أدمجت في منطقة الاستقلال العربي، وواقع الأمر في أن الحكومة البريطانية أبقت الحسين جاهلاً بموضوع الاتفاقية، يدل على سوء النية حولها. وعندما سمع بالصدفة عن الاتفاقية بعد ابرامها بثمانية عشر شهراً واحتج للحكومة البريطانية، أجابته بمراوغة، وجربت في رسالتين منها له، أن تخدعه وتجعله يعتقد أن اتفاقية كهذه لم توجد فعلاً".

والدليل على اقتناع الحسين بتأكيدات الانكليز وتصديقه لها، أنه أرسل إلى زعماء العرب الموجودين في مصر وإلى قادة جيوش الثورة يقول لهم إنه حصل على تأييد من بريطانيا بأن وجود اليهود في فلسطين لن يتعارض مع استقلال العرب. ويحثهم على متابعة جهادهم لنيل حريتهم. وأذاع منشوراً في جريدة القبلة (عدد ١٨٣ بتاريخ ٢٣ آذار ١٩١٨) دعا فيه سكان فلسطين إلى الهدوء والاطمئنان وإلى التعاون مع الجيش البريطاني.

وكان الحسين يظن بعدما أداه للانكليز من معاونة صادقة في الحرب، وبعد ما قطعوا له من عهود، أنهم سينجزون ما وعدوا به، غير أن الأخبار المثيرة التي كانت تصل إليه بين حين وآخر عن المطامع الفرنسية والحركات الصهيونية، جعلته يفكر في الانسحاب من محالفتهم والتنصل من هذا الموقف الذي كان فيه بين نارين، فقومه يصرّون على الاستقلال التام وعدم مساس أي حق من حقوقهم، ويتهمونه بالتهاون وإذا هو حاول التوفيق بين ما يطلبون وما يمكن الحصول عليه؛ والإنكليز يحاولون أن يجعلوا منه أداة تنفذ مطامعهم في بلاد العرب. وكانت نتيجة هذا الوضع أن أرسل كتاباً إلى المندوب السامي البريطاني في مصر يشرح له فيه غاياته من الثورة مصراً على الاستجابة لها، أو عدم الاستمرار في طلب مساعدته وموافقته. والكتاب يعطينا فكرة شاملة عن وجهة نظر الحسين السياسية، وهو مؤرخ في ٢١ ذو القعدة ١٣٣٦ (٢٨ آب ١٩١٨)، ونصه فيما يلي:

ما رأيته خصوصا في هذه الأثناء من اعتناء فخامتكم في ازالة أسباب دواعي سوء التفاهم الذي لا أرتاب بأن المقصود بذلك الاعتناء، هو صيانة

حسيات مخلصكم خاصة. لذا ولما تكون المواد البسيطة أيضاً من ذلك المعنى، رأيت أن أتبين من حكومة جلالة الملك، في الأساس المقرر مع عظمتها في النهضة، وما بُنيت عليه من مواد الاتفاق المقدمة طيه بيانها، بأني ما طلبت للبلاد أمام حكومة جلالة الملك ما طلبته من المواد، التي تعهدت عظمتها به، رغبة مني في تأسيس حكومة أو تشكيل دولة لأستأثر بحاكميتها أو حرصاً على جاهها أو رياستها. ولكن عندما دعتني بريطانيا إلى ما دعتني إليه، وعلمت أن مقاصدها بهذا أيضاً تأمين مصلحة المسلمين عامة والعرب خاصة، لم يسعني إلا الاجابة. وطلبي أقله تلك المواد المؤدية في اعتقادي لما يأتي:

أولاً – لحفاظة كيان العالم الاسلامي، بالنظر لما حلّ وما سيحل بتركيا.

ثانياً – صيانة العظمة البريطانية من الاستهداف لما سترمى به عكس مقاصدها.

ثالثاً – سلامتي من الاتهام بالتواطؤ معها ضد الأساس المقصود بالنهضة.

نعم، إني لم أجد من جناب الفاضل الأديب المستر ستورس عند اجتماعي بحضرته في السنة الأولى بجدّة، ثم بعده بحضرة الشهم الهمام السير مارك سايكس، ثم في السنة الماضية بالقومندان الهمام هوغارت الموقر، ما يشير إلى ما يخالف أو يخلّ بتلك المقررات، غير أن ما في طبيعة مشروعنا، وتتماته الحياتية من الرقة، وما يصادفها من بعض حالات يستدعي سياقها زيادة تعيين الأمر وتأكد الحقيقة عن الحدود فقط. وإلا باقي المواد، فإننا نعجز عن اداء شكر الوفاء بها شكراً يملأ الخافقين خصوصاً أمر الاعانة، عما لو فهمت الغلط في مقرراتنا المذكورة أساساً أو حدث ما يوجب تعديلها– الأمر الذي لا أقول أنه يمس كيان العالم الاسلامي ولكن أظن – وبعض الظن إثم – انه لا يخلو من شيء من ذلك. هذا على فكري الخصوصي، فمتى أضفنا عليه تظاهر عجزي بعدم حصول ما كان يؤمل من النتائج، يتحتم عليّ الانسحاب من الأمر والتنازل عنه، لاعتقادي الشخصي أن تعديل مقرراتنا المذكورة، بصرف النظر عما في إخلاله بالغايات المقصودة، وعرضتنا لحذر موادّنا الثلاث آنفة البيان، وطمس صحيفة تاريخي، فهو يزيل ويسقطني من ثقة واعتماد بلادي

وأقوامي الأقربين، حينما يظهر لهم عكس تلك المقررات التي أعلنتها لهم وصرّحتُ بها شفاهاً وتحريراً في ظرف هذه المدة، وأسّست عليها الاعمال. وأكون خدعت نفسي وغششتكم يا أصدقائي، بما وراء هذا من اضطراب البلاد بالفتن والثورات ونحوه، مما لا يمكن لي معه حتى الاستفادة لذاتي. وما يزيل كل ظن حكومة جلالة الملك بي. وأكيد إخلاصي يجبرني أن أقول من الآن أن مبادئ هذه الخطرية على وشك التحسس بها، بالنسبة للطلبات المتكررة المختلفة عن أمرهم باعلان استقلال بلادهم. ولم أجد ما أدفعهم به إلا قولي أن استقلالي هو استقلال عموم أنحاء البلاد، ولكنهم يقيمون الحجة على دفع هذا بأوجه أخر.

وعليه، فإن كان ولا بد من التعديل فلا لي سوى الاعتزال والانسحاب، ولا اشتبه في مجد بريطانيا بألا يتلقى هذا منا، إلا أنه أمر يتعلق بالحياة، لا لقصدٍ عرضي أو فكر غرضي وأنها لا ترتاب في أني وأولادي أصدقاؤها الذين لا يتغير ولاؤهم واخلاصهم، ثم تعيّن البلاد التي تستحسن اقامتنا فيها للسفر إليها في أول فرصة إن رأت ذلك. ولكن مشاكل الحرب الحاضرة تقضي بتأجيله إلى ختامها. فمعروفها وجميل مكارمها يفرض علينا الثبات أمام ما سيتضاعف علينا من المهمات ونحوه من العموم، مما لا مقاومة لدينا أمامها إلا بحسن النية.

أما عطف الأمر وتعليقه بمؤتمر الصلح، فالجواب عليه من الآن، بأن لا علاقة لنا به ولا مناسبة بيننا وإياه حتى ننتظر منه سلباً أو إيجاباً. ولو قرر المؤتمر المذكور أضعاف مقرراتنا، وكان ذلك من غير وساطتكم وقلبناها، فنكون من المطرودين من رحمة الباري جل شأنه، الرقيب على قولي هذا، الذي أتوسل إليه الآن أن يتولانا جميعاً بعنايات رأفته.

***

ما أحسب إلا أن الحسين كان مع حلفائه مخلصاً شديد الاخلاص بدليل هذا الكتاب وأمثاله، مما لا حاجة به للتعليق. ولكن الذي يلفت النظر أن الانكليز استمروا في مراوغاتهم وتضليلهم وطلبهم له بالانتظار حتى أدى

ذلك إلى نتائج وخيمة لم تقتصر عليهم وعلى الحسين شخصياً، ولكنها تعدّت ذلك واتسعت، حتى أصبحت نزاعاً دموياً بين العرب من جهة وفرنسا وبريطانيا من جهة أخرى.

– ٧ –

من المدينة الى دمشق

استقرت جيوش العرب حول المدينة المنورة، تحاول تضييق الحصار عليها ولا تجسر على الدنو منها، لكثرة القوات الموجودة فيها، ولقلة الجنود النظاميين بين العرب. ولم يكن أمام العرب إلا انتهاج أحد سبيلين لفتح المدينة بعد أن انتهى عنصر المفاجأة: (١) مهاجمتها بالجنود النظامية وضربها بالمدافع الثقيلة حتى تضطر حاميتها إلى التسليم أو (٢) محاصرتها بشدة وقطع الامدادات عنها من الشمال، وعدم السماح لقوافل ابن الرشيد بالعبور إليها، حتى يضطر الجوع حاميتها إلى طلب التسليم. ولم يكن بمقدور العرب تنفيذ إحدى هاتين الوسيلتين بسبب عدم وجود قوات نظامية منهم تقوم بالهجوم، إذ كانت جيوشهم مؤلفة من عربان القبائل، كما أنه لم يكن لديهم مدافع ثقيلة يمهدون بها للهجوم. والقوات التركية كانت متمركزة في خنادقها وتحصيناتها بحيث لم يكن من السهل إيقاع الهزيمة بها.

ثم كانت هناك عوامل كثيرة أخرى، أهمها عدم الرغبة في ضرب المدينة بالمدافع، خوفاً من هياج مسلمي العالم إذا علموا بتضرّر الأماكن المقدسة، وخشية أن يؤدي الحصار الشديد إلى هلاك سكان المدينة العرب جوعاً. كما أن الانكليز ما كانوا يرتاحون إلى أسر القوات التركية ونقلها إلى مصر، وما كانت تقل عن ١٤ ألف مقاتل، مما يكلفهم نفقات باهضة في طعامهم وحراستهم. كما أنهم كانوا يعارضون بشدة في انسحاب الاتراك إلى سوريا، خوفاً من أن تؤدي اضافتهم إلى القوات التركية فيها، إلى زيادة المصاعب في وجه الجيش البريطاني.

ثم أن الفرنسيين أيضاً ما كانوا يرتاحون إلى تقوية الثورة تقوية شاملة، لئلا يقف العرب في وجه مطامعهم المكتومة بعد انتهاء الحرب. يؤيد هذا ما رواه لورانس في كتابه بهذا الصدد، اذ قال: "كنت أتحدث إلى بريمون عن الحاجة إلى مهاجمة المدينة بسرعة، مؤكداً أن سقوطها تمهيد ضروري لنجاح الثورة العربية فيما بعد، فأجابني بريمون بحدّة قائلاً: ليس من صالح العرب الاستيلاء على المدينة لأن حركتهم أدّت المقصود منها بمجرد اعلان الثورة في مكة. وأوضح رغبته في أن ينزل الحلفاء جيشاً في رابغ لكي يكون الشريف عرضة للارتياب في عيون القبائل، حتى إذا انتهت الحرب بهزيمة تركيا واستسلام جنودها، استطاع الحفاء تقديم المدينة للحسين مع تاج له على الحجاز، مكافأة على الخدمات التي أداها".

ويتحدث لورانس عن محاولة الأتراك الأولى للانسحاب فيقول: "وتلقيت رسالة من كلايتون ومعها صورة برقية مطولة من جمال باشا إلى فخري باشا يأمره أن ينسحب من المدينة تدريجياً على مراحل من الهدى إلى العوالي إلى تبوك حتى يصل إلى معان. ويقول كلايتون إن جميع الجهود يجب أن تبذل إما لاحتلال المدينة وأسر قواتها، وإما منع الحامية من الانسحاب. ومع أني كنت موقناً أن انسحاب الأتراك سيكون في صالح الثورة العربية، إلا أن جيشنا الزاحف من مصر كان يواجه ٢٥ ألف اناضولي، بالاضافة إلى امدادات جديدة وصلت إلى بير السبع، ولما لم يكن في مقدور العرب الاستيلاء على المدينة فلم يبق إلا أن نحاول منع حاميتها من الانسحاب. ثم أن اسرهم سيكلفنا غالياً... ولا مانع من ان يبقى الأتراك في المدينة، وفي أي مكان بعيد، وان تبقى سكة حديدهم دائبة الحركة، ولكن إلى حدٍّ ما، مع أقصى درجة من الخسارة والاضطراب. وبناء على كل ما تقدم ذهبت إلى فيصل وأوضحت له حقيقة الموقف، وقلت له أن مصالح الحلفاء تتطلب التضحية في هذه الحالة وتأجيل الفائدة الحربية للعرب، فنهض بدافع الشرف وأكد لي أنه سيعمل كل ما في وسعه في هذا السبيل".

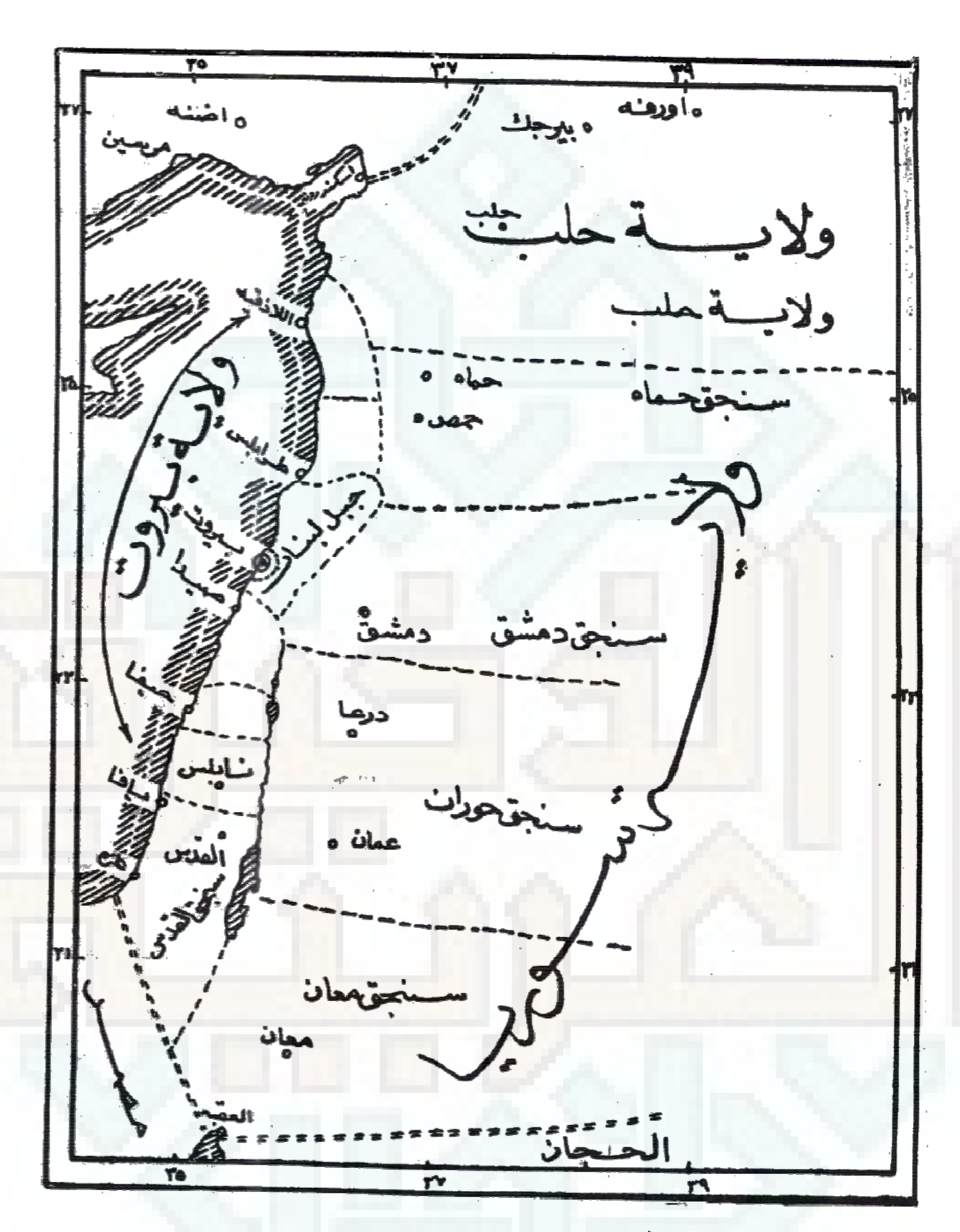
وفعلاً قام العرب بسلسلة من التخريبات والهجمات عطلت الخط

الحديدي في مواضع عديدة، وأقنعت الأتراك بعدم امكان الانسحاب، كما أن قوات عربية بقيادة الأمير زيد أسرت قافلة تركية على بعد ٨٠ ميلاً شمال شرقي المدينة، وغنمت ثلاثة آلاف جمل محملة بالمؤونة والملابس و٢٥٠ اسيراً. غير أن الأتراك كرّروا المحاولة في العام التالي. ففي أواسط آذار ١٩١٨ وصلت الأنباء أن الأتراك يعملون على الانسحاب إلى معان، لكي يتاح لهم القيام منها بهجوم كاسح على قوات فيصل وتقوية خطوطهم المقابلة للجيش البريطاني. ولما كان هذا سيضر حتماً بموقف جيش الجنرال اللنبي، فإن القوات العربية تعاوناً منها مع حلفائها، قامت بعدة هجمات قوية جعلت انسحاب الترك مستحيلاً. وفي أوائل نيسان خرّب العرب خط سكة الحديد بين عمان ومعان، ومن معان جنوباً إلى محطة المدورة تخريباً كان من الصعب على الأتراك اصلاحه. وشمل هذا نزع أكثر من ٣٠٠٠ قضيب من قضبان السكة وأكثر من خمسين جسراً، وقام العرب بهجمات قوية على خطوط الأتراك حول معان، حتى تمكنوا من عزلها عن المناطق الأخرى.

وقامت قوات الأميرين علي وعبد الله بدورها في احباط المحاولة التركية. فهاجمت في أيار وحزيران مراكز الأتراك هجمات قوية، وحصلت معركة شديدة بين قوات ابن الرشيد والأمير عبد الله في تيماء، أسفرت عن انهزام ابن الرشيد، وفي تموز حاول الترك امداد حليفهم بقوة من المشاة والفرسان فهاجمها الأمير عبد الله، وكانت النتيجة أن ذهب جميع أفرادها بين قتيل وأسير.

من المعلوم أن احتلال العرب للوجه كان نقطة تحول في عمليات العرب العسكرية، وفيها صار تأليف قواتهم النظامية الرئيسية. وبعد أن تمركزت قوات علي وعبد الله حول المدينة، أصبح في مقدور الجيش الشمالي المرابط في الوجه أن يزحف شمالا باتجاه سوريا، وأخذ الانكليز يواصلون امداداتهم له لكي يكون في مقدوره تخفيف الضغط عنهم.

وقام هذا الجيش بمساعدة الضباط الانكليز الفنيين بسلسلة من التخريبات في السكة الحديدية. وفي أوائل آذار ١٩١٧ هاجمت سرية عربية قلعة المعظّم، وهي إحدى محطات سكة الحديد، ولكنها اضطرت إلى التراجع بعد أن نسفت الخط لشدة دفاع العدو.



تقسيمات سوريا الإدارية في عهد الاتراك

١- ولاية حلب وعاصمتها حلب ٢- ولاية سوريا وعاصمتها دمشق، وهي مؤلفة من أربعة سناجق: سنجق حماة، سنجق دمشق، سنجق حوران، سنجق معان ٣- ولاية بيروت وعاصمتها بيروت، وهي مؤلفة من سناجق : اللاذقية، طرابلس، صيدا، عكا، نابلس.

٤-سنجق القدس المستقل ٥- جبل لبنان ادارة خاصة.

وفي التاسع من أيار سارت حملة صغيرة على رأسها الشريف ناصر مندوباً عن فيصل وعوده أبو تايه ونسيب البكري ولورانس. وحط الشريف ناصر رحاله في كاف بوادي السرحان يبث الدعوة بين القبائل السورية، وأما عوده فقد ذهب ليجمع رجال قبيلته الحويطات، وقصد نسيب إلى جبل الدروز. ثم جاء عوده إلى باير ومعه ٥٠٠ فارس، ووافاه إليها ناصر. وفي ٣٠ حزيران تقدم عوده ورجاله جنوباً إلى موقع أبو اللسن فهاجموه، وقتلوا من لم يستسلم من أفراد حاميته. وبعد ذلك واصلوا زحفهم على العقبة، وفي طريقهم إليها استولوا على أربعة مراكز للأتراك بعد أن قتل من هؤلاء ٦٠٠ رجل واستسلم ٧٠٠ أسير. وفي ٦ تموز ١٩١٧ دخلت هذه القوة العربية العقبة.

ويعدّ الاستيلاء على العقبة أهم حادث عسكري للثورة بعد سقوط الطائف. ورافق سقوطها تولي الجنرال اللنبي قيادة الجيش البريطاني، فأدرك المغزى العظيم لاستيلاء العرب على هذا الموقع المهم، إذ اصبحوا بذلك يشكلون جناحه الأيمن. وقد نقل فيصل مركز قيادته إليها في آب، وأقام فيها مدة ستة أشهر يدعم جيشه النظامي ويقويه. ولكن العمليات الحربية باشراف ناصر وعوده كانت لاتفتر خلال هذه المدة.

وفي أوائل شهر أيلول، احتل العرب القويرة، واحتل اللواء الهاشمي وادي موسى، فجهز الترك حملة عسكرية لاسترداده، ولكن العرب هزموها. وفي تشرين الثاني استولى العرب بقيادة مولود مخلص على عين وهيدة، ثم على محطة جرف الدراويش وفي شباط ١٩١٨ استولت قوات الأمير زيد على الطفيلة، فأرسل الأتراك الأميرالاي حامد فخري على رأس فرقة تركية لاستردادها، فأوقع بها العرب هزيمة منكرة. ودارت معارك مريرة حول معان وقد حصنها الأتراك وشحنوها بالمقاتلين.

وفي أواسط ١٩١٨ كانت قوات فيصل النظامية تزيد على ٨٠٠٠ جندي نظامي، يساعدهم الفنيون الأنكليز مع بعض السيارات المدرعة، ومفارز

رشاشة وإشارة، عدا القوات غير النظامية التي هبّت من جميع البلاد، وخاصة قبيلة الرولة بقيادة نوري الشعلان، كما أن سكان جبل الدروز وحوران كانوا على استعداد للقيام في وجه الأتراك. وفي أوائل أيلول نقل فيصل مركز قيادته إلى الأزرق.

***

ولا يفوتنا أن نذكر المحاولات التي قام بها الأتراك، لعقد صلح منفرد مع العرب، بعد أن تيقنوا من عجزهم عن سحق الثورة.

وبالرغم من أن جمال السفاح كان كثيراً ما يقول، كلما ذكرت الثورة العربية: "ليس بإمكاني إلا أن اطلب سخط السماء ونقمتها على الشريف حسين وأولاده، إذ لولاهم ما تمكن الانكليز من عبور قناة السويس". وبالرغم من محاولاته اليائسة للقضاء على الثورة عسكرياً، ومن قسره بعض علماء سوريا على اصدار فتوى بتكفير الحسين، بالرغم من كل هذا، فإن الثورة مضت في طريق النجاح، والتفّ العرب حولها بقلوبهم.

وفي ١٤ تشرين الثاني ١٩١٧ أُذيع بلاغ رسمي عام بإمضاء جمال، يدعو فيه جميع العرب الذين شهروا السلاح مع الملك حسين، إلى الاستسلام، واعداً كل من يرجع منهم خلال ثلاثين يوماً بالعفو التام والحرية المطلقة.

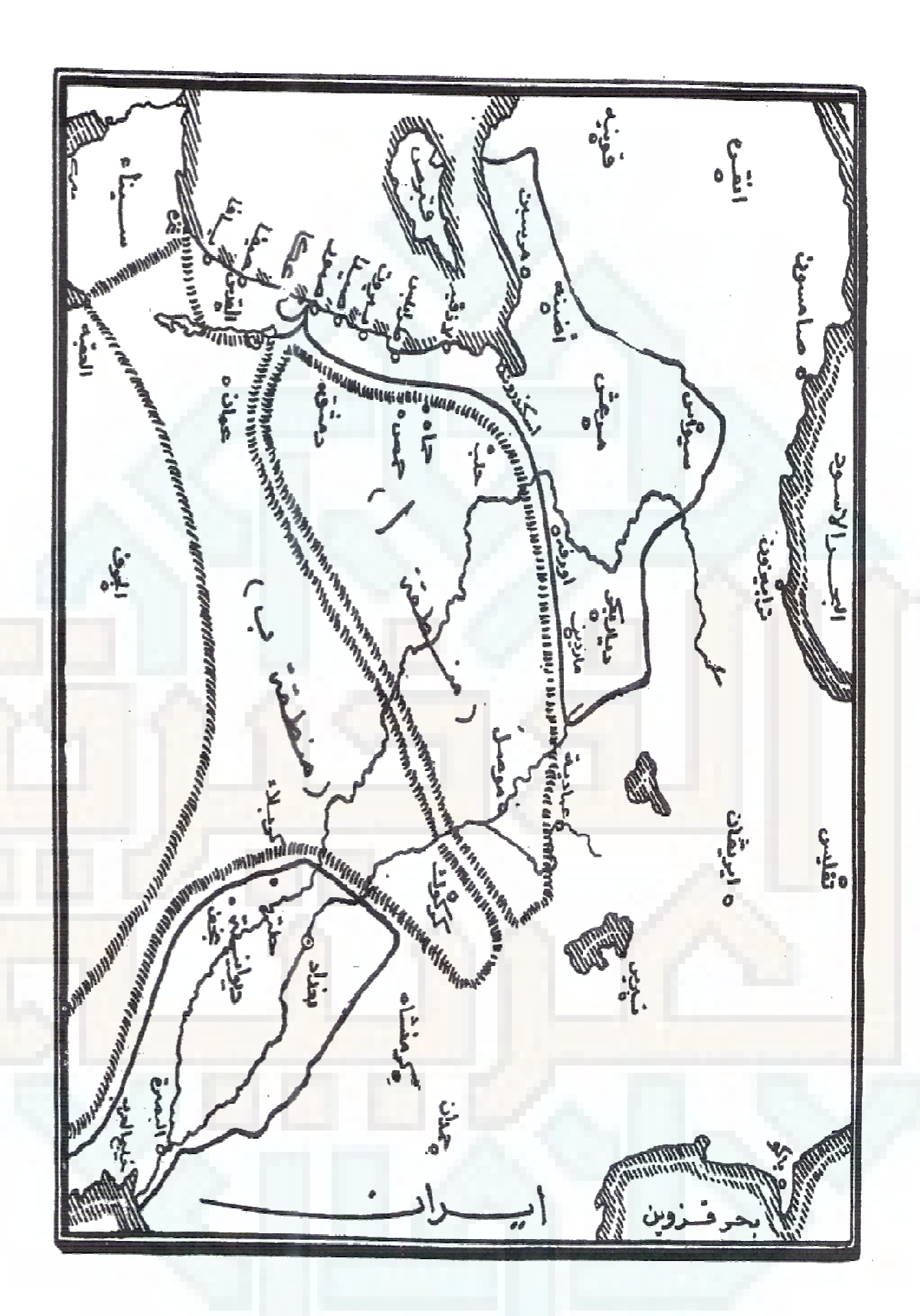
وعندما أذاع رجال الثورة الروسية نصوص الاتفاقيات السرية، بدأ الأمل عند جمال بامكان عقد صلح منفرد مع العرب. وفي ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٧، أرسل رسالتين: إلى الأمير عبد الله وإلى الأمير فيصل، وقد ضرب في رسالتيه على وتر الشعور الديني، قائلاً: بما أن الاشراف هم قادة الأسلام فالخير في أن يعودوا إلى حضيرة الامبراطورية العثمانية، على أن يكون لهم استقلالهم الداخلي، فيصونون بذلك البلاد الأسلامية من العدوان الأجنبي. وأعلن أن تركيا مستعدة لمنح جميع العرب استقلالهم بضمانة المانيا. ثم دعا فيصل لزيارة دمشق للتفاوض معه، واعداً بشرفه أن لا يمسه أي ضرر إذا فشلت المفاوضات. وعرض لاتفاقية سايكس - بيكو بقوله أنه لن يكون نصيب

العرب من معاضدتهم لبريطانيا إلا اقتسامها لبلادهم بالاشتراك مع فرنسا وروسيا.

لم يجب الأميران عبد الله وفيصل على رسالتي جمال، بل بعثا بهما إلى والدهما، وكان الحسين يرى أن لا خير في الاتفاق مع الترك، ولا سيما أن كفّتهم في الحرب لم تكن راجحة. ثم أنه لم يكن واثقاً من صدق وعودهم. ولذلك أرسل الرسالتين إلى مصر سائلاً عن ماهية الاتفاقية المذكورة. وقد أبرق السر ريجنالد ونجت إلى وزارة الخارجية بالأمر، وكان أمامها فرصة عظيمة لتضع الأمور في نصابها، وتوضح للحسين حقيقة الموقف دون مراوغة، ولكنها لم تفعل.

وواصل الأتراك محاولاتهم لعقد صلح منفرد مع العرب، فأرسل جمال باشا الصغير – وكان قد خلف أحمد جمال السفاح – رسالة مؤرخة في ١٥ آب ١٩١٨ مع الأمير سعيد الجزائري إلى فيصل، وطلب جمال من فيصل في هذه الرسالة أن يتمعن في المقترحات التي سيعرضها عليه. وفي ٢٠ آب تقابل فيصل وسعيد، وبعد مداولات أعطاه جواباً جاء فيه: إن الرسائل التي نتبادلها منذ تسعة أشهر بقيت عرضة للتسويف ولم يبق أمل بالاتفاق، غير أن مساعي الأمير سعيد قد أحيت في نفسي بعض الأمل... وبعد أن يعرض لموقف الترك الخطر يقول: "إن العرب لا يطلبون إلا أن يعيشوا أحراراً في بلادهم، وأن يضعوا أيديهم بأيدي الترك، وتكون حالهم معهم كحال بافاريا مع بروسيا. فإذا كانت حكومتكم مستعدة لقبول هذه الشروط فنحن على أتم استعداد للدخول في مفاوضات الصلح، وإلا سنرجع إلى اصدار الفتاوى المزيفة ونصب المشانق".

وعاد الأمير سعيد إلى السلط، واطلع جمال الصغير على ما وقع وسلمه الكتاب. فجمع هذا هيئة أركان حربه وقرروا إرسال برقية إلى الآستانة بوجوب الاعتراف باستقلال العرب. وقد وضعت الحكومة مشروعاً بذلك، رفعته إلى السلطان فأقرّه، ولكن الانكسار الكبير في سورية كان قد حصل



اتفاقية سايكس بيكو التي عقدت عام ١٩١٦.

(١) المنطقة الزرقاء – احتلال فرنسي مباشر (الساحل السوري وجزء من تركيا).

(٢) المنطقة الحمراء – احتلال بريطاني مباشر (العراق ومينائي عكا وحيفا).

(٣) منطقة أ – تحت الاشراف الفرنسي (سوريا الداخلية وشمال العراق).

(٤) منطقة ب – تحت الاشراف البريطاني (من شرق الأردن حتى كركوك).

(٥) فلسطين – ادارة دولية.

يومذاك فبقي المشروع على حاله[1].

وعندما عزم اللنبي على القيام بهجومه الكبير في ١٩ أيلول ١٩١٨، كانت الخطة بالاتفاق مع فيصل، أن يقوم العرب بالهجوم من ناحيتهم قبل الموعد، ليخففوا الضغط عن الخطوط المواجهة للانكليز. وعليه ففي ١٦ أيلول قام العرب بقطع الخط الحديدي بين المفرق ودرعا، وهي أهم مركز مواصلات خلف خطوط الترك، فارتبكت مواصلات العدو. وفي ١٩ أيلول بدأ اللنبي هجومه، وثارت بلاد حوران في وجه الأتراك، وعُزلت معان وعمان، وفي ٢٣ أيلول استولى العرب على معان وفي ٢٧ منه استولوا على درعا وأخذوا ٣٥٠٠ أسير في يومين. وفي ٣٠ منه وصلت طلائع العرب إلى ضواحي دمشق ودخلتها في اليوم التالي باسم الملك حسين. ودخل العرب مدينة حلب يوم ٢٦ تشرين الأول. وزاد عدد الأسرى الذين وقعوا في أيديهم في هذا الميدان عن ٢٠ ألف جندي وضابط.

أما في المدينة المنورة، فقد ظلّت قوات الأتراك ترابط فيها وفي محطات سكة الحديد، بينما كان جيشا الأميرين علي وعبد الله، يضربان طوق الحصار حولها ويشنّان الهجمات بين الحين والآخر، وكان الجنود والضباط الأتراك يفرّون أحياناً إلى العرب. إلى أن عُقدت الهدنة بين الحلفاء والدولة العثمانية يوم ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨. وقام الأمير بابلاغ فخري باشا نص معاهدة الهدنة ودعاه إلى التسليم، فأبى، وبقي مصراً على الرفض، حتى بعد أن أمره وزير الحربية العثماني رسمياً بالتسليم.

وأخذ الجيش العربي يضيق الحصار، وكان الأتراك في أشد حالات الضنك. وما أن علم ضباطهم بالهدنة، حتى أخذوا يستسلمون أفواجاً مع

---

(١) تجد رسالتي جمال إلى عبد الله وفيصل، في كتابي : المراسلات التاريخية، المجلد الأول، ١٩٧٣، ص ص ١٠١ – ١٠٢. أما رسالة جمال باشا الصغير وما حدث نتيجة لها، ففي مذكرات الأمير سعيد الجزائري: جهاد نصف قرن (تحرير أنور الرفاعي)، المطبعة العمومية بدمشق (١٩٦٠)، الصفحات ٨٤ – ٩٤.

وحداتهم إلى العرب، مما اضطر فخري إلى التراجع من منطقة العلا في أوائل كانون الأول. ثم تتابع فرار الوحدات فجلا الأتراك عن العوالي وعن بير الماشي أيضاً. ولم توالى فرار القوات وسرت روح التمرد بين أفراد الجيش، أُسقط في يد فخري باشا، فأرسل وفداً يوم ٤ كانون الثاني ١٩١٩ إلى بير درويش مقر الأمير علي للمفاوضة ثم سلم نفسه. وابتدأ بعد ذلك تسلّم الأسرى، وانتهت عملية التسليم يوم ١٣ شباط. وقد نُقلت القوات التركية إلى ينبع ومنها بالبحر إلى مصر. واستسلمت خلال هذه المدة قوات الأتراك في تبوك وبقية الحاميات الأخرى على طول سكة الحديد حتى معان. ولم يقل عدد الأسرى عن ١٥ ألف جندي بين المدينة ومعان.

وأُمضيت اتفاقية التسليم يوم الثلاثاء ٧ كانون الثاني ١٩١٩، وعندما تم نزوج القوات التركية، دخل العرب المدينة باسم الحكومة العربية الهاشمية، وعُيّن الأمير علي اميراً عليها.

ولا يُعتبر حصار العرب لقوات الترك في المدينة، أقل أهمية من عمل جيوش الميدان الأخرى، فإن هذا الحصار عطل للأتراك قوات كبيرة من جنودهم، كانوا في أشد الحاجة إليها إبان الهجوم البريطاني. ولولا جنونهم بحب التظاهر أمام العالم لما أصابهم هذا الفشل الذريع في ميدان سورية.

– ٨ –

في الميزان

ما من شك أو خلاف في أهمية الثورة العربية التي قادها الحسين، ولا جدال في أن الثورة كانت عامة وقوية ارتكزت عليها النهضة العربية الحديثة. والشعور القومي بين العرب لم يبلغ منذ قط منذ عدة قرون ما بلغه يوم أن أطلق الحسين عقال الثورة على الاستعباد العثماني، وعلى دول أوروبا التي حاولت التحكم في مصير الشعب العربي بعد ذلك. ويمكن اجمال نتائج الثورة فيما يلي:

١- معنويا

يمكن القول أن اعلان الحسين الثورة كان كنذير الدينونة للاتحاديين، حيال شعوب الأسلام في العالم. إذ أحدثت رجة عظيمة في الهند وافريقيا. وبذل الحسين نفوذه المعنوي في القضاء على الدعايات المضادّة، وأرسل الشيخ عباس مالكي إلى الحبشة بطلب من الحلفاء، فقام بنشر الدعوة للشريف وحلفائه. وهيأ الشيخ أزهر لارساله إلى بلاد التركستان، لولا أن الانقلاب الروسي حال دون سفره. ووزع الانكليز آلاف النسخ من المناشير التي كتبها الحسين داعياً العرب إلى مناصرة الحلفاء. وألقت الطيارات كثيراً من النسخ على خطوط الترك في فلسطين. وأرسل الحسين مندوبين عنه إلى قيادة الجيش البريطاني، للاتصال بالعرب المدنيين وحثهم على التعاون مع الجيش الحليف في زحفه، وكان على رأس هؤلاء المندوبين أحد أبناء عمومته الشريف عبد الله بن حمزة. وبذلك وجد الانكليز أنفسهم بين أصدقاء يرحبون بهم، مما ساعدهم كثيراً في تنفيذ خططهم الحربية. ولا تنحصر أهمية الثورة في أنها فتحت للذهن العربي آفاقاً جديدة فحسب، ولكنها تتعدّى ذلك بكونها قامت دعامة قوية أسند عليها الحلفاء أملهم بالنصر في ميادين الشرق.

٢- عسكريا

كانت النتائج العسكرية للثورة بالغة الأهمية : وأدت للحلفاء أضعاف ما كانوا ينتظرون منها، ويستدل من الوثائق التاريخية، أن جيوش العرب عطّلت وأسرت وقتلت من القوات العثمانية ما يزيد على ٤٠ ألف مقاتل، وعو عدد ضخم نسبياً، ما كان الانكليز يستطيعون مجابهته في ميدان واحد، مع القوات العثمانية في فلسطين. ويمكن أن نتصور أهمية عمليات العرب العسكرية، إذا عرفنا أن الجيش البريطاني المؤلف من ٦٩ ألف جندي وضابط معهم ٥٤٠ مدفعاً، كان يواجه ثلاثة جيوش عثمانية (الرابع والسابع والثامن) وتتألف من ٢٥ ألف جندي وضابط، معهم ٣٤٢ مدفعاً. أما الجيش الشمالي بقيادة فيصل فكان يواجه ٦ آلاف جندي وضابط معهم ٣٠ مدفعاً (في معان وخط سكة

الحديد إلى الشمال منها حتى عمان). وهذا يعني أن جيش الثورة الشمالي كان يواجه قوةً تعادل ربع القوات العثمانية في الجيوش الثلاثة، أي أنه كان يسدّ مكان ١٦ الف جندي وضابط بريطاني في جبهة القتال. ومع ان الجنرال وايفل (مؤلف الكتاب الذي استندنا إليه في اعطاء هذه الأرقام) يقول أن جيش فيصل كان يضم نحو ٨ آلاف من الجنود والضباط النظاميين، إلا أن العدد الفعلي كان لا يتجاوز نصف هذا الرقم[١].

ومهما قيل في أمر مساعدة الحلفاء للعرب، فإنها لا تساوي تضحيات العرب التي كانت أثمن من الذهب، الذي تدفق إلى الخارج مرة أخرى. إن الانكليز ساعدوا الثورة بالمال والسلاح والضباط والمؤن، ولكن تلك المساعدة لم تكن كافية. ومن يطالع برقيات الحسين يرى شدّة الحاحه في طلب المزيد، واضطرّه ذلك لأن يؤكد لهم أنه لا يبتغي التجارة والكسب من وراء مساعداتهم.

و يعترف تاريخ الحرب الرسمي، أن مصاريف الثورة العربية لم تزد عن عشرة ملايين جنيه، فهل يمكن أن نعدّ هذا المبلغ عظيماً إذا عرفنا أن ما صرفته بريطانيا على جيشها الذي فتح فلسطين بلغ ٧٥٠ مليون دينار؟ وأن ما صرفه الانكليز لاخماد الثورة العراقية بلغ ٤٠ مليون دينار؟

نعود هنا إلى إثبات أقوال بعض الرجال المسؤولين، الذين عاصروا الثورة أو كتبوا عنها. ونبدأ أولا باللورد سيسل وزير الحصار البريطاني. فقد خطب في مجلس اللوردات عن الثورة في أواخر الحرب خطبةً طويلة جاء فيها:

كان للترك عند اعلان الثورة في الأقطار الحجازية جيش نظامي مؤلف من عشرين ألف جندي، مزود بالمدفعية المناسبة وكل لوازم النقليات والمواد

---

(١) بشأن أعداد قوات الجيوش المتقابلة في فلسطين وشرقي الأردن، في أوائل شهر أيلول ١٩١٨، يمكن الرجوع إلى كتاب الجنرال ويفل A.P Wavell: The Palestine Campaigns, Constable Ltd., London, 1935. الصفحات ١٩٤ – ١٩٥ و ١٩٩.

الغذائية والعتاد؛ علاوة على سكة الحديد التي تصل الجيش المذكور مع مراكزه الشمالية ، وبالرغم من أن العرب لم يكونوا منظمين ولا مزودين بالأسلحة الحديثة، فقد تمكنوا منذ أول الحركة من الاستيلاء على جدّة، ومكة والطائف، وينبع، والوجه، والعقبة، وتيماء. وعلى أثر ذلك انضم إلى جانب جلالة ملك الحجاز كثير من القبائل العربية، وتطوع كثير من الضباط والجنود العرب المأسورين عندنا في الجيش العربي. فشكّل جلالته منهم قوة متمرنة مستديمة ليحفظ بها ما استولى عليه ويوسّع نطاق الاستقلال العربي. ولقد كانت نتيجة المجهود الذي بذله هذا الجيش القومي بقيادة أصحاب السمو علي وعبد الله وفيصل وزيد أن سواحل البحر الأحمر طُهّرت من الأتراك على مسافة ٨٠٠ميل – والخسائر التي ألحقت بالأتراك حتى الآن جسيمة جداً ، ويمكننا أن نقول بكل اطمئنان، إن القوات العربية قد حصرت وأسرت وشاغلت ٤٠ ألف جندي تركي وغنمت أكثر من مئة مدفع. وبالرغم من انهماك الحجازية في الجهاد في سبيل الاستقلال، فقد تسنّى لها افتتاح عهد جديد من النظام والترتيب لم تعرفهما الحجاز تحت سلطة الأتراك. وقد نجحت الحكومة العربية باتخاذ التدابير اللازمة لتسهيل الحج في السنتين الأخيرتين، ولقي الحجاج من ضروب الرفاهية والعناية الطبية ما لم يسبق لهم التمتع به من قبل. وكان الحج في كلتا السنتين سالماً من الأوبئة والتعديات العادية والاضطرابات.

وجاء في التقرير الرسمي الذي أرسله اللورد اللنبي سنة ١٩١٨ إلى وزارة الحربية البريطانية عن أعمال الجيش العربي ما نصه:

أشكر لجلالة الحسين بن علي ملك الحجاز اخلاصه العظيم لقضية الحلفاء، ولا أملك نفسي عن توجيه عاطر الثناء إلى سمو الأمير فيصل، لما أبداه من مهارة في الأعمال العسكرية التي قام بها الجيش العربي، تلك الأعمال التي ساعدت الحلفاء مساعدة كبيرة في الحصول على نتائج فاصلة في الحرب.

ويقول مستر لودر في كتابه عن النهضة العربية وفوائد الثورة ما يلي:-

تعتبر الفائدة الحربية التي اكتسبها الحلفاء من الثورة العربية بانتصارهم على الترك، بالدرجة الثانية من الشأن بالنسبة إلى فائدتها السياسية. وقد اتضح أن الشريف باعلانه الثورة وشقّه عصا الطاعة على الترك، شجّع غيره من الأمراء لكي يحذوا حذوه، وقدم ملجأً للناقمين على الحكومة العثمانية في المناطق العربية غير المحتلة يلجأون إليه ويشتركون في محاربة أعدائهم[١].

هذا ما اعترف به الانكليز علاوة على ما جاء في تاريخهم الرسمي. ويجدر بي أن أنقل هنا بضع كلمات للأعداء كما نقلت للأصدقاء، لكي تكون الشهادة صحيحة من جميع الوجوه. وأول من أنقل له الجنرال فون كريس الالماني رئيس أركان حرب جمال باشا، ومؤلف كتاب (حروب يناء). فقد قال: لولا الثورة العربية لما استطاع الانكليز دخول فلسطين، لأن الجنود الذين كان العرب يشاغلونهم من درعا إلى المدينة كانوا أكثر عدداً من جنود جبهتنا الفلسطينية.

وكتب مدير شعبة الاستخبارات التركية في الجيش الرابع بحثاً طويلاً، وصف بها أعمال العرب العسكرية، ومهاجمتهم للترك، قال في نهايته:

" ولولا وجود جيش عربي، وقف موقف العداء من الترك في جزيرة العرب وفي ساحة حربية طولها ألف كيلو متر، لما تمّ للجيش البريطاني، إحراز ما أحرزه من النصر بهذه السرعة العظيمة وبدون كبير عناء. والى الجيش العربي يعود الفضل في بلوغ الانكليز قلب البلاد العربية واحتلال القدس وجناحهم الأيسر مكشوف. ولولا هذا الجيش لكان في استطاعة الترك القيام بحركة التفاف على الجيش البريطاني واجباره على التقهقر.

هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى، فقد عطل العرب للترك نحو أربعين ألف مقاتل، عدا الرشاشات والمدفعية والمحطات اللاسلكية والطيارات. فلو وقفت هذه القوات في وجه الجنرال اللنبي. هل كان في

---

(١) القول الحق – تأليف لودر وتعريب نزيه المؤيد العظم، المطبعة الحديثة، دمشق، ١٩٢٥، صفحة ٢٣.

امكانه بلوغ نابلس والشريعة ودخول دمشق؟ اللهم كلا.

إن المساعدات التي أداها الجيش العربي، من يوم تكوينه حتى ختام الحرب عظيمة جداً. وقد كان العامل الأول في ارتباك القيادة التركية وعجزها عن وضع خطط حربية ثابتة، كما كان إصرار بعض القواد على عدم الجلاء من جملة هذه العامل. وهناك أمر آخر لا بدّ من التنويه به، وهو تأثير الجيش العربي في المعركة الفاصلة، فقد ضرب الجيش التركي ضربة قاضية أثناء ارتداده وأجهز عليه مما حير القيادة التركية العليا وأذهلها. ويمكن أن يقال أنه لولا ثورة الحسين لما تسنى للجيش البريطاني اختراق فلسطين ولقضي عليه قضاء مبرماً في صحراء سيناء".

ولا بد من الاشارة إلى أن البعثة الفرنسية كانت تلحّ في حصر الثورة العربية في الحجاز. وقد قال لورانس أن الكولونيل بريمون رئيسها " كان يخشى أن يغدو الجيش العربي مخيفاً"، وكان يلح بوجوب احتلال العقبة بجنود الحلفاء لمنع العرب من التقدم. ومع أن فرنسا لم تساعد الثورة إلا بمبلغ ٨٤ ألف جنيه و ٦٠ جندياً وبعض المدافع والبنادق، إلا أن اعتداد رئيس البعثة وصل إلى حدٍّ ضاق به الحسين والانكليز، حتى استدعته حكومته إلى فرنسا.

وأخيراً لا بدّ لنا من القاء نظرة عامة على العلاقات بين الحسين وحلفائه.. ومن المؤسف أن نتائج نظرتنا لا تشرّف الانكليز، فقد قابلوا موقفه الصادق النبيل بالمخادعة والمناورات، وأخذوا يتراجعون رويداً رويداً عن الوفاء بالعهود التي قطعوها له. ورغم أنه كان دائماً يأمل في ردعهم عن غيّهم بالحسنى، إلا أن الحوادث كانت تثبت له واقعها المرير بأن ثقته في غير محلها. وبأن هؤلاء الحلفاء ليسوا أفضل من الدولة العثمانية، وبأن الاستقلال الذي وعدوا العرب به سراب وخيال.

غير أن شعلة الحرية المقدسة التي أنارها الحسين بقيت وما تزال : لامعة متوهجة، يبذل العرب دماءهم فداء لها، ولا يبخلون عليها بالمهج والأرواح.


الذخيرة العربية



القسم الثالث

النضال حتى النصر



- ١ -

أصدقاء غادرون

انتهت الحرب الضروس، وأخذت أمم العالم تستعدّ لبناء عالم ما بعد الحرب. وكان العرب يظنون - بسبب ما بذلوا من تضحيات - أن قضاياهم ليست عسيرة حتى يستعصي حلها، وأن مطالبهم من الوضوح والعدل بحيث لا يستلزم تحقيقها إلا القليل من الزمن. وشجعهم على هذه الآمال، العهود التي ارتبطوا بها مع حليفتهم بريطانيا، والتصاريح الرسمية العديدة التي أعلنتها بريطانيا وفرنسا، وخاصة وعودهم الجازمة بأن تسويات السلم ستكون طبقاً لرغبات الأهالي، وأن سكان البلاد لن يُلزموا بقبول أي شكل من أشكال الحكم إلا بموافقتهم وكامل رضاهم. وزادهم ثقة نقاط الرئيس ولسون الأربعة عشر، وأخصّها النقطة الثانية عشرة المتصلة بحق " تقرير المصير". ويا لها من كلمة رنّانة طنّانة، سحرت أبناء الشعوب المغبونة وجعلتهم يعتقدون أن المبادئ الإنسانية ستسود العالم. ولكن لم يطل الوقت حتى ظهر أن كل هذه الأقوال لم تكن إلا كلمات خيالية لا تنطبق على الواقع البغيض.

وعند دخول الجيش العربي دمشق، تألفت فيها حكومة عربية باسم الحسين ملك العرب، وعيّنت حكاماً إداريين للمدن العربية الكبرى. ومن جملتها بيروت، فثارة ثائرة الفرنسيين، واضطروا الجنرال اللنبي إلى أن يوقع معهم اتفاقاً ينبع من اتفاقية سايكس- بيكو، وبموجبه يحتل جنود فرنسا المنطقة الساحلية، ويحتل جنود بريطانيا فلسطين، ويبقى العرب في داخلية سوريا.

وعندما أمر الجنرال اللنبي، تحت الحاح الفرنسيين، بانزال العلم العربي عن بيروت، وثارت ثائرة العرب حتى خيف أن يؤدي الأمر إلى صدام مسلح – أصدرت القيادة العليا باسم بريطانيا وفرنسا يوم ٨ تشرين الثاني ١٩١٨، بلاغاً رسمياً قالت فيه: إن غرض الدولتين ليس إلا " تحرير الشعبين السوري والعراقي تحريراً تاماً نهائياً، وإقامة حكومات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين لها اختياراً حراً".

واحتج الملك حسين على هذه الاجراءات، وخصوصاً لاحتلال الجنود الفرنسية للساحل السوري، وأعلن أنه يعارض كل المعارضة في هذه السياسة الجديدة. ولكن الانكليز أجابوه بلطف مؤكدين أن هذه ترتيبات مؤقتة اقتضتها ظروف الحرب، وأن بقاء جيوش الحلفاء في البلاد مؤقت حتى يبتّ مؤتمر السلام بجميع القضايا، ويقرّر مصيرها نهائياً. ثم وجهوا إليه دعوة رسمية لأيفاد الأمير فيصل لكي ينوب عنه في ذلك المؤتمر، واعدين بمساعدته. وكان الملك لا يزال يثق ببريطانيا، وعلى يقين من ان الغرض من ذهاب نجله إلى المؤتمر ليس للدفاع عن قضية العرب وحقوقهم، بل لتأييد بريطانيا في محاولتها تحقيق الأماني العربية. ولأن حقوق العرب وحقوقهم، واضحة لا لبس فيها، وأن مصلحة بريطانيا ومصلحة العرب متفقتان اتفاقاً تاماً، بحيث لم يكن يخامره أقل ريب في حسن نوايا بريطانيا تجاه قضايا البلاد العربية.

وفي أواسط تشرين الثاني أرسل الملك إلى نجله فيصل تعليماته وحدّد صلاحيته بالبرقية التالية:

حليفتنا الوفية بريطانيا العظمى ترغب حضورك نائباً عن مصالح العرب، وكل ما يكون أساساً لحياتهم سواء ما يتعلق بالحدود أو الإدارة مما هو معلوم لديك، في مجتمع يعقد في باريس في ٢٤ من هذا الشهر. فانفاذاً لرأي عظمتها تتوجه بكل سرعة ممكنة لباريس، بعد مذاكرتك لفخامة القائد العام في كيفية سفرك وطريقته، وبعدما تقرّر ما تراه لحالات البلاد وادارتها في مدة غيابك الذي لا يتجاوز تقريباً شهراً. وحيث أن رابطتنا الوحيدة هي العظمة البريطانية، ولا علاقة لنا ولا مناسبة مع سواها في أساساتنا السياسية، فكل

ملاحظاتك وما تراه في الموضوع تبديه لعظمائها ونوابها الأماجد، إن كانوا زملاءك في المجتمع أو معتمديها السياسيين. وما يكلفونك به من قول أو عمل إن كان في المجتمع أو في سواه تعمل به، وتجتنب كل ما سوى ذلك. هذه درجة مأذونيتك عما يختص بالمجتمع وخير الأهالي بالمصلحة والقصد، والله يتولاك".

وأبحر فيصل من بيروت فبلغ مرسيليا يوم ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٨. وبعد أن زار الميدان الذي دارت فيه معارك الحرب، زار رئيس جمهورية فرنسا. ثم قصد إلى لندن وقابل الملك جورج الخامس، وفي أوائل كانون الثاني ١٩١٩ عاد إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح.

ولا بدّ من القول أن فرنسا أبلغت الحسين رسمياً، بواسطة القومندان كوس معتمدها في جدّة، انها تستغرب كيف أن الأمير فيصل لم يبلغ أحداً من ممثليها بخبر سفره. وأنها ستحتفي بالأمير كأبن ملك حليف دون الاعتراف بأنه يقوم بمهمة سياسية لا تعرف عنها شيئاً. فلم يبد الملك ارتياحه إلى هذا التبليغ وقال: إنه يغتنم الفرصة ليصرح بأنهم أخذوا ينظرون إليه نظرة عدم الاطمئنان منذ وصول الجيش العربي إلى سورية، مع أنه ليس له أي مطمح شخصي في تلك البلاد. وما كان تدخل الجيش العربي في شؤونها إلا بطلب سكانها، الذين أعربوا عن هذه الرغبة بملء الحرية وبدون أي ضغط من جانبه أو من جانب ابنه. وإن العرب يعتقدون أنه لا بدّ من رفع العلم العربي على عدة مدن سورية. وإنه لا ينسى جميل فرنسا ومساعدتها، وسيتجنّب عمل كل ما من شأنه أن يسيء إليها أو يؤدي إلى إهمال مصالحها أو الأضرار بها. وأرسل كتاباً رسمياً بهذا المعنى محتجاً معاتباً إلى المعتمد الفرنسي في الحجاز.

ولا يفوت الباحث أن يلاحظ، أن حالةً من الفتور الشديد كانت تسود العلاقات بين الحسين وفرنسا. وذلك بسبب الفكرة التي غرسها الانكليز في ذهنه من جهة المطامع الفرنسية. ومن المؤكد أن الموظفين والضباط الانكليز في الحجاز كانوا دائبي الدعاية ضد فرنسا، وبأنها هي العقبة الوحيدة في سبيل تحقيق أهداف العرب القومية. وقد نجحوا في قصدهم الذي رموا إليه من

تحويل اشتباه الحسين في أطماعهم الخاصة في بلاد العرب إلى النقمة على فرنسا. وربما كان موقف الموظفين الانكليز هذا يختلف عن موقف الحكومة البريطانية الرسمي من فرنسا. ولكن الحسين – الذي لم يكن متمرّساً بأساليب الحكم في أوروبا – كان لا يفرّق بين سياسة الحكومة وأقوال موظفيها. وكانت العلاقة الشخصية في نظره أقوى مما يجب أن تكون. وقد حاولت فرنسا في البداية أن تقضي على مخاوف الحسين وتحظى بموافقته على احتلال الساحل السوري، ولكنها وجدت أن شعور النفور من نواياها متأصل في نفسه، وأن لا سبيل إلى نزع الشك من قلبه نحوها. ولهذا عمدت إلى مناهضة الثورة. وقد روى الكولونيل بريمون الذي انتدبته فرنسا لمرافقة الأمير فيصل في زيارته الأولى، أن التعليمات التي أعُطيت له من وزارة الخارجية احتوت على ما يلي "وقل للأمير إن الذين أشاروا عليه بالمجيء إلى أوروبا لم يمحضوه النصح، وإن الحكومة البريطانية لا تعمل له كل شيء، وإنه ما كان يجدر به أن يستشيرها وحدها ويهمل الحكومة الفرنسية". وروى الملك عبد الله في مذكراته أن الكومندان كاترو قال له في جدّة " يجب عليكم أن تستندوا بالشام على فرنسا، وأن لا تظنوا أن هنالك غير فرنسا".

***

ونحن نعلم اليوم أن أطماع بريطانيا في بلاد العرب كانت لا تقل عن أطماع فرنسا، وربما كانت أشد ضرراً بمصالح العرب من حيث وعدها لليهود بتأسيس وطن لهم في فلسطين. وقد نلوم الحسين على موقفه العدائي من فرنسا، وموقف التساهل النسبي من بريطانيا. وقد نتمنى لو أن الحسين استطاع أن يضرب السياستين المتضاربتين ببعضهما ويستغل الموقف لمصلحة العرب. ولكن الحسين كان يرى في الانكليز حلفاء طبيعيين للعرب، وأن التفاهم معهم في حدود الامكان. وتفضيله لهم طبيعي بالنسبة لمساعداتهم القيّمة للثورة العربية. ثم أن طبيعة نفسها كانت تكره الدسائس والمناورات والعمل في الظلام ، وذنبه الوحيد أنه كان صريحاً صادقاً مستقيماً في حالة سياسية تتطلب المكر والختل والمراوغة واللعب على الحبلين.

أُفتتح مؤتمر السلام يوم ١٨ كانون الثاني ١٩١٩، ومثّل العرب فيه مندوبان هما الأمير فيصل ورستم حيدر. وكان الانكليز والفرنسيون يسعون لابقاء قضايا العرب بمعزل عن بحوث المؤتمر. ولكن تحت الحاح الرئيس ولسون، اضطرّوا في ٣٠ كانون الثاني على توقيع بيان باستفتاء سكان البلاد المنفصلة عن تركيا في تقرير مصيرها، غير أنهم ربطوا تقرير المصير هذا بقيود أخرى خلاصتها: أن شعوب هذه البلاد لا يستطيعون حكم أنفسهم بأنفسهم، ولذا فيجب عليهم أن يختاروا إحدى الدول الراقية لتكون وصية عليهم لارشادهم وتهيئتهم لحكم أنفسهم (وهذا أصل فكرة الانتداب التي ابتدعوها).

وفي يوم ٦ شباط بسط الأمير قضية العرب ودافع عن حقوقهم وطلب الاعتراف باستقلال بلادهم ووحدتها برئاسة الملك حسين، وأن تكون سورية مرتبطة بالحجاز في الأمور الخارجية. وأن تكون البلاد حرّة في طلب المعاونة من أية دولة شاءت. وبضغط من الرئيس ولسون قرر المؤتمر في ٢١ آذار ايفاد لجان تحقيق دولية للوقوف على إرادة السكان في سورية الطبيعية والعراق. وفعلاً سافرت اللجنة الأميركية المعروفة بلجنة كنج – كراين، ولكن فرنسا وانكلترا لم ترسلا لجنتيهما.

وعاد الأمير فيصل إلى سورية في أواخر نيسان. ثم وصلت لجنة الاستفتاء الاميركية في حزيران وتجولت في البلاد، وقابلت لجنة المؤتمر السوري. وبعد ٤٢ يوماً من مجيئها غادرت سورية إلى أرمينيا ومنها إلى باريس في أيلول. وكان المؤتمر قد انفضّ فعادت إلى بلادها. وبقي تقريرها مكتوماً حتى عام ١٩٢٢. ويستدل مما جاء فيه أن أغلبية السكان طلبوا الاستقلال، فإذا لم يكن ممكناً، فتكون البلاد تحت وصاية الولايات المتحدة، وإن لم تقبل فانكلترا، ورُفضت فرنسا بشدة. وقد ذهبت سدى جميع الآمال العظيمة التي علقها العرب على تدخل اميركا لمصلحة قضاياهم، فإن الرئيس ولسون فشل في التأثير على كليمنصو ولويد جورج، وعاد إلى بلاده يائساً. وكان فشله في انتخابات الرئاسة الاميركية وانتصار دعاة العزلة الأميركية، الضربة الأخيرة

التي قضت على أمل المؤملين.

واضطرب الفرنسيون لما رأوا من عزوف السوريين عن اختيارهم أوصياء، وللعداء الصريح الذي كانت تُقابل به جميع أعمالهم، فاتجهوا إلى شركاء المطامع – الانكليز – طالبين تحقيق الاتفاقات المشتركة. فأعلن هؤلاء رفضهم الانتداب على سورية وأبلغوا ذلك رسمياً لمؤتمر السلام.

***

وقامت عدة اضطرابات بين العرب والفرنسيين، وازدادت الأمور تحرجاً. وكان لالحاح فرنسا من جهة، ولالحاح العرب من جهة أخرى على بريطانيا، ما دعاها لأن تحاول الجمع بين الطرفين عسى أن يتوصلا إلى اتفاق بينهما. وهكذا دُعي الأمير فيصل للسفر ثانية إلى باريس، فلبى الدعوة وبلغها في ١٩ أيلول، وهناك طُلب إليه أن يوافق على الاتفاقية التي تمّت في ١٥ أيلول بين كليمنصو ولويد جورج، وتقضي باحتلال فرنسا لمنطقة كيليكية والبلاد الواقعة غرب خط سايكس – بيكو، مقابل احتلال بريطانيا للموصل وفلسطين.

ولما لم يكن الأمير مفوضاً من والده بالموافقة على حلول كهذه، فإنه واصل سفره إلى لندن وبرفقته فؤاد الخطيب والجنرال حداد باشا. وهناك قابل أقطاب الانكليز واحتجّ لديهم، وطلب تنفيذ العهود المقطوعة للحسين. فأُجيب أن الأمر لم يعد في يدهم، وأن من الخير له أن يعود إلى باريس فيتفق مع الفرنسيين. وبعد لأي عاد إلى باريس وقابل كليمنصو واتفق معه على مشروع خلاصته أن تعترف فرنسا باستقلال سورية الداخلي، وأن تعترف سوريا بانتداب فرنسا على لبنان، وعدم إثارة القلاقل، وأن تستعين سورية بفرنسا في حالة احتياجها لأي مساعدة، واشترط الأمير أن يوافق السوريون على هذا المشروع ليصبح نافذ المفعول.

وفي خلال مفاوضات فيصل مع كليمنصو، أرسل إلى والده بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٩ البرقية التالية:

الحكومة الفرنسية رفضت اقتراحي باسم جلالتكم بشأن سورية مع أن

انكلترا قبلته، وهي مصرة على اشغال أقسام مهمة من مقاطعات دمشق وحلب، تمسكاً بمذكرة لويد جورج التي قدمها للمؤتمر في أيلول، وأخبرت جلالتكم عنها. ولما كان هذا مخلاً بالحقوق والعهود بين بريطانيا وجلالتكم عزمت على تبليغ الدول بأن جيشكم في سورية سيقاوم كل تجاوز يخل بحدود المناطق الحاضرة . وإني حررت لحكومة بريطانيا اليوم أؤكد لها عظيم ثقتنا باخلاصها وأذكّرها بعهودها لجلالتكم في ٢٤ تشرين الأول. إننا لا نريد إلا أن نكون على وفاق تام مع حليفتنا الأولى بريطانيا التي هي سند نجاحنا مع سائر الحلفاء، وفرنسا أيضاً إذا رضيت باقتراحي الأخير الذي لا حياة بدونه الآن وهو إبقاء الحدود الحاضرة كما هي، وتأليف لجنة تحفظ وحدة الإدارة بين المناطق الثلاث حتى قرار المؤتمر النهائي[١].

وعندما بلغت الحسين أنباء هذه المفاوضات، اغتمّ وغضب، وأوفد الدكتور ثابت نعمان من مكة ومعه رسالة إلى فيصل، قيل أنها كانت شديدة اللهجة، أمره فيها بالعودة حالاً إلى سورية والمحافظة على المبدأ الذي نهضوا لأجله منذ أيام الثورة الأولى، وعدم التساهل مع فرنسا، مما يعاكس العهود المقطوعة للعرب، والبرامج التي قامت ثورتهم عليها. وحال وصول الرسالة عاد الأمير إلى سوريا فبلغها في كانون الثاني ١٩٢٠.

وكانت فرنسا قد عيّنت الجنرال غورو قائداً لجيوشها في شهر تشرين الثاني ١٩١٩، وعينته أيضاً مندوباً سامياً لها في سورية. وخلا ذلك الشهر تمّ جلاء الجيش البريطاني عن داخلية سورية، ولكنه بقي في فلسطين وشرق الأردن. وكانت حوادث الحدود لا تنقطع. ووقعت اضطرابات في بعلبك والنصيرية والحولة وتل كلخ ودير الزور، مما كان له اسوأ الأثر في العلاقات العربية – الفرنسية، خصوصاً لأن الفرنسيين كانوا يتهمون الحكومة العربية بامدادها الثوار بالمال والسلاح وتشجيعها لهم.

---

(١) المراسلات التاريخية، المجلد الثاني، عمان، ١٩٧٥، صفحة ٢٤٤. والمناطق الثلاث المقصودة هي (١) سورية الداخلية مع شرقي الأردن (٢) لبنان والساحل السوري الذي كانت تحتله قوات فرنسا، (٣) فلسطين.

وفي غمره هذه الحالة العصبية عاد فيصل إلى سورية، وعرض مشروع الاتفاق بينه وبين كليمنصو، ولكن الأحزاب الوطنية رفضته رغم الحاح الأمير.

وتحمس السوريون ووصلت درجة الشعور بالعزّة القومية إلى أقصى الحدود. وفي ٨ آذار اجتمع المؤتمر السوري العام ونادى بفيصل ملكاً على سورية. كما اجتمع مؤتمر آخر من زعماء العراقيين ونادى بالأمير عبد الله ملكاً على العراق. وأعلن المؤتمرون عدم الاعتراف للحلفاء بأي حق في البلاد العربية(١).

وكان طبيعياً أن لا توافق هذه الخطوة رغبات المستعمرين، فأعلن لويد

---

(١) فيما يلي النص الكامل للرسالة التي بعث بها رئيس المؤتمر السوري سنة ١٩٢٠ السيد هاشم الأتاسي إلى الملك حسين في مكة، مبلغاً إياه مقررات المؤتمر السوري:

صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين المعظم.

إن القطر السوري العربي الذي يشعر أبناؤه المنّة التي أوليتموهم إياها بقيامكم المبارك، ظل نحو عام ونصف رازحاً تحت أثقال الاحتلال والتقسيم العسكري الذي كان سبباً لمشاكل عديدة، وباعثاً للأضرار في مصالح العباد تتقاذفه الأهواء والمطامع الاستعمارية، الأمر الذي جعل أبناء سورية في اضطراب وقلق شديدين.

لذلك فقد رأى المؤتمر السوري، المنعقد بدمشق والذي يمثل جميع البلاد السورية، أن يضع حدّاً لهذا الموقف الحرج ابتغاء صيانة حقوقه، وحفظ مصالحه، فأعلن في جلسته المنعقدة بتاريخ ٧ آذار ١٩٢٠ استقلال القطر السوري بحدوده الطبيعية، واختار سمو نجلكم الأمير فيصل، ملكاً دستورياً على البلاد السورية، بالنظر لما قام به من جليل الاعمال العسكرية والسياسية في مصلحة الوطن والأمة، وأعلن انحلال الحكم العسكري الاحتلالي في جميع مناطق سورية، وكلّف الحكومة السورية الجديدة ابلاغ ذلك للدول الأجنبية، والسعي لحمل الحلفاء على الجلاء عن المناطق الواقعة في احتلالها. ثم طالب باستقلال القطر العراقي، على أن يكون بين القطرين اتحاد سياسي واقتصادي.

وهكذا دخلت سورية في دور جديد من الاستقلال الذي فتحتم جلالتكم بابه، فكان لكم فيه اليد الأولى، التي لا ينساها أبناء سورية المخلصون، الذي يدعون لجلالتكم بدوام الاقبال والتأييد.

في ٩ آذار ١٩٢٠ رئيس المؤتمر السوري: هاشم الأتاسي

جورج " أن بريطانيا وفرنسا أبلغتا الأمير فيصل انهما لا تستطيعان الاعتراف بقرار مؤتمر دمشق"، ودعت الدولتان فيصل للسفر إلى أوروبا مرة ثالثة، ولكنه لم يتعجل تلبية الدعوة. وكان والده الحسين دائم الالحاح عليه بوجوب الولاء للمبدأ الاستقلالي الذي لا يعرفون سواه. أما العداء لمطامع فرنسا فقد شمل جميع طبقات الشعب. ومما زاد الحال تحرجاً تلك الهدنة التي عقدها الفرنسيون مع الأتراك بعدما هزمهم مصطفى كمال في عدة معارك، فتفرغوا لتصفية الوضع في سورية.

وقامت بريطانيا بمحاولة من جانبها للتوصل إلى اتفاق مع الحسين، فقصد الجنرال اللنبي إلى جدّة في أوائل عام ١٩٢٠، وفيها اجتمع بالملك حسين والأميرين علي وعبد الله، وتباحث وإياهم في قضايا العراق وسورية وفلسطين، محاولاً اقناع الملك بالموافقة على الانتدابات الفرنسية والبريطانية في هذه الأقطار. ولكن الملك أصرّ على استقلال هذه البلاد استقلالاً ناجزاً. ولم تنتج الزيارة سوى ازدياد عدم التفاهم.

ولا بدّ من ذكر المحادثات السرية التي دارت بين حكومتي بريطانيا وفرنسا لاقتسام الأسلاب. ففي عام ١٩١٩ كان الانكليز يطلبون الغاء معاهدة سايكس – بيكو، بحجة أن روسيا خرجت من الحرب وألغت مطالبها خارج حدود بلادها، وذلك لوضع اتفاقية جديدة يؤمنون فيها مصالحهم. غير أن الفرنسيين كانوا يشتبهون بنوايا بريطانيا، ولذلك فقد أصرّوا على اعتبار الاتفاقية قائمة، وعليه فإن لويد جورج طلب بصراحة من فرنسا أن توافق على ضم ولاية الموصل وفلسطين لمنطقة النفوذ البريطاني. وفي ١٥ شباط أجاب كليمنصو رسمياً قبول فرنسا لطلب بريطانيا. وقد بقيت هذه المحادثات بين أخذ ورد بين أقطاب الحكومتين حتى عقد مؤتمر سان ريمو، وتوصل رجاله إلى الاتفاق النهائي في ٢٥ نيسان ١٩٢٠. وقد تم هذا الاتفاق على حساب العرب ودون اعتبار لرغبات الأهلين المعروفة. وخلاصته أن تقسم سورية الطبيعية إلى ثلاثة أقسام: فلسطين ولبنان وسورية، وأن توضع سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي بينما توضع فلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني،

بالاضافة إلى تنفيذ وعد بلفور في فلسطين. وهكذا اقتسمت الدولتان فيما بينهما هذه البلاد العربية التي حارب أهلها إلى جانب الحلفاء، طمعاً في الحصول على استقلالهم. وسجل اتفاق سان ريمو المشهد الأخير من سلسلة مؤامرات الدولتين الغاشمتين في سبيل استعباد الشعب العربي واستغلال موارده.

وأُذيعت نصوص اتفاق سان ريمو في أوائل أيار. وازداد الوضع بين الفرنسيين في لبنان وبين العرب في داخلية سورية سوءاً. وأخذ متطرفو العرب يلحّون على فيصل باعلان الحرب على الفرنسيين، بينما أخذ الجنرال غورو يمطره بالانذارات. وعليه فقد رأى الملك فيصل أن سفره إلى أوروبا أصبح ضرورياً بعدما أصبحت الحالة تهدد بالانفجار. وفي ١٠ تموز اوفد نوري السعيد إلى بيروت للاتفاق مع الجنرال غورو على ترتيب سفره. ولكن هذا سلمه انذاراً للحكومة السورية يطلب فيه:

١- قبول الانتداب الفرنسي دون قيد أو شرط.

٢- ارجاع الجيش السوري إلى الحالة التي كان عليها في شهر شباط.

٣- التعامل بورق النقد الذي أصدرته فرنسا.

٤- احتلال محطة سكة حديد رياق- حلب - وبعلبك وحمص وحماة احتلالاً عسكرياً.

ودون أن ينتظر غورو جواباً، أمر جنوده صباح يوم ١٢ تموز فاحتلوا محطتي المعلقة ورياق. احتج الملك على هذا بشدة، وأرسل عدة برقيات إلى مؤتمر السلم والدول الممثلة فيه. ولكن هذه الاحتجاجات كانت صرخة في واد. وفي ١٤ تموز أبلغ غورو للملك فيصل انذاراً مطولاً بسط فيه اخطاء العرب المزعومة، وطلب تنفيذ انذاره الأول في مدى أربعة أيام، بالاضافة إلى معاقبة الذين قاموا بحركات العداء ضد فرنسا.

وقد نصح الانكليز للملك بقبول الانذار، وكان الملك ووزراؤه يميلون إلى هذا بعد أن تأكدوا أن ليس في وسع الجيش السوري مقاومة الجيش الفرنسي مقاومة ناجحة. ولهذا فقد أُجيب غورو بقبول انذاره، وفعلاً قامت الحكومة

بتسريح الجديش السوري. ولكن الانذار وقع كالصاعقة على نفوس الشعب، وثارت اضطرابات عنيفة في دمشق، واجتمع المؤتمر السوري وقرر عدم الاعتراف بأي نفوذ لفرنسا. وسارت المظاهرات الصاخبة في الأسواق. وقد اضطر الملك أمام دفقة الشعور الشعبي وأمام مواصلة الفرنسيين للزحف على الرغم من قبول سورية للأنذار، ان يوافق على المقاومة تفادياً لحصول مذبحة أهلية. ولكن الجيش كان قد سُرّح قبل يومين، ولذلك فلم يكن من الممكن حشد قوة كافية عدا حوالي الفي متطوع وستين جندياً، وحاولت هذه القوة الصغيرة وقف الفرنسيين في ميسلون يوم ٢٤ تموز غير أنها لم تستطع أن تعمل شيئاً فعّالاً حيال الجيش الفرنسي وطياراته، فتشتتت تاركة وراءها شهداء كثيرين بينهم وزير الحربية يوسف العظمة.

وعلى الأثر تقدم الجيش الفرنسي فاحتل دمشق. وانسحب فيصل من سورية بعدما أنذرته الحكومة الفرنسية بذلك، فقصد درعا ومنها سافر إلى حيفا ومعه عدد من رجال حاشيته. وهناك أرسل برقية إلى والده يطلب منه مالاً لأنه غادر دمشق وهو لا يملك شيئاً، فأرسل إليه الحسين حوالة بقيمة ٢٥ ألف ليرة فتسلمها، واستطاع بواسطتها متابعة السفر إلى أوروبا، ليتابع النضال السياسي.

***

أما الرئيس الاميركي ولسون الذي كان العرب يعلّقون على معاضدته أعظم الآمال، فقد كان يومذاك قد سقط في انتخابات الرئاسة، وأعلنت الولايات المتحدة تخليها عن التدخل في شؤون العالم الخارجي واتباعها سياسة العزلة. ويذكر هارولد نيكلسون عضو الوفد البريطاني في مؤتمر الصلح في كتابه (عملية السلام ١٩١٩) في معرض الحديث عن أطماع الدولتين في اقتسام بلاد العرب، إن الولايات المتحدة "بقيت معارضة في فرض الانتداب على البلاد العربية، إلى أن وافقت فرنسا وبريطانيا على منحها الحصص التي كانت مخصصة لالمانيا، في الشركة التي كانت هذه الدول تنوي تأليفها قبل الحرب، لاستخراج زيوت العراق: وبهذا اشترتا سكوتها على انتدابهما الغاشم في هذه البلاد. وكان للبترول، وليس لمبدأ تقرير المصير، كلمة الفصل في هذه القضية"(١).

---

(١) Peace Making 1919 – H.Nicols on.

وهكذا فازت القوة الغاشمة، وقضت مطامع المستعمرين على هذه الدولة الفتية، التي كان يعلّق عليها العرب أعظم الآمال. حتى أن الحسين كثيراً ما صرّح بأن الحجاز مستعد لأن يتبع سورية، إذ أن فيها النهضة الحقيقية وفيها رجال العلم. فكان ما أصاب هذه البلاد أكبر ضربة أصابت آمال الملك حسين، وهدمت صرح أمانيه في توحيد البلاد العربية. ولقد احتج على عمل فرنسا هذا أشد احتجاج ببرقيات عديدة طيّرها إلى الدول الكبرى، ولكنها لم تغن شيئاً حيال القوة العاتية.

– ٢ –

حلول ومراوغات

كان العرب إلى ما قبل عام ١٩٤٨، يدعون عام ١٩٢٠ عام النكبة. إذ فقدت خلاله سورية استقلالها، وديست حقوق أهل العراق. وأثار هذا حفيظة العرب فهبّوا يعلنون ثوراتهم الدامية في سورية وفلسطين والعراق. وقد كانت ثورة العراق، أعظم هذه الثورات وأخطرها شأناً، إذ امتدت في طول البلاد وعرضها، وكلّفت الانكليز خسائر جسيمة في الأموال والأرواح. وجاء حين لم تكن للانكليز فيه سلطة إلا على المدن الرئيسية الثلاث في العراق. ولم يقض الانكليز على الثورة إلا بعد أن حشدوا قوات هائلة من جيشهم، واعتقلوا مئات الزعماء، وقتلوا ما لا يقل عن أربعة آلاف وطني، وتكلفت خزينتهم أربعين مليون ليرة.

ولم يكن الحسين يملك إلا أن يصب جام غضبه على السياسة الاستعمارية. التي كانت السبب في نقض العهود المقطوعة له، وفي تشتيت شمل البلاد العربية. وكانت جريدة القبلة في مكة تنتشر بين العرب فتثير براكين سخطهم على الأجانب. وكان الحسين يدبج بنفسه بعض مقالاتها الرئيسية. فتذيع في بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها. ولا شك في قوة تأثير تلك المقالات على الرأي العام في بلاد العرب.

وإذا أضفنا إلى شعور بريطانيا بروح السخط هذه، وتخوفها من ازدياد لظاها بمرور الزمن – ما كان يلحّ به المسؤولون في تلك الدولة من وجوب تخفيض نفقات القوى المسلحة، وذلك لا يتأتى طبعاً إلا بانتهاج سياسة اللين مع سكان البلاد المحتلة والاستجابة إلى رغباتهم القومية – فإننا نستطيع أن ندرك الدوافع التي أملت على ساسة بريطانيا التقرب من العرب بعد أن غدروا بهم في سورية، محاولين تلطيف الشعور القومي تجاههم بل وكسبه إلى جانبهم، على حساب بعض امتيازات يمنحونها، لإظهار السيادة العربية، وبهذا يضمنون استمرار نفوذهم وتأمين مصالحهم.

وكان فيصل قد أقام في ايطاليا منذ مغادرته لسورية، وكان يمثل العرب في لندن الجنرال جبرائيل حداد باشا، ويقوم بمساع شتى لدى الحكومة البريطانية لحل المشاكل المعلقة. ثم قدم مذكرة أعدّها فيصل وبسط فيها الحوادث التي مرّت بالبلاد العربية، والوعود التي قطعتها بريطانيا لوالده الحسين باسم الحلفاء، والمعونة التي أداها العرب باعلانهم الثورة في وجه الدولة العثمانية. وبعد ذلك دعت الحكومة البريطانية فيصل لزيارة لندن، فوصل إليها في كانون الأول ١٩٢٠، وبقي فيها يواصل نضاله السياسي. وعندما نُشرت صكوك الانتدابات على سورية وفلسطين والعراق، أرسل في ٢٧ شباط ١٩٢١ مذكرة احتجاج إلى السكرتير العام لجمعية الأمم باسم والده الملك حسين، قال فيها: إن الملك حسين يأسف لأن بلاده ليست عضواً في عصبة الأمم، التي ينظر إليها العرب بعين الارتياح، غير انهم لا يستطيعون قبول الانتدابات لأنها أُعطيت دون موافقتهم. وقد أمرني والدي بتقديم احتجاج رسمي، ورجائي أن لا توافق عصبة الأمم على هذه الانتدابات قبل أن تستشير الملك حسين، الذي قاد العرب في أثناء الحرب، وشدّ أزر الحلفاء، وأن لا تنشرها رسمياً قبل الوقوف على رغائب أهالي البلاد.

واستمرت اتصالات فيصل بأقطاب الانكليز، وخاصة وزير الخارجية البريطاني اللورد كرزون. وفي أحد المؤتمرات التي كانت تُعقد للبحث في

شؤون الشرق الأدنى، ألقى حداد باشا بياناً باسم الملك حسين دافع فيه عن وجهة نظر العرب وقال: إن الحسين يوافق على مصالح الحلفاء في بلاد العرب شريطة أن لا تمس السيادة العربية مساساً جوهرياً. وقال أيضاً: إنه يوجد من قوات الحلفاء في سورية والعراق وفلسطين ما يزيد على ٤٣٠ الف جندي مسلح لأقرار سياسة عنيفة ضد أولئك الذين حاربوا بالأمس في صفهم. وأنهى البيان بقوله : "وفي الختام يرى الامير فيصل أنه إذا اسدى الحلفاء مساعدة حقيقية للعرب طبقاً لوعدهم للملك حسين، ونبذوا فكرة السيادة أو الحكم بالسيف، فهو واثق أن الحلفاء سيجدون في طاقتهم أن يسحبوا في الحال الجيوش الجرارة، لأن شعب البلاد يكون أعظم صديق للحلفاء كما كان أيام الحرب العصيبة".

ونتج عن هذه المشاورات تفاهم خلاصته: أن تؤسس في العراق حكومة وطنية، وأن يرشح فيصل نفسه ليصبح ملكاً. على أن تجري المفاوضات معه لعقد محالفة ينتهي بها الانتداب. وعليه فقد سافر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية إلى القاهرة. وفي آذار ١٩٢١ عقد مؤتمراً بحضور المندوبين الساميين في العراق وفلسطين. وجاء لورانس مع تشرشل وكان يعمل يومذاك مستشاراً خاصاً له في الشؤون العربية. وحضر المؤتمر أيضاً جعفر باشا العسكري وساسون حزقيل (عن حكومة العراق). ودارت بين الجميع عدة مباحثات انتهت بالاتفاق على انشاء دولة عربية في العراق برئاسة الملك فيصل.

وغادر فيصل لندن فوصل القاهرة في ١٤ نيسان، ثم غادرها إلى مكة حيث قابل والده وتباحث معه في شؤون السياسة الجديدة في بلاد العرب، وفي منتصف شهر حزيران غادر الحجاز قاصداً العراق، وقد أرفقه الملك حسين بكتاب وجهه إلى الشعب العراقي بتاريخ ٤ شوال ١٣٣٩ الموافق ١٠ حزيران ١٩٢١، وهذا نصه:

من الحسين بن علي إلى كافة الأماجد النجباء أخواننا أهل العراق حاضرهم وباديهم.

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. إن محرري هذا سيصلكم عن يد ابني فيصل، أنبئكم فيه بأني لم أوفده إليكم إلا لمحض انفاذ رغباتكم وطبقاً لارادتكم، إذ لا يهمنا وربّ الكعبة إلا حصول أقوامنا على استقلالهم ببلادهم ووحدتهم، بأي صورة وشكل كان، وعلى يد أي شخص من أبنائها، وحسبي الله بكل ذلك. وعلى كل حال، فهو جلّ شأنه، المسؤول ان يمنّ على الجميع بموجبات رحمته ومرضاته ويدفع عنا وإياكم الأسواء ويختار لنا ما فيه الخير.

وحدث بعد ذلك ما حدث في العراق، من وصول فيصل وفوزه في الاستفتاء العام لارتقاء العرش. وما تبع ذلك من تأليف الحكومة الوطنية وتدرّج العراق في الحصول على الاستقلال التام، مما لا يدخل في اختصاص هذا الكتاب.

ومما يذكر أنه في أوائل سنة ١٩٢٠ حينما كانت فكرة الثورة ضد الاحتلال البريطاني تختمر في عقول العراقيين، وضع هؤلاء ثلاثة مضابط أرسلوها إلى الملك حسين، وقالوا فيها أنهم طلبوا إلى الحاكم السياسي العام تأسيس حكومة عربية دستورية، على أن يكون أحد أنجاله ملكاً على العراق. وانتخبوا الشيخ محمد رضا الشبيبي مندوباً عنهم، فسافر سراً إلى الحجاز وبسط للحسين عزم أهل العراق على الحصول على استقلالهم، فأكبر ما سمع وقال: سأكون عند حسن ظن العراقيين إن شاء الله. وقد أرسل الحسين المضابط إلى فيصل في باريس لعرضها على مؤتمر الصلح.

***

بعدما عقد الزعماء العراقيون في سورية مؤتمرهم، الذي أعلنوا فيه أن العراق يجب أن يكون مملكة مستقلة، وأعلنوا مبايعتهم للأمير عبد الله – زار الأمير القاهرة في شهر نيسان ١٩٢٠ وقابل فيها اللورد اللنبي، وكان قد عُيّن مندوباً سامياً في مصر، واجتمع بأقطاب الانكليز وباحثهم في شؤون البلاد العربي، ووجوب تأييدهم للملك فيصل، وعدم تمكين الفرنسيين من تهديد المصالح العربية في سورية. ثم أشار إلى العراق والاحتلال الذي فرضوه

عليه، وقال إن الوقت قد حان لانشاء حكومة عربية فيه طبقاً للعهود المقطوعة. ولكن الانكليز ما كانوا يفكرون جدياً بمنح العراق استقلاله يومذاك، فردّوا الأمير ردّاً لطيفاً معتذرين بأن الوقت لم يحن بعد للبحث في استقلال العراق.

ويقول الملك عبد الله في مذكراته، أنه قام بالزيارة رداً لزيارة اللنبي لجدّة. وإن الملكية كانت أُعلنت بسورية بالرغم من النصائح التي أسداها الملك حسين، في تأخير هذا الأمر الخطير إلى ما بعد عقد الصلح، وتنازل تركيا عن حقها في هذه الأقطار لأهلها العرب. ويضيف قوله: وكنت أحمل أمراً بتعييني رئيس الوفد العربي في مجلس الصلح، فقال لي اللورد اللنبي: إن رئيساً للوفد هو الأمير فيصل. فقلت له : هو الآن ملك سورية. فأجابني : إن الحلفاء لم يعترفوا بهذا. فقلت له: إن الذي ولاه على هذه الرئاسة في مجلس الصلح قد اعتبر الأمر الواقع، وعيّن رئيساً آخر هو أنا. فقال : هذا الأمر لا يقبله الحلفاء...

وعاد الأمير إلى مكة، وأقام يدير وزارة الخارجية، ولكن خلافاً وقع بينه وبين والده بشأن ادارة المحاجر الصحية في الحجاز، فاعتزل العمل في حزيران. وأقام ينتظر الحوادث ويترقب الأمور، إلى أن جاءت الأخبار بسقوط العرش السوري وخروج فيصل. فغادر مكة إلى المدينة ولم يطل الاقامة فيها بل قصد إلى معان، فبلغها في ٢١ تشرين الثاني وضرب خيامه على مقربة من محطة السكة الحجازية.

وقد أثار قدوم الأمير ضجة شديدة في بلاد الشام، إذ وصلها ودماء العرب في ميسلون لم تجف. والناس لم ينسوا يوم الكارثة التي قضت على الاستقلال، فاتجهت إليه الأنظار وسارعت إلى مقره الوفود. وتوافد أحرار السوريين من مصر وفلسطين إلى معان للعمل معه والالتفاف تحت رايته.

وانبثّ أنصار الأمير في البلاد، وشاعت الشوائع أنه جاء لتجريد حملة على الفرنسيين في سورية. وفي شباط ١٩٢١ سافر وفد من عمان للترحيب به.

وخاف الانكليز والفرنسيون نتائج الحركة الجديدة، فأذاعت حكومة فلسطين بياناً قالت فيه: إنها لا تؤيد هذه الحركات العدائية بل تقاومها. وحشد الفرنسيون قوات كبيرة في درعا وحوران. وكاتبوا الانكليز يستحثونهم على مقاومة الأمير وحصر حركته. وفي بريطانيا أُعلن ان اللورد كرزون وزير الخارجية أفهم فيصل أن حكومته تنظر بعين الاستياء إلى الحوادث الجارية في شرق الأردن، وطلب منه أن يرسل برقية بهذا المعنى إلى الملك حسين.

وأرسل الانكليز في حكومة فلسطين الرسل إلى معان، محاولين اقناع الأمير بالعودة، ولكنه أبى إذ كانت معان يومذاك تابعة للحجاز. ثم زاد فتقدم إلى عمان في أوائل آذار ١٩٢١، وصادف ذلك حضور تشرشل إلى القاهرة لوضع أسس سياسته القائمة على التفاهم مع العرب دون الاضرار بمصالح دولته. فوجّه إليه دعوة للتفاهم معه. وسافر الأمير إلى القدس وأُستقبل فيها استقبالاً رسمياً، وهناك اجتمع بتشرشل واتفق معه على إنشاء حكومة مستقلة في شرقي الأردن برئاسة الأمير عبد الله، مع الوعد بأن تبذل بريطانيا وساطتها لدى فرنسا لاستعادة استقلال سورية.

***

بعد الاتفاق على إنشاء حكومتي العراق وشرقي الأردن برئاسة نجلي الحسين، ظن الانكليز أنهم بعملهم هذا قدموا للحسين ترضية ملائمة، وأنهم حققوا وعودهم له بما فيه الكفاية. وعليه عزموا على إنهاء حالة التوتر القائمة، والتي كان الحسين يثير ضرامها في طول البلاد العربية وعرضها باصراره على حقوق العرب. وبعد أن عاد تشرشل إلى بلاده قصد مستشاره لورانس ومعه حداد باشا إلى جدّة، وفي حقيبته مشروع معاهدة يريد من الملك الموافقة على بنودها. وجاء الملك إلى جدّة لمقابلة لورانس ومعه نجلاه علي وزيد، والشيخ فؤاد الخطيب وكيل الخارجية، وعدد من رجال الحاشية.

وبدأ لورانس الحديث بقوله: إن هنالك ديناً يراد تسديده، ولكن دفعه لا يتيسر مرة واحدة، فيدفع منه الآن قسط غير قليل، على أن يكون تسديد الباقي موضع النظر في المستقبل، ثم عرض على الملك مشروع المعاهدة فبدأ الملك بمناقشته، وطلب أن ينص متنها على استقلال فلسطين ودخولها في وحدة

البلاد العربية، فاعتذر لورانس عن هذا الطلب وقال: انه خارج عن حدود صلاحيته، ثم ناقشه في البنود الأخرى مصرّاً على تنفيذ جميع العهود المقطوعة له. أجاب لورانس إن هذا غير مستطاع في الوقت الحاضر. وإن المستقبل كفيل باصلاح الباقي. فقال الملك أنه لا يقبل المشروع بصيغته هذه.

وقال لورانس للملك أثناء المناقشة: إن أهل فلسطين لا يريدونكم. فأجابه: إن هذا لا يهمنا، فأنا لا أطلب حكمها لنفسي ولا لأولادي. وكل ما نصرّ عليه هو أن تبر بريطانيا بوعودها للعرب، وإذا فعلت ذلك، فأنا وأولادي نهاجر من بلاد العرب إذا لزم الأمر.

وطالت المناقشات، وتعدّدت المقابلات والمباحثات، ووافق لورانس أخيراً على أن تُضاف إلى المعاهدة مادة ينصّ فيها على أنها لا تنقض أي عهد أو وعد قُطع للعرب خلال الحرب. ولكن الملك لم يرض به. واشترط تنفيذ جميع العهود، على أن يكون البحث بشأن سورية بين فرنسا والعرب على حدة، وقال : إن العرب قد وضعوا قضية بلادهم أمانة في عنقه، فليس في استطاعته الحياد عن طلب حريتهم.

وأجمعت الحاشية على ضرورة قبول المشروع. وألحّت على الملك بتوقيعه. واشتركت في الالحاح أسرة الملك، بما فيها جلالة الملكة. ولكنه بقي مصرّاً على رأيه الأول. وحينما اشتدّ الحاحهم إلى درجة محرجة، صعد إلى سطح المنزل الذي كان ينزل فيه، واتجه ناحية الكعبة، وأقسم بربها: أنه لا يوقّع معاهدة لا تحقق ما وُعد به من وعود، ولا يوافق على ما يضر بمصالح العرب، وانزوى لوحده. فلما رأى أهله ذلك عدلوا عن مباحثته، واتفقوا مع لورانس على أن يزور الأمير عبد الله في عمان، وينتهي معه في وضع المعاهدة، فيوقعها باسم والده ثم يرسلها إليه فتكون مقبولة.

وعمل لورانس بما تم عليه الاتفاق، فسافر إلى عمان، وأقام فيها مدة، اتصل خلالها بالأمير عبد الله. وتباحثا في مواد المعاهدة، على ضوء ما أُدخل عليها من التعديلات في جدّة. وزاد الأمير عليها ما رأى الحاجة ماسة إليه، ثم

وقعها، وأرسلها إلى والده مع كتاب خاص، يرجوه فيه أن ينتدبه بعد الاطلاع على المشروع لتوقيعه باسمه. ولكن الحسين لم يوافق على التعديل الجديد، وظل مصرّاً على أن تفي بريطانيا بعهودها التي قطعتها له، وأن تكون فلسطين من جملة الأقطار العربية المستقلة. وبذلك قُضي على محاولة بريطانيا التي بذلتها لتسوية علاقاتها مع الحسين. وكان موقف الملك حسين موقف الوطني الصميم الغيور على حرية أمته، المؤمن بحقوقها ايماناً لا يأتيه الباطل.

وفيما يلي خلاصة لبنود المعاهدة كما أرادها الانكليز:

١- شرط دوام السلام بين حكومتي بريطانيا والحجاز. وعدم استخدام قواعد بلد كل منهما ضد الآخر.

٢- تتعهد بريطانيا بمنع التعديات عن بلاد الحجاز من المقاطعات المجاورة المرتبطة بمعاهدة معها.

٣- يتعهد الملك حسين باحلال السلام بينه وبين جيرانه الموالين لبريطانيا. وتتعهد بريطانيا ببذل نفوذها لتسوية الخلافات بينه وبين أولئك الجيران.

٤- ٥- تذكر معاهدات بريطانيا مع جيران الحسين - ابن السعود والادريسي- ويعترف الحسين بهذه المعاهدات، وباستمرار حالة السلم واحترام الحدود معهم.

٦- يتبادل الفريقان المعتمدين السياسيين.

٧- يعترف الحسين بالمحجر الصحي البريطاني في جزيرة قمران، وتوافق بريطانيا على الاحتياطات الصحية التكميلية في جدّة.

٨- لا تتدخل بريطانيا في الاجراءات التي تتخذ لتأمين راحة الحجاج.

٩- اتفاق على الرسوم المفروضة على الحجاج كبديل عن الاحتياطات الصحية في قمران وجدّة.

١٠- ١١- يعترف كل من الفريقين بتبعية رعايا الفريق الآخر.

١٢- يوافق الحسين على حضور قنصل بريطانيا للمحاكمات التي يكون اشخاص بريطانيون طرفاً فيها.

١٣- تسليم الرعايا البريطانيين بالكفالة في حالة القبض عليهم.

١٤- يفصل القنصل البريطاني في القضايا التي تكون بين شخصين بريطانيين في الحجاز.

١٥- توافق بريطانيا على أن تتنازل عن جميع الامتيازات الممنوحة من الحكومة العثمانية.

١٦- يشعر الملك حسين المعتمد البريطاني عندما يرغب في نفي أحد الرعايا البريطانيين.

١٧- يعترف جلالة الملك حسين بموقف صاحب الجلالة البريطانية الخصوصي في العراق وفلسطين. ويتعهد أنه في المسائل الواقعة تحت نفوذ جلالته الهاشمية في تلك البلاد، يبذل استطاعته لمساعدة صاحب الجلالة البريطانية (النص الكامل).

١٨- اعتراف كل من الفريقين بعلَم الآخر.

١٩- لا يدخل أحد الفريقين في حلف موجه ضد الفريق الآخر .

٢٠- لا ينقلب أي شرط من الشورط الواردة في هذه المعاهدة على أنه قيود تكون قد قيدت أو ستقيد في المستقبل أحد الفريقين المتعاقدين بأحكام عهد عصبة الأمم، أو بأية عهد آخر يمكن لعصبة الأمم أن تتخذه وان يدخل فيه أحد الفريقين (النص الكامل).

٢١- مدة المعاهدة سبع سنوات.

جرى توقيعها بعمان في ٨ كانون الأول ١٩٢١ الموافق ربيع الثاني ١٣٤٠ هــ.

وقد ذكر الملك عبد الله في مذكراته، إنه عند مقابلته مع تشرشل في القدس نصحه هذا بأن يؤثر على والده لعقد اتفاق مع بريطانيا. وعدم التعرض لفرنسا في سورية. وقال: إنكم إن لم تفعلوا هذا ستضيعون كل شيء. وإنه في إمكان ابن السعود أن يصل إلى مكة في ثلاثة أيام. وإن انكلترا عملت ما تستطيع. ولا شك في أن لورانس عند زيارته لجدّة أفهم المحيطين بالملك حسين شيئاً من هذا القبيل، فمالوا إلى القبول بالأمر الواقع مؤقتاً، حتى لا يضيع كل شيء. ولكن الحسين لم يكن يعرف المساومة في

حقوق الوطن ففشلت المحاولات. وكانت مطالبة الحسين بأن تعترف بريطانيا بأن فلسطين أحد الأقطار العربية التي تعهّدت له بالاعتراف باستقلالها، هي العقبة الرئيسية التي حالت دون عقد المعاهدة.

– ٣ –

الحسين والعرب

لم تكن أحوال البلاد العربية قبل الحرب العظمى هادئة مستقرة، فقد كانت الدولة العثمانية تسيطر على العراق وسورية. أما في الجزيرة فكان الأمر يختلف تبعاً للظروف والمناسبات. فأياماً تسود الدولة وتأمر فتنفذ، وأياماً يتقلص ظلها فتضطر إلى دفع الأموال لصيانة هيبتها. على أنه يمكن القول أن الامارات الرئيسية التي كانت تسيطر على شؤون شبه جزيرة العرب الداخلية بصورة رئيسية هي: امارة الحجاز بيد الأشراف. وامارة آل الرشيد في نجد الشمالية. وامارة آل سعود في نجد الجنوبية. وامارة الأدريسي في عسير. وامارة الزيود في اليمن. وامارة آل صباح في الكويت.

كانت سياسة الحسين في الأيام الأولى من توليه الأمارة، تقوم على بسط نفوذ الدولة العثمانية لأسباب بسطناها سابقاً. وتتلخص في اكتساب ثقة الأتراك وفي بسط نفوذه الشخصي وتوطيد دعائم ملكه. وقد قضى في هذا المضمار شوطاً كان يتطور مع المناسبات. على أنه بعد الثورة وعهود الانكليز عزم أن يجمع العرب تحت ظل واحد، ويرث الدولة العثمانية في السيطرة على الشؤون الخارجية لهذه الامارات على الأقل.

غير إن الأحوال السياسية لم تكن في جانبه لتنفيذ هذه الأمنية. فقد سبقه الأدريسي وابن سعود للاتفاق مع الانكليز. واعترفت هذه الدولة بسيادتهما في بلاديهما. ووقف ابن الرشيد في صف الترك، كما قام الإمام يحيى بمساعدتهم في اليمن. ولم تحن أية فرصة للشريف لبسط نفوذه على الامارتين

الأخيرتين. أم في سورية فقد حال الفرنسيون دون رغبة الملك فيها. وفي فلسطين كانت مشكلة اليهود، واطماع بريطانيا تقف في وجهه كما وقفت في العراق. وعلى هذا نرى أن جميع الظروف كانت ضد الحسين، فيما كان ينويه من تحقيق الوحدة العربية. وقد حالت سياسته الخاصة من جهة، وسياسة الانكليز من جهة أخرى، دون تحقيق أي أمل. بل كانت السبب المباشر في نهاية حكمه في الحجاز.

ومع إن أبرز ظاهرة في السياسة التي حالت دون بقاء الحجاز تحت سلطة الحسين، هي قضية فلسطين العربية مع الانكليز، والاختلاف على الحدود مع ابن سعود. فإنني سأوضح العلاقات التي سادت بين الحسين وجيرانه واحداً فواحد.

***

١- مع الادريسي في عسير

انشأ السيد محمد الادريسي هذه الامارة بجدّة وقوة شخصيته. وكانت ضعيفة في بادئ الأمر إلا أنها ما لبثت إن أخذت تتوسع، حتى تمكنت من التغلب على جيش الدولة العثمانية، فاستنجدت هذه بالشريف حسين الذي لم يكن مرتاحاً لقيام هذه الامارة في جانبه، فجهز حملة قادها بنفسه سنة ١٩١٠. ومعه نجلاه عبد الله وفيصل، فهاجم الأدارسة وهزمهم ووطد الأمن في تلك البلاد، ثم عاد إلى مقره.

وحينما هبّت نيران الحرب الكبرى، تحالف الإدريسي مع الانكليز. وكان الحسين مرتاحاً لهذه الخطوة. إلا أنه لم يتوان عن اعلان سخطه حينما استولى هذا على القنفدة بمساعدة الانكليز. فكاتب الانكليز قائلاً إن القنفدة حجازية، فلم يسع هؤلاء إلا اعادتها إليه.

وانتهت الحرب، واتسعت رقعة هذه الإمارة. فأقلق ذلك بال الحسين. وصمم على وضع حد لحكم الأدارسة هناك، فأمدّ أمراء أبّها آل عايض بالسلاح والمال. وقلق الأدريسي، واستنجد بابن سعود، وعقد معه معاهدة

تحالف، فجهز هذه حملة كبيرة سارت إلى أبّها وهاجمت آل عايض فهزمتهم. والتجأ بعضهم إلى مكة، واستسلم البعض الآخر. ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى أبّها لقتال النجديين، فهاجمها هؤلاء بقوة كبيرة عام ١٩٢٢، ودخلوا أبّها وألحقوها بنجد نهائياً وقضوا على آل عايض. غير أن بعضهم لجأ إلى الحسين فأمدّهم بالسلاح والجنود فعادوا إلى القتال، ودام ذلك حتى مهاجمة النجديين للحجاز. أي أن علاقات الحسين مع الأدارسة متوترة إلى أواخر حكمه.

٢- مع آل الرشيد في حايل

كان الحسين في عداء دائم مع أمراء الرشيد إلى نهاية الحرب. فقد كانوا في ذلك الوقت أقوى جيرانه ولا سيما في أيام كبيرهم محمد بن الرشيد، الذي استولى على نجد بكاملها. وقد كان الحسين يشجع ابن السعود على مقاومة آل الرشيد. وعندما التقى الطرفان في معركة جراب وهُزم ابن السعود، وزحف ابن الرشيد على بريده يريد احتلالها – أرسل الحسين ابنه عبد الله إلى أطراف نجد على رأس حملة قوية لتهديد ابن الرشيد. وفعلاً عاد ابن الرشيد أدراجه إلى حايل دون قتال، وعاد الأمير إلى الحجاز.

وفي خلال الحرب ربط ابن الرشيد مصيره بمصير الترك. فأمدهم بالمؤن والجمال وساعدوه بالذخائر والأموال. ولكن جيوش الشريف كانت كثيراً ما توقع بقوافله خسائر كبيرة. ثم انتهت الحرب فلم يبق لابن الرشيد أي حليف. فاغتنم عبد العزيز السعود الفرصة، وأغار على حايل في سنة ١٩٢٠، فكاتب أميرها الحسين طالباً المدد قائلاً: إذا لم تسرع لأغاثتي اليوم فهم مهاجموك في الغد. ولكن الحسين لم يلب الدعوة ووقف على الحياد. وهكذا تم لابن السعود في السنة التالية احتلال جبل شمّر والقضاء على هذه الامارة.

٣- مع الإمام يحيى في اليمن

تفصل بلاد عسير بين الحجاز واليمن. ولهذا لم تكن الصلات مباشرة

بين الحسين والامام يحيى. هذا إلى أن الحسين ما كان يريد من الإمام إلا الاعتراف بسيادته على البلاد العربية في الأمور الخارجية. أما الحكم الداخلي فيكون لأهلها. وقد حصلت مساع كثيرة لعقد تحالف بين الفريقين، وكان منها ذلك المسعى الذي قام به أمين الريحاني عام ١٩٢٢. ولكنه فشل لتصلب ككل منهما في أمر السيادة. ومع أن الريحاني ابتدع كلمة جديدة لحل المشاكل إلا أنها لم تف بالغرض وقد جاءت في عرض المعاهدة التي لم يوقعها الحسين، وهي: (يعترف الإمام للملك بالملك، ويعترف الملك للامام بالامامة)، لأن الحسين كان يطلب اعترافاً صريحاً وافياً والامام كان لا يجد مبرراً للتنازل عن حقوقه الذاتية.

وفي ذات السنة، أوفد الملك حسين محمد السقاف شيخ السادة الأشراف إلى صنعاء لمفاوضة الإمام. وكانت النتيجة أن أوفد الإمام في حج السنة التالية (١٣٤٢) السيد محمد زبارة إلى مكة فقابل الملك وحادثه بالمشروع، فصرح له بما يأتي:

إنني لا أريد ولا أقصد إلا تلك الأمنية المقدسة (اتحاد العرب). وإني أشد على هذا بأن يدي ممدودة لحضرتك إذا أردت أن تقوم بالأمر. كما أنني أول من يقاتل تحت راية من يتعهد بهذا الأمر وتقبله الأمة، فلا تتخذوني بأي صورة كانت مانعاً. وإن هذه غايتي التي أدين لله بها وأشهده عليها. كما أنني أحيا عليها وأموت وأولادي وكل من هو على رأيي.

ولكن عندما جاء دور وضع الأسس، اقترح الحسين أن يعيّن أئمة صنعاء بمنشور يصدره ملك الحجاز، وأن يمثل وزير خارجيته بلاد العرب سياسياً، وأن يعقد اتفاق جمركي وعسكري بين الفريقين. ولكن الإمام لم يقبل بهذه الاقتراحات لأنها تنتقص من سلطته، بينما هو يسعى لزيادتها. فتوقفت المحادثات، ولم يطل بالحسين الأمر في الحجاز بعدها. وقد كان بمقدور الحسين الانتفاع من حلفه مع الإمام لو توصل معه إلى اتفاق، ولكنه كان يهدف إلى توحيد بلاد العرب في الشؤون الخارجية على الأقل.

٤- مع ابن السعود في نجد[١].

كانت العلاقات بين الحسين وابن السعود، أكثر اتصالاً وأشد احتكاكاً من سواها، لأسباب كثيرة أهمها: الدعوة الوهابية، والتنازع على الحدود. وقد أدّت الدعوة الوهابية إلى تخوّف الحسين من امتدادها. وخشي أن تتحول قبيلة عتيبة - ثاني قبيلة في بلاد العرب- إلى صف ابن سعود، وعليه ففي أيلول ١٩١٠ سار الحسين بجيش من البدو والحضر ونزل الكويعية أرض عتيبة وفيها أسر سعد شقيق الأمير عبد العزيز، وقد جاء على رأس قوة لمقاومة الحسين. ثم وصل شمالاً فنزل الشعرى، ثم زحف فنزل ماءً قربياً من الوشم. وهناك توسط محمد بن حميد شيخ قبيلة عتيبة، بين الزعيمين فتعهد ابن السعود بعدم التعرض للقبائل الضاربة على الحدود وبدفع ستة آلاف مجيدي كل سنة للدولة، وأطلق الحسين أخاه سعداً، وقفل راجعاً.

وتحسنت على الأثر العلاقات بين الجارين، وساد التفاهم، فلم يحدث ما يكدر. وفي رمضان من ذلك العام أرسل الأمير عبد العزيز آل سعود، أحد أبناء عمه إلى مكة، مع هدية من جياد الخيل. وقال في كتابه للحسين "إننا حاسبون أنفسنا من خواصّكم. وإلاّ هديتنا رؤوسنا وما تحت أيدينا. وقد حررّنا هذا الكتاب بموجب تعرض لخدمتكم وما يبدو من اللازم. وإلا أمركم علينا تام على كل حال. وما تفعلون معنا وتحطون أنظاركم علينا تجدون إن شاء الله مضاعفاً بالخدمات والسمع والطاعة".

وفي كتاب آخر يقول بعد ديباجة فخمة ما يلي:

وما عرّفتونا جنابكم كان لدى ابنكم معلوم وخصوصاً من جهة عتيبة والقصيم، وإنهم يلقون إليكم من الأكاذيب الذي ليس لها حقيقة. ونحن متيقنين أن ليس حتى بأنفسنا أقرب منهم ومن غيرهم لسعادتكم، وأدنى

---

(١) إننا نسرد هذه الوقائع للحقيقة والتاريخ فقط. ومما يثلج الصدور أن رؤساء العرب يتجهون اليوم إلى تحقيق المصالح العليا للأمة العربية ولا تشغلهم المنازعات الشخصية عن ذلك الواجب المقدس.

جواب يصدر منكم إلينا يمنع السوء عنهم إذا كان صادر منا شيء. فالآن ابنكم وخادمكم ومملوك فضلكم، ثاني نفسه سامع مطيع لله ثم لحضرتكم، لأدنى واحد من أهل القصيم أو من عتيبة يدّعي علي بأدنى شيء منه ظلم، فكما تأمرون أفعل، امتثالاً لأمر الله ثم أمركم. وجميع ما زوّروه على حضرتكم دواء الكذب المقابلة، فإن كنت المجرم فأنا تحت أمركم كما تأمرون أفعل ومصطبر لأدبكم.

وعند اعلان الحرب حاول الأتراك اغراء ابن السعود ليدخل في حوزتهم، وقيل إنهم عرضوا عليه إمارة مكة فيما اذا أدّى موقف الشريف فيها إلى شيء من العداء، ولكنه لم يقبل. وأثناء مفاوضاته مع الانكليز سألوه من قبيل جس النبض عن الخلافة العربية فقال: " لا أرى من هو أجدر بها من الشريف حسين". وأجاب أنه يقف من أي عمل يقوم به الحسين لتعضيد الحلفاء، موقف المساعدة والتأييد.

وحين اعلان الثورة، أرسل الحسين إلى ابن السعود الهدايا والتحف وما يزيد عن عشرين الف جنيه، فارتاب هذا بالأمر، وأراد أن يعرف الغاية، فأرسل إلى الحسين هدية من الجياد مع شقيقه محمد وآخرين وحملوا إليه كتاباً من عبد العزيز هذه خلاصته:

يا حضرة الوالد. إننا وإياك في هذه الحرب. وقد مشت عرباننا إلى مساعدتكم. وإني مستعد أن أرسل إليك أحد اخواني أو أولادي ليحارب مع أولادكم... نرجو التفاهم على الحدود كي تزول الشكوك.

ولكن الحسين لم يكن يرى أن هناك مشكلة تتعلق بالحدود، إذ كانت الحدود بين نجد والحجاز معروفة. فقال للوفد. قولوا لموفدكم كل ما أنت عليه فهو لك. وهكذا عاد الوفد دون أن يحل المشكلة. وقد حضروا حصار الطائف في عودتهم وحلّوا ضيوفاً في معسكر الأمير عبد الله. وكان الظاهر أن كل شيء على خير منوال.

ولكن ابن السعود ما كان يكتفي بهذا. وازداد قلقه فزار البصرة،

وكانت إذ ذاك تحت الاحتلال البريطاني، وفيها تباحث مع السير برسي كوكس في شأن الحسين طالباً أن يعرف الموقف الحقيقي، لكي لا يحصل سوء تفاهم فيما بعد. وطلب من الانكليز أن يؤكدوا له أن لا يتدخل الحسين في شؤون نجد، وأن لا يتكلم باسم العرب، فوعدوه بذلك – وكان من مصلحتهم السياسية – ووفوا بوعدهم، إذ لم يمض طويل وقت حتى عرف القاصي والداني أنهم لم يعترفوا بالحسين إلا ملكاً على الحجاز.

وفي تشرين الثاني ١٩١٧، جاء إلى الرياض وفد انكليزي، كان المستر فيلبي من جملة أعضائه، لكي يتوسطوا في حل الخلاف. ثم تقدم فيلبي إلى الحجاز، ومعه بعض أقارب ابن سعود، وكتاب لا يختلف عن الكتب السابقة من عبارات المجاملة والولاء. ولكن الحسين لم يجب. وقال لرجال ابن سعود: لا لزوم يا أولادي للكتابة، نحن نحل مشاكلنا بيدنا. "ولعله كان يشير من طرف خفي إلى وساطة فلبي".

ونستطيع أن ندرك غاية الملك حسين، من المشروع الذي وضعه أساساً للوحدة العربية.

أما صيغة المشروع فقد جاءت – بعدما اشترط تفريق معسكرات الأخوان – على هذا النحو:

١- الأحكام بكتاب الله وسنَّة رسوله.

٢- أمراء نجد يكون تعيينهم على تعاملها وقاعدتهم الجارية المعروفة.

٣- لغو الضريبة التي تؤخذ على جمال المتسعرة بصورة كلية وهو المعروف بالباج.

٤- أمير نجد له حق تعيين صنوف المأمورين في داخل إمارته.

٥- لا حقّ لأمير نجد أن يخابر أي دولة كانت في أي مسألة كانت بأي شكل وصورة. وهذا أيضاً من حقوق المركز وعائد إليه. وتكون برأيه وواسطته واستحسانه.

٦- الحدود من الجنوب والجنوب الشرقي والغربي: الجبل المعروف

بالعرض، والشقراء ومسكة وتربة ووادي الدواسر تكون جميعها تابعة للمركز، والغرب والغرب الشمالي حدود عنيزة والقصيم معلومة.

٧- قبائل السهول وسبيع الأسفلين تابعين للمركز.

٨- لا يمنع القبائل التابعين للمركز ولا سواهم عن أي أرض يحتلونها للرعي. وإن وقع من القبائل المذكورة تعدي في الحال يرفع خبره للمركز لأجراء مقتضاه.

٩- الامتثال لأوامر المركز وتنفيذها في حق من يرد إلى داخل حدود الإمارة المذكورة ممن لم يكونوا من أهلها.

١٠- كل من يرد من أهالي نجد إلى المركز أو إلى أي بلاد في داخلية المملكة، يعاملون بمثل معاملة أهالي تلك البلاد في كل شؤونهم.

١١- المحافظة على كل حقوق وكافة معاملات من يكونون في الخارج من أهالي نجد، أي في بلاد أجنبية، فهي عائدة للمركز ومن حقوقه.

١٢- يجتنب بكل حذر واهتمام ما يوجب القلاقل والشغب في داخليته أو فيما جاوره من المملكة.

هذا يكون دستوراً لكافة الأمراء. ومن يكون أمثال أمير نجد، على أن الأدريسي حدوده قضاء صبيا المعروفة في زمن الترك، وكذا إمام صنعاء، ما كان يتصرف فيه من الأراضي في زمنهم.

١٧ صفر سنة ١٣٣٧ – ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٨

أما غاية الحسين في الوحدة العربية على هذا النحو، الذي لا يكون له منه إلا الحق في تصريف الأمور الخارجية، فلكي يتمكن من دحض مزاعم الدول الأوروبية في أقوالها: إن الاتحاد والاتفاق مفقودان في البلاد العربية، وإن الملك حسين لا يحق له المطالبة بأي حقوق خارج بلاد الحجاز. ويبدو ذلك جلياً في كتاب أرسله الملك فيصل من باريس في ٢٤ تشرين الثاني ١٩١٩، وفيه يتمنى أن يُرفع العلم العربي على كافة أنحاء الجزيرة كاليمن وعسير ونجد، لكي يبلّغ ذلك للدول ويتخلصون من كلمة "الحجاز" ويقولون

ملك العرب. وكذلك الأمير عبد الله في كتاب أرسله في ٢٨ نيسان ١٩٢٠ إلى نائب الملك بمصر يقول: "إن جلالته يبحث عن أمرين: الأول عن المسألة العربية الكبرى. والثاني – في المسائل البدوية لمشايخ العربان الذين يدعون أن عهود بريطانيا تسوّغ لهم فعل ما يفعلون". وخلاصة القول أن الحسين ما كان في طلباته أنانياً متعنّتاً. بل لم يكن يطلب إلا الوصول إلى درجة يستطيع فيها أن يحقق أماني العرب ويوحد كلمتهم ويجمع قوتهم في صعيد واحد، دون التدخل في الشؤون الداخلية للإمارات في شبه الجزيرة العربية.

وبقيت الأمور في الظاهر هادئة ساكنة، إلى أن عادت إلى الانتكاس والحرب توشك أن تنتهي، في شكل خلاف على ملكية تربة والخرمة، وهما واحتان واقعتان إلى شرق الطائف وراء جبل حضن. والخرمة مركز تجاري مهم بين نجد والحجاز ومفتاح الطائف، والطائف مفتاح الحجاز. أما أكثر أهلهما فمن سبيع والبقوم ولكن السيادة فيهما للأشراف.

عين الشريف حسين خالد بن لؤي أميراً على الخرمة وهو من أقاربه. ومع أن الإمارة لم تكن في بيته فقد كان للأخلاص الذي أظهره للحسين أثر جعله يعيّنه لهذه الوظيفة. غير أن خالدا اعتنق الوهابية، ثم حدث خلاف بينه وبين الحسين سنة ١٣٣٦ حمل الحسين على حبس خالد. ولكنهما لم يلبثا أن تصافيا واشترك خالد في حصار الطائف، ثم في حصار المدينة مع الأمير عبد الله.

وحدث خلاف بين الأمير عبد الله وخالد في وادي العيص، فأسرّ خالد البغضاء في قلبه واستأذن في الرحيل، فأذن له الأمير على شرط أن يمر بمكة ويزور الملك. فلم يفعل، بل قصد تربة وجميع رجاله وحصّنها. وذهب إلى الأمير عبد العزيز يحذّره من الشريف وابنه ويستنجده عليهما، فاغتنم هذا الفرصة وشجعه على المضي في العصيان.

خامرت الملك الشكوك فكتب إلى خالد يأمره بالحضور فأرسل يعتذر. ثم عيّن الملك قاضياً للخرمة ولكن خالد أعاده من حيث أتى. فكتب الملك

إلى خالد يدعوه للقدوم فأبى، فكرّر الطلب وأرسل الرسل، فأجاب أنه مستقل، ولا يريد الحضور. فأصدر الملك أمراً بعزله وعيّن أحد أبناء عمه مكانه، ولكن هذا أرسل يستعفي ويقول أن خالد لم يبق له نفوذاً ولا قيمة.

فاض الكيل فلجأ الملك إلى القوة، فأرسل حملة تتألف من ٥٠٠ بدوي بقيادة حمود بن زيد ومع القوة مدفع ورشاشان. فكمن لها خالد وفتك برجالها. فجهز الملك حملة ثانية من ألف بدوي ومعها أربعة مدافع، فأعاد خالد خطته وهاجمها ليلاً مع عربانه فأبادها وغنم معداتها. وكان رجاله لا يقلون عن ألفي مقاتل. فجهز الملك حملة ثالثة بقيادة الأمير شاكر بن زيد عدده الفي بدوي معظمهم من عتيبة . ولكن ما كاد يبدأ الهجوم حتى بدت علائم الخيانة فتسلل رجال الحملة ومعهم السلاح، فعاد القائد وحيداً. وعلى الأثر جهز الحسين حملة رابعة بقيادة صهره عبد الله باشا وكان عدد رجالها ثلاثة آلاف. ولكن الظاهر أن الملك خشي أن يكون نصيبها كنصيب سالفاتها، فأرسل إليها أمراً بالوقوف في جبل حضن انتظاراً لوصول الأمير عبد الله. فأقامت هناك نحو شهرين فتكت الحمى خلالهما بكثير من رجالها.

وحينما سلّمت المدينة كتب الأمير عبد الله إلى عبد العزيز السعود يخبره بذلك، فأجابه هذا مهنئاً ومؤكداً له أنه من المسالمين. فجاءه كتاب من الملك وآخر من الأمير عبد الله وفيه حاشية بخط الأمير بتاريخ ٣ جمادى الثاني ١٣٣٧ – آذار ١٩١٩ يقول فيها:

إنني أخوكم الصادق ومستعد لمساعدتكم بما تأمرون. ولايجوز أن يفرّق بينكم وبين والدي أمور البادية التي لا أهمية لها... وكيف يمكن أن يحدث خلاف بين رجلين كبيرين بخصوص تربة والخرمة؟ ها أنا متوجه إلى مكة فأرجوا أن ترسلوا أحد رجالكم وإن ارتأيتم أن يكون أحد انجالكم فذلك أولى. وأنا كفيل النجاح بحسم الخلاف والاتفاق مع سيدي الوالد.

وأحاطة علماً بأنه سيتوجه لتأديب خالد بن لؤي وأن ليس له من قصد سوى هذا.

أرسل الحسين يطلب من الأمير الرحيل مع جيشه، فجاء إلى أبيار ومنها قصد العشيرة (بين المدينة ومكة والطائف وحضن) فوافاه إليها. وهناك عقدوا اجتماعاً حضره أمير الطائف شرف بن راجح وشاكر بن زيد وبعض الأشراف.

وفي خلال الاجتماع أرسل ولسن باشا المعتمد البريطاني، كتاباً من الحكومة البريطانية مع سكرتيره، تدعو الحسين فيه إلى عدم الايغال في العداء، وأن يرجع بالجيش إلى الطائف حيث يوافيه ابن سعود فيتم الصلح. ولكن الحسين رفض قائلاً للرسول: "اذهب وقل لهم إنه ليس لهم حق التدخل في شؤوننا". كما ذهبت محاولات الأمير عبد الله الرامية إلى مصافاة ابن السعود سدى أمام تصلّب الحسين.

زحف الأمير عبد الله بجيشه بعد رحيله من العشيرة جنوباً. فخيم في شعب يدعى البديّع في جبل حضن، وكانت قواته تتألف من ٨٠٠ جندي نظامي و ٣٠٠٠ بدوي و ٢٢ رشاشة و١٧ مدفع. وكان من رأي الأمير أن يكتفي بمهاجمة القبائل النازلة هناك. وقد تحدث فقال: "لم يكن من رأيي مهاجمة تربة، وقد حاولت أن أقنع جلالة الوالد بالعدول عن عزمه، ولكني كقائد الجيش الهاشمي مطيع لأوامر مولاي. حتى إني كتبت إليه بعد مذاكرتنا في العشيرة، ولبثت في البديّع انتظر جوابه، فلم يكن غير الأمر بالزحف".

اضطرب ابن السعود، فكتب إلى حكومة بريطانيا بواسطة مندوبيها في العراق. يخبرها بأن الجيش الهاشمي يهاجم نجد، فجاءه الجواب أن ذلك من الاشاعات التي لا صحة لها. غير أنه جهّز حملة بقيادة سلطان بن بجاد لمساعدة ابن لؤي. وأرسل عدة جواسيس لموافاته بأخبار الأمير. وقام بعمل ثالث فكتب كتاباً بتاريخ ١٠ شعبان (أيار) أرسله إلى الأمير عبد الله. وفيه يطلب أن يعود الأمير إلى عشيرة، وأن لا يهاجم تربة، ويقول فيه: -

بلغني أنك جئت تجر الأطواب (المدافع) والعساكر، تريدنا بنجد وحنّا ما عندنا بنجد إلا الرمث نتظلل به حنّا وعولاتنا. فأنت أعلم أن أهل نجد كافة جاؤوك يمشون مرتهم تسبق رجالهم من أقصاهم في الشمال وأدناهم في

الجنوب. وأن خرجت ونزلت الصخة مثل الفراع. وعليه فأنت انكفّ لديرتك، فإن فعلت فأنا أمنع الاخوان، وإن لم تفعل فبصرك بنفسك.

ولكن كتاب ابن سعود وصل بعد احتلال تربة إذ زحف جيش الأمير عليها وضربها بالمدافع ودخلها. وقد أجاب الأمير على كتاب ابن سعود بقوله:

تقول إني بينما أكتب إليك مسالماً أجر الأطواب على المسلمين، وإن مظهري هذا أثار ثائر الناس علينا. وإنك خرجت فزعاً إلى أن يأتيك مني الجواب، وإليك به عن لسان صاحب الشوكة والدي وحكومته:

أولاً – أظن إن صاحب الشوكة سيد الجميع يرحب بكل من يطلب كتاب الله وسنة رسوله. ويحي ما أحيا الكتاب والسنّة. ويميت ما أماته الكتاب والسنّة. وهذا دأبه ودأب أجداده من قبل.

ثانياً – لا أذكر أن أحداً منا وقّع على كتاب بأنكم لستم من ملة الرسول أو أنكم من الخوارج.

ثالثا – كل من شق عصا الطاعة من رعايا صاحب الشوكة يستحق التأديب شرعاً، شخصاً واحداً كان أو ألف شخص (المقصود بهذا خالد بن لؤي).

خامساً – أما قولك أن الناس نفروا جميعاً لحربنا... فإن جاؤنا بنية حسنة فنحن لهم وهم لنا يا عبد العزيز قبل أن ينزل أجدادك بنجد. وإن بغوا فلكل باغ مصرع وأن الله مع الصابرين.

سادساً – تأمرني بالرجوع إلى ديرتي من أرض هي لأبي واجدادي. ومتى كنت تمنع الناس عن ديرتهم؟ جزيت خيراً. ولكن هل تذكر أن رجلاً من قريش ثم من بني عبد مناف، ثم من بني هاشم. جدّه الرسول وعلي بن أبي طالب. يقعقع له بالشنان، ويروّع بمثل هذه الأقاويل.

سابعاً– تقول إني لو التمس رجلاً في نجد يرجح الحياة على الموت في

سبيل الله لم أجده. فكان الأوفق لهم اذن أن يأتونا ويجاهدوا الأتراك معنا عن بيت الله ومسجد رسوله حتى ينال الشهادة من كتبت له. ثم بعد تردون يمنا (نحونا) النظر.

ثامناً- أخبرتك في كتابي بفتح المدينة المنورة، بأنني متوجه إلى الوطن لتأديب العصاة. وسألتك هل أنت على عهدي بك أم تغيرت نياتك. فجاءتني نجاجيبك بجواب منك فيه الميل للتقّرب والمسالمة، فرجوت خيراً، وعززته بالجواب الثاني. فجاء ثاني كتبك ومثله لوالدي ولأخي ملؤها المودّة المؤكدة باليمين وكل ذلك محفوظ. فما حملك الآن على تغيير لهجتك؟ أمن أجل أننا نؤدب رعايانا ونصلح ما فسد في قبائلنا؟

تاسعاً – إن كنت تنوي الخير للعرب كما زعمت، فأردد الذين أمرتهم ببيع مواشيهم. وبنيت لهم الدور. واخلُ أنت مكانك الذي وصلت اليه وعد إلى ديرتك، ولك عليّ الاّ أمس أحداً من أهل نجد بسوء.

إني مرسل اليك كتابي هذا مع أحد نجاجيبك وهو القسماني، وأبقيت الآخر ليأتيك بخطاب صاحب الشوكة والدي والسلام.

٢٣ شعبان ١٣٣٧

(٢٣ايار ١٩١٩)

أما قوات ابن لؤي وابن بجاد والعشائر التي معهم، ولا يقل عددها عن ٢٥ ألف، فقد مشت إلى الخرمة إلى مكان يدعى القرنين، ثم زحفوا فوصلوا البلد في منتصف ليلة ٢٥ شعبان (٢٥ أيار) وكانوا قد قسموا أنفسهم إلى ثلاث فرق. وكان جيش الأمير مرابطاً في مواقعه، فباغته المهاجمون في موجات بشرية كثيفة. وبدأت ملحمة مريعة، اختلط الحابل فيها بالنابل. وبعد خمس ساعات انتهت المعركة بسقوط عدد كبير من أفراد الجيش الهاشمي قتلى. وكانت خسائر المهاجمين عظيمة أيضاً. أما الأمير عبد الله فقد نجا بما يشبه المعجزة.

وصلت الأخبار إلى الحسين فاضطرب وأرسل الجنود إلى الطائف وخاطب رئيس الحكومة الشيخ عبد الله سراج معتمد بريطانيا، فأجابه أنه مستعد لمعاونة الحجاز، وطلب منه إعداد مكان في جدّة لنزول طيارات انكليزية، فأعدَّ المكان، ووصلت يوم ١٧ رمضان طيارتان.

وأرسلت الحكومة البريطانية انذاراً إلى ابن سعود – وكان قد وصل تربة آنذاك – هذا نصه:

" أمرتني حكومة جلالة الملك أن أبلغكم بأن تعودوا إلى نجد حالما يصل إلى يدكم كتابي هذا، وتتركوا تربة والخرمة منطقة غير مملوكة حتى مفاوضات عقد الصلح وتحديد الحدود. وإذا أبيتم الرجوع بعد الاطلاع على هذا الكتاب فحكومة جلالة الملك تعدّ كل معاهدة بينكم وبينها ملغية وتتخذ ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدائية. وبالعكس فهي تقدر علمكم إذا عدتم، وتعتبر أنكم قمتم بحقوق الود والولاء وأخذتم بنصائحها الودية ، لأنها تعد الجميع أصدقاء لها. وهي تأسف أشد الأسف لما وقع بين اصداقئها، سواء كان النصر في جانبكم أو في جانب الحسين".

وفي منتصف حزيران رحل ابن السعود بعد أن أرسل الجواب بالإيجاب إلى جدّة. أما الأمير عبد الله فقد أقام في الطائف فبنى حولها سوراً سلّحه بالمدافع وشحنه بالمقاتلة خوف المباغتة. وكتب إليه والده بأن يجمع القبائل ويستعد لحرب جديدة فأبى. فطلب حضوره إلى مكة فجاءها في أواخر حزيران. ثم ذهب إلى جدّة وقابل معتمد بريطانيا وباحثه في وسائل الصلح. ولكن الحسين رفض أي صلح قبل ارجاع تربة والخرمة، وايقاف ابن سعود عند حدّه. ورفض كتاباً جاءه منه وأبى أن يفضّه أو يرسل جواباً عليه، مما جعل نائب الملك بمصر يكتب إلى الحسين في ٥ تشرين الثاني كتاباً مطولاً جاء فيه:

" إن الحكومة البريطانية تقف ازاء اشتعال الحرب في جزيرة العرب،

موقف القلق المضطرب، خصوصاً لكون حدوث ذلك يؤثر على القرارات السياسية التي سيتفق عليها قريباً.

"ثم انه لا يجب أن يخامر جلالتكم أقل ريب في وفاء الحكومة البريطانية نحوكم، التي يتحتم عليها عدم اتخاذ جانب ابن سعود أو غيره فيما يضر بمصالح جلالتكم. ومع أن جلالتكم لا تجهلون المعاهدة التي بين الحكومة البريطانية وبينه وفيها ضمان حقوقه داخل بلاده. إلا إنها بلغته بصفة رسمية أنها تنظر بعين الاستياء إلى كل عمل يأتيه خارج بلاده. ورفضت طلبه زيادة الذخائر والمهمات الحربية.

"إنني لا أذكر هذا إلا لغرض ايقاف جلالتكم على حقيقة الحال. ولكي تقدروا حق التقدير البواعث التي حملت الحكومة البريطانية على نصيحة جلالتكم بالوقوف عند حد معلوم بشأن الخرمة والقبائل التي حولها. ونظراً إلى ما سبق ذكره، وما تكرّر وروده في كتاب جلالتكم يصعب علي تصديق ذلك الخبر الذي جاءني، وهو أن جلالتكم رغبتم في قطع العلاقات الودية مع ابن سعود مما يكنّى عنه بارجاعكم رسله ورفضكم كتابه.

" وإنني أرجوكم أعظم الرجاء، أن تجتهدوا لمنع كل البواعث الجوهرية التي تؤدي إلى سوء التفاهم مع الأمير المشار إليه بشأن سياستكم نحوه، فإنه وإن كان أقل درجة من جلالتكم وأضعف موارد، لا ينكر أنه ذو تأثير وأهمية في السياسة العربية".

عاد الأمير عبد الله إلى الطائف، للنظر في أمر القبائل التي أخذت تعتدي على السابلة بعد يوم تربة فأخذها باللين والحكمة، فاستقرّت الأمور وقضى نحو ستة أشهر في الطائف وجاء خلالها شيوخ البقوم وسبيع وغيرها مقدمين طاعتهم. ثم عاد إلى مكة لمقابلة أخيه الأمير علي وكان قادماً من المدينة على رأس قوة من الجند . ولم يطل به المقام حتى تلقى أمراً من أبيه أن يرافق قوة أخيه وعددها ٦٠٠ جندي ويستنفر القبائل ويزحف على تربة ويضرب خالداً وأنصاره ضربة شديدة، إلاّ أن الأمير رفض قائلاً: إما أن تعدّ

جيشاً نظامياً لا يقل عدد رجاله عن ٨٠٠٠ مجهزاً بالمعدات الحديثة، وجيشاً آخر من البدو لا يقل عنه. وإما أن تتركني وشأني، وتسير على سياستي السلمية، فأسعى لاستمالة القبائل ولو بموافقتها على تدينها بالوهابية، وأفضّها تدريجياً من حول ابن سعود. ولكن الملك لم يرض، فقال له الأمير : لقد انهزم جيشي حينما أطعت أوامركم ولن أعرض نفسي لهزيمة أخرى.

وبعد شهرين عاود الملك محاولته مع الأمير. وكان قد قصد الطائف. ولكنه أبى مرة أخرى. وقضى الأمير نحو ثلاثة أشهر هناك، ثم عاد إلى مكة ومنها سافر إلى شرق الأردن على أثر سقوط عرش الشام. وفي خلال اقامته الأخيرة في الطائف كان دائب الجهد في تحسين العلاقات بين والده والسلطان عبد العزيز. فقد كتب إليه في ١٠ آب ١٩٢٠، رسالة ودية تدل على حنكة سياسية، ومما جاء فيها قوله:

"إنني قبل كل شيء أحمد الله الذي ألهمكم وأفهمكم على اركاب الأخ أحمد إلى هذا الجناب، لحسم ما هو واقع من الأمور المحزنة والحوادث المفجعة التي لا سبب لها سوى غلطات متتابعة. إذ إنني على يقين من أن والدي وشخصكم لا تريدون لبعض ما يريده العدو لعدوه، وإن لكل منكم متسع فيما هو لآبائه، كما أن حنكتكم السياسية وفطنتكم الذاتية لا شك أنها أوحت اليكم كما أوحت الينا مفروضية تغيير الشكل الحاضر ولزوم التفاهم في كل وارد وصادر".

وسادت فترة هدوء بين الفريقين. غير أن الحسين لم يسكت عن المطالبة بحدود الحجاز الأصلية ومن ضمنها تربة والخرمة. وأراد لذلك السبب أن يمنع النجديين من الحج عام ١٣٣٩ (١٩٢١)، غير أن الحكومة البريطانية أغلظت القول لابن سعود لكي يعمل على تهدئة الحالة في حدود الحجاز، وتداخلت مع الملك حسين للأذن للنجديين بالحج كغيرهم من مسلمي العالم.

وفي السنة التالية أوفد السلطان عبد العزيز، الشيخ أحمد بن ثنيّان إلى مكة. ودار البحث حول السماح للنجديين بالحج فوافق الحسين. وأرسل

السلطان مع مساعد بن سويلم أمير الحج النجدي إلى الأمير علي بن الحسين كتاباً يقول فيه:

" لما رأيت تفضل صاحب الجلالة الوالد المعظم ببذل عنايته بالسماح لأهالي نجد لاداء فريضة الحج، حيث برهن على حسن عواطفه وأظهر فضيلته، أحببنا أن نرخص لبعض رعايانا لزيارة بين الله الحرام بصحبة خادمكم مساعد بن سويلم، فاتخذت هذه خير وسيلة وأعظم فرصة لأهدي حضرتكم جزيل السلام ولأعبر لسموكم من عظيم اشتياقي وخالص نواياي لتجديد عهود الصداقة. وتمكين الصلات الحسنة التي تربط هذين القطرين غير ملتفتين إلى ما قدّر الله رغم ارادتنا أن يقع فيما مضى، من الحوادث التي طالما أوجبت تأسفي وكدري".

وعندما ازمع الحج على الرجوع، كتب الملك إلى ابن سعود رداً على كتابه لولي عهده، وجاء فيه:

"أما ما أشرتم اليه من حسن ظنكم واحلالنا في المنزلة والمكانة التي صرحتم بها، فجزاكم الله خيراً، وكان بودنا أن كلما جرى وكان، مما قدّره الله أن لا يكون، ولكن له في خليقته ما يشاء. وعلى كل حال فإنك يا عبد العزيز تجدني في الموقف الذي تركتني فيه لا تغيرنا الحوادث. وما صرّحت به للشيخ أحمد بن ثنيان في محرري لحضرتك برفقته تراني عليه اليوم، يا صاحب الحرمة والمكانة، لا غرض لنا وقصد إلا عزّكم ومجدكم يا بني يعرب. وإني أقسم لكم بمن فطر السموات، والأرض أنه لا يهمني إلا ذلك، وإني مستعد لتسليمك البلاد بكل انشراح وارتياح لسلامتها وسلامة ابنائها من كل ما أدركتموه، ومما لا شك انكم ستدركونه. وأن كل ذلك حقيقة لا يعتريها التبدل بحوله تعالى، وانها مجردة من كل قصد وغاية لا أريد بها إلا عزّكم وسعدكم بقدرة الله يا أبناء البلاد...

ولكن بالرغم من هذه المراسلات الودية، فان عدم حلّ المشكلة بقي يؤجج الخصومة، فقد كان الحسين يرى أن منطقة تربة والخرمة – وهي جزء

من الحجاز – تخرج عن طاعته ولا يستطيع استردادها، بسبب تأييد السلطان عبد العزيز للشريف خالد بن لؤي. أما السلطان عبد العزيز، فقد كان واقعاً تحت ضغط الأخوان الوهابيين الذين كانوا يرون أنه لا يجوز بأي حال التخلي عن اخوان لهم اعتنقوا مذهبهم واستعانوا بهم. ومما يؤسف له أن جميع المحاولات التي بُذلت لحل المشكلة، لم تقترن بالنجاح.

٥- مع أهل العراق وسورية

كان الحسين يعتبر هذين القطرين أهم الأقطار العربية. وقد صرّح مراراً عديدة أن الحجاز على استعداد لأن يتبع سورية. وكان دائم الاحتجاج على سياسة الحلفاء فيهما. وقد ازدهرت آماله حينما دخل جيش الثورة إلى الشام وتأسست الحكومة السورية، وحسب أن عهد الحرية قد بدأ. ولكن موقف الفرنسيين وقضاءهم على دولتها الفتيّة، كان له أعظم الأثر في نفسه فاحتجّ عليه أشد الاحتجاج. ولكن احتجاجه لم يؤد إلى تعديل خطة القوى الغاشمة. أما في العراق فقد كان يراجع بريطانيا في كل مناسبة، مطالباً بتأليف الحكومة العربية. وأوفد الأمير عبد الله إلى القاهرة سنة ١٩٢٠ لبحث هذه المسألة، إلى أن اجابت الحكومة البريطانية طلبه بعد ثورة العراقيين الكبرى، ووافقت على تشريح الملك فيصل لعرشها. وتحقّقت بعض آمال الحسين في هذه البقعة. ولا بدّ من الاشارة إلى موقفه من الثورة السورية الكبرى، فقد أرسل من قبرص في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٥ إلى رئيس عصبة الأمم البرقية التالية، احتجاجاً على أعمال فرنسا فيها:

بصفتي المعلومة الأساسية، أقدم لفخامتك وللهيئة الموقرة احتراماتي. ثم أجلب أنظر كمالات مزاياكم إلى الأعمال الجارية في عموم سورية ونتائجها المؤدية إلى محو العرب، والمؤثرة حتى على شرف المقصد الأساسي من شكل وتأسيس هيئتكم الموقرة. ولا سيما بعد اعلان الحلفاء بصورة رسمية انهم لم يخوضوا غمار الحرب إلا لخلاص الشعوب المظلومة واعادة حقوقهم ومنافعهم. إلا أن العرب لا تشملهم مقاصد تلك التأسيسات، ولكن بلاغ العظمة

البريطانية أخيراً لمخلصكم بأن هيئتكم المعظمة قررت انتداب عظمتها أيضاً على معان والعقبة ضمن انتدابها على عمان الشرق العربي يخالف ذلك. وعليه فالمرجو من الفخامة اصدار القرار القطعي الصريح بمصير بلادنا معاشر العرب وتطبيق قوانين وقواعد الانتداب الأساسية على ما ترى انتدابه من بلادهم. وإلا فالعرب لهم الفخر في الحكم عليهم بأن يكونوا ضحية لمصالح الحلفاء واخلاق المدنية الحاضرة.

ويروي الملك عبد الله في مذكراته، أن الحسين لم يكن راضياً عن النزعة التي كانت ترمي إلى تأليف حكومات منفصلة في سورية والعراق، لاعتقاده أن عملاً كهذا لا ينتج عنه سوى توزيع القوى العربية، وتسهيل تدخلات الأجانب فيها. بينما كان هو يهدف إلى توحيد الأمة العربية في آسيا تحت راية واحدة، لتجابه القوى الخارجية بعزم ويقين وبقيادة الطبقة المتنوّرة في سورية والعراق.

٦- مع عرب فلسطين

كانت قضية فلسطين شغل الحسين الشاغل، منذ اعلان وعد بلفور الغاشم، فهو ما كان يخشى الانتداب الفرنسي على سورية، والانتداب البريطاني على العراق، بقدر ما كان يخشى الخطر الناجم عن مطامع اليهود في فلسطين. وقد رأينا كيف رفض الحسين توقيع المعاهدة مع بريطانيا لأجل فلسطين ، وسنرى كيف رفضها مرة أخرى. وكيف وقفت مشكلتها حجر عثرة في سبيل كل اتفاق بينه وبين الحكومة البريطانية. ولا أراني مغالياً إذا قلت أن سقوط العرش الهاشمي في الحجاز يعود قبل كل شيء إلى موقف الحسين دفاعاً عن فلسطين واهلها العرب.

وفي سنة ١٩٢٠ رفعت الجمعية العربية الفلسطينية، كتاباً إلى الملك حسين بخصوص قضية فلسطين، فتلقت كتاباً مؤرخاً في ٢٣ شوال سنة ١٣٢٨ (١٠ تموز ١٩٢٠) جاء فيه : وأؤمل أن تعتقدوا أننا من وراء ظنهم فيما

يقتضي عمله. وأننا لم ندع ما في وسع البشرية من العمل. وسيثبت لكم المستقبل بأننا قمنا بما تفرضه علينا القومية.

وفي سنة ١٩٢٢، سافر وفد فلسطيني إلى مكة، فقابل الملك ووجد منه عطفاً أكيداً على أماني أهلها العرب ولاقى صدراً رحباً من جريدة القبلة فنشر كل ما أراد نشره من البيانات والاحتجاجات. ولكن الانكليز لم يسكتوا عن هذه الحملات، وخصوصاً أن الدعاية امتدت إلى الحجاج الوافدين من أنحاء العالم، فكتبوا كتاباً طويلاً للملك بتاريخ ٢٩ تشرين الأول، هاجموا فيه الوفد الفلسطيني واتهموه بسوء النية. وكذبوا كثيراً من أقواله التي أذاعها في الحجاز. كما أنهم تواجهوا بالملامة إلى حكومة الحجاز ومحرري جريدة القبلة على تركهم البيانات بدون تعليق. كما أردفوا الكتاب ببيان من وزير المستعمرات عن سياسة الحكومة البريطانية في فلسطين... فرد الملك على هذا الكتاب مدافعاً عن الوفد وقائلاً: وحيث إن هذه المباحث كلها مخالفة لمقرراتنا مع بريطانيا وتعهداتها، لذلك لا يمكن البحث في الموضوع. ثم حمل على مشروع روتنبرغ وتسليح اليهود وعلى وعد بلفور من أساسه.

وحينما أذاعت حكومة فلسطين خلاصة المعاهدة الثانية التي عرضتها الحكومة البريطانية على الملك، وفيها مادة تقضي بالاعتراف بموقف اليهود في فلسطين. ثارت ثائرة العرب فيها وأرسل موسى كاظم باشا الحسيني كتاباً إلى الحسين لفت فيه نظره إلى مخالفة المعاهدة للعهود المقطوعة للعرب. فتلقى الجواب مؤرخاً في ٢١ شوال ١٣٤١ (٧ حزيران ١٩٢٣) وقد جاء فيه ما يلي:

" اؤكد لكم بهذا أن عزمنا الأساسي – المؤملين تأييده بقدرة الله – أن لا نتأخر عن واجباتنا مقدار شعرة. واعلموا أنها حركة عليها نحيا وعليها نموت. والحقائق كما ذكرت تصلكم بعده. فكونوا واثقين بأنه لا يعترينا فتور في سبيل غايتنا الشريفة التي لا نريد بها إلا خدمة بلادنا وأبنائها أخواننا".

وبعد شهرين من تاريخ هذا الخطاب ألقى الملك بياناً على كبار الحجاج عن المعاهدة هذا نصه:

"يهمني من جميع الأقطار العربية ما يهمني من أمر بيت الله الحرام. وقد عرضت عليّ الحكومة البريطانية معاهدة وجدتُ في بعض موادها ما لا يتفق مع العهود المقطوعة لي. **فعدلت تلك المعاهدة تعديلاً هاماً نصصت فيه على استقلال فلسطين استقلالاً تاماً مطلقاً يخول الفلسطينيين حق ادارة بلادهم بأنفسهم، واختيارهم طريقة الحكم التي يريدونها**. وبذلك جعلت وعد بلفور في حكم أنه لم يصدر وقُضي عليه بالموت. وفوق ذلك فإني طلبت في التعديل أنه بعد عقد المعاهدة يؤمر المندوب السامي بفلسطين ان يصرّح – بحضور مندوب من قبلي – أمام ممثلي فلسطين : باستقلال الأقطار الفلسطينية استقلالاً ناجزاً، ودخولها صراحة في الوحدة العربية طبقاً للعهود البريطانية المقطوعة لي. وأؤكد لكم أنه اذ لم تقبل الحكومة البريطانية التعديلات التي طلبتها، فلا يمكن أن أوقع على المعاهدة بل أرفضها رفضاً باتاً. وكونوا على ثقة أنه لا يمكن أن يذهب شبر من أراضي فلسطين وأنا وأولادي أحياء على وجه الأرض. فإننا نحافظ على أحقر قرية في فلسطين محافظتنا على بيت الله الحرام. ونريق في سبيل ذلك آخر نقطة من دمائنا. وعلى كل حال فإنني بعد انتهاء أمر المعاهدة، سأحضر بنفسي إلى أطراف تلك البلاد. فإذا ورد جواب لندن على مطالبي بالايجاب استشيركم في طريقة الحكم التي تريدونها. وإذا ورد جوابها بالسلب استشيركم فيما يجب عمله. وإنني أسير معكم على ما تتفقون عليه. **وكونوا على ثقة انني أنظر إلى أهل فلسطين نظري إلى أولادي ولا أفرّق في ذلك بين مسلم ومسيحي ويهودي وطني، ومن يرجع من الصهيونيين عن أطماعه البلفورية**. وانني أشهد الله على ذلك وهو حسبي ونعم الوكيل".

وبرّ الحسين بوعده فجاء عمان يوم ٨ كانون الثاني ١٩٢٤. فانتدبت اللجنة التنفيذية العربية وفداً برئاسة موسى كاظم باشا، فسافر إلى عمان وقابل الملك وتباحث معه في مشروع المعاهدة. وأبلغوه أنهم قرروا أن لا يتنازلوا عن طلب استقلالهم. فأجابهم: انه لا يعاهد عهداً ولا يبرم أمراً بشأن فلسطين ومصيرها قبل أخذ رأيهم ونيل موافقتهم. وإنه ينزل على ارادتهم ويتبع

قراراتهم بشرط أن لا تخرج عن دائرة الحكمة والروية. واقترح عليهم أن يضعوا ميثاقاً وطنياً يتضمن مطالبهم.

وأوفدت اللجنة الصهيونية بعض زعمائها ومعهم مضبطة لتسليمها إلى الملك. فقابله وبعد أن خطب أمامه رئيس الوفد مرحباً بقدومه ومتمنياً أن يتم الاتفاق بين العرب واليهود على يده. ردّ عليه الملك بخطاب قال فيه "يجب ان تعلموا أنه تتحتم الاستماتة في سبيل ما استهدفنا اليه. وأن نضحي من أجله كل عزيز ولا نسمح بالنكوص عن ذلك أبداً. ومع هذا فإنكم إذا احببتم الدخول علينا ومواطنتنا على الطريقة التي تدخل بها الأمم على الأمم، فإننا نرحب بكم ونحترمكم ونساعدكم وتساعدوننا يا بني اسرائيل وخصوصاً وأننا نحن العرب أحرص الناس على الشهامة والوفاء. وها هم الاسرائيليون بين ظهراني العرب عندنا يتمتعون بكل ما يتمتع به سواهم من السكان في الحقوق وكافة مقتضيات العدل والانصاف في المعاملات ولا فرق عندنا في الأديان".

"وقد استمر الملك حسين على موقفه في فلسطين، تحت تأثير الأحزاب العربية، حتى آخر لحظة من حكمه. وكان موقفه في فلسطين وتصريحاته المتعددة من أهم المسائل التي عرقلت المفاوضات بينه وبين الانكليز. وقد كانت عقيدة الملك حسين أن فلسطين هي جزء من المملكة العربية التي وعد بتشكيلها، وأن وعد بلفور باطل لمخالفته للعهود المقطوعة له من بريطانيا"(١).

***

إن هذا الموقف الذي وقفه الحسين من قضية فلسطين . لهو أشرف موقف يمكن أن يقفه عربي نحو القضية الوطنية. وهو يسجل للشهامة العربية مفخرة عظيمة تعتز بها في التاريخ. وقد كان وسوف يبقى مبعث وحي نبيل لأهل فلسطين خاصة وللعرب عامة، يدفعهم إلى الاستهانة بكل نفيس وعزيز في سبيل الدفاع عن تراث الآباء ومعالم الأجداد. ولا أحسب أن عربياً نسي

---

(١) حافظ وهبه، جزيرة العرب في القرن العشرين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٥، صفحة ٢٢٦، وكان حافظ وهبه (وهو مصري الأصل) قد التحق بالسلطان عبد العزيز، وبقي يخدم في سلك الخارجية السعودية، وزيراً مفوضاً وسفيراً، حتى وفاته.

الضجة العظيمة التي أحدثتها دعوة الحكومة لممثلي الدول العربية عام ١٩٣٩ ومباحثاتهم في لندن بشأن قضية فلسطين، واعتماد هؤلاء في مطالبهم على مراسلات الحسين والعهود التي قطعت له، مما اضطر الحكومة البريطانية إلى الاعتراف بالواقع من أن فلسطين كانت ضمن البلاد التي تم الاتفاق مع الحسين، على أن تكون ضمن الوحدة العربية.

– ٤ –

الآمال الضائعة

كتب السير ونجت المندوب السامي البريطاني في مصر، رسالة مؤرخة في ١٩ نيسان ١٩١٧ إلى الملك حسين قال فيها: "أؤمل أن لا يبرح من بال جلالتكم، أن الحكومة البريطانية هي التي تحترم المعاهدات، وهي حامية ذمار الحق والعدل، والحليفة الوفية التي لا تخون العهود".

وصرّح اللورد كرزن وزير خارجية بريطانيا عام ١٩٢٠: "إن سياسة بريطانيا في بلاد العرب سياسة هاشمية".

ومن الواضح، أن الانكليز كانوا يأملون التوصل إلى اتفاق مع الحسين، حول جميع القضايا المعلقة. ويتطلعون إلى التحكم في مرافق بلاد العرب بعد ارضائه بالأموال والأقوال، واستعمال نفوذه في تنفيذ سياستهم تلك. وطبيعي أن أشدّهم تشاؤماً ما كان يتوقع أن يقف الحسين في وجه أطماعهم، تلك الوقفة الحازمة المتشددة، فلا يرضخ لاغرائهم ولا لتهديدهم، ويضحّي بالنفس والنفيس في سبيل الدفاع عن حقوق أمته.

ولم تكن السياسة عند الحسين شيئاً ملتوياً غامضاً مطاطاً، كما نشاهد اليوم

في سياسة دول كثيرة من دول العالم. بل كانت شيئاً واضحاً مكشوفاً للعيان، لا إبهام فيه ولا تعقيد. وبسبب بساطة نفسه كان يرى العجب في كل الذين حاولوا حمله على الانحراف عن مبادئه الوطنية، ويستغرب كيف لا

يرون بساطة قضية العرب ووضوحها وعدالتها.

ولا بد أن نتحدث هنا عن بعض المشاكسات التي لقيها من حليفته الوفية التي لا تخون العهود! إلا وهي قضية المحاجر الصحية. وخلاصتها أن حكومة الهند البريطانية قد طلبت في حزيران ١٩٢٠ أن تكون مسؤولة عن ادارة المحاجر الصحية في الحجاز، بان توفد أطباء هنود للأشراف عليها. وأن لا تقيم حكومة الحجاز محجراً في جزيرة ابي سعد بل تكتفي بمحجر جزيرة قمران الانكليزي، فينزل فيه الحجاج القادمون من الهند والجزائر الغربية، على أن يعاين في جزيرة ابي سعد الحجاج القادمون بطريق السويس معاينة صحية فقط، وأن تمثل الحكومة الانكليزية الحجاز في مجلس المحاجر والصحة الدولي، لقاء عوض مالي تدفعه لحكومة مكة سنوياً.

ورأى الملك أن في هذه الأعمال مساساً بكرامة حكومة الحجاز وانتقاصاً من استقلالها. وهو ما كان يقاومه أشد مقاومة خصوصاً لمنع القيل والقال بشأن علاقاته مع الانكليز، وليبرهن بأنه لا يتقيد بمقترحاتهم إذا تعارضت مع مصلحة البلاد. فأبى قبول الاقتراح. وقد كتب اليه اللورد اللنبي كتاباً خاصاً يرجوه بهذا الشأن، فأصرّ على الرفض. فهدد الكولونيل فيكري مندوب بريطانيا السياسي في جدّة الحكومة الحجازية باحتلال جزيرة ابي سعد بحرياً، فكتب الحسين إلى اللورد اللنبي محتجاً فأُقيل المعتمد. ثم حاول الانكليز مرة أخرى الاشراف على المحاجر عندما طلبوا ذلك باسم الحكومة المصرية، ولكن الحسين بقي مصراً على رفض كل تدخل. وأرجئ البحث في هذه القضية إلى أن تحين الفرصة للقيام بتسوية القضايا المعلقة كلها.

***

وقرّر الحلفاء عقد مؤتمر دولي في لوزان للنظر في مشكلات الشرق وتصفية أموره. ولا سيما من الوجهة التركية بعدما انتصر الترك على اليونان وطردوهم من الأناضول. وقد دُعي الحسين لارسال من يمثله في هذا المؤتمر فانتدب الدكتور ناجي الأصيل مندوبه في لندن لتمثيله في المؤتمر . وهذا نصّ البرقية التي أرسلها اليه في كانون الأول سنة ١٩٢٢.

" سافر إلى لوزان لتبليغ رؤساء وأعضاء المؤتمر الموقر احتشاماتي وتعظيماتي، وبأن لي الابتهاج أن استرعي تأمل شهامتهم في أبسط مستند، وهو برقية وزير خارجية بريطانيا العظمى باللسان الآتي مآله أدناه الذي يستدل منه على درجة تعهد الحلفاء للعرب أمام قيامهم ووقوفهم الحربي المشهودة نتائجه، ومصابهم بعد ذلك بالقنوط من حلفائهم الذي يمثله درجة التماسهم اليوم الوسائل الساذجة البسيطة للعيان. والوفود على الانقرويين (الأتراك) لتأمين بلادهم وأرواحهم.

(ثم أورد هنا نص برقية وزير الخارجية البريطانية المنشورة في صفحة ١٧٢ – ١٧٣).

"فهل من مقتضى الشرف والشهامة الأدبية، أن يتنصل مما تفرضه عليه هذه التصريحات والتعهدات وخلف أحكامها بكل ما أصاب العرب من بعد الهدنة، وجعلهم اليوم أمام الاتفاقات التي تريدها يد أنقرة بكل وسيلة. هذا عائد على شرف وأخلاق حلفائهم والعالم الأوروبي. ونحن يكفينا شرفاً وفخراً أننا أصبحنا قربان الثقة بالحلفاء وضحية الاعتماد على شرف عهدهم ووعدهم. وأنا نجهل نتيجة واقعة قنوط جمهور العرب وموقفهم بعد تلك الثقة والاعتماد".

وسافر الدكتور ناجي الأصيل إلى لوزان. وفيها قابل اللورد كرزن وزير الخارجية البريطانية يومذاك رئيس الوفد البريطاني في المؤتمر. ودارت بينهما مباحثات طويلة حول العلاقات العربية – البريطانية. كانت نتيجتها وضع مشروع جديد لمعاهدة تعقد بين الملك وبريطانيا لتصفية العهود القديمة. وللتعاون في جميع الأمور على أساس الثقة المتبادلة.

وغادر الأصيل لندن في ١٥ نيسان ١٩٢٣ ومعه متن المعاهدة الجديدة، فوصل إلى القاهرة ومنها قصد إلى جدّة فمكة حيث استقبله الملك. ثم وضع أمامه أسس المشروع وشرح له الموقف على علاّته.

وفي عيد الفطر لسنة ١٣٤١ (١٧ أيار ١٩٢٣)، أدلى الملك بأول تصريح

عن المعاهدة أمام المهنئين. فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال " إن هذا العيد المبارك لا شك في تضاعف يمنه، حيث صادف قبول المراجع الايجابية لجميع المطالب العربية، فلا ريب في أنه يوم اجتمع فيه عيدان عيد الفطر السعيد وعيد الاعتراف باستقلال العرب ووحدتهم". ثم وقف رئيس الديوان الهاشمي وألقى البيان التالي:

" نصرح في هذا العيد المبارك بمآل المعاهدة العربية – البريطانية، المؤسسة على مقرراتنا الأساسية، والتي يعترف بها صاحب الجلالة البريطانية لنا باستقلال العرب بجزيرتهم وسائر بلادهم. وتتعهد لنا حشمته الملوكية بالمعاهدة الفعلية لتأسيس الوحدة العامة الشاملة لكل هذه البلاد، بما فيها العراق وفلسطين وشرقي الأردن وسائر البلاد العربية في جزيرة العرب ما خلا عدن. فنأمر أن يعتبر هذا اليوم المبارك عيد الاعتراف باستقلال الأمة العربية والله ولي التوفيق".

ثم عاد الدكتور الأصيل إلى لندن يحمل معه مشروع المعاهدة بعد ما أدخل عليه الملك بعض التعديلات ووقّعه، فبلغها في أول حزيران. والمعروف أن تلك التعديلات لم تتناول بصورة أساسية سوى ما يتعلق بفلسطين. ووصف الملك ذلك التعديل بقوله: إنه طلب لفلسطين استقلالاً تاماً، وطلب أن يقوم أهلها العرب بإداراتها، اسوة بغيرهم من أهل الأقطار الأخرى في شرقي الأردن والعراق.

وقد بقيت نصوص المشروع طي الكتمان سواء في لندن أو في مكة، خوفاً من ردّ الفعل الذي قد يحدث عند اذاعتها. ولكن تصريحات الحسين أثارت ثائرة اليهود، وضغطوا على حكومة فلسطين الانجلوا – يهودية لاذاعتها، وسمحت حكومة بريطانيا بأعلانها. وعليه ففي ٥ حزيران أُذيع بلاغ رسمي في القدس نُشرت فيه خلاصة للمعاهدة مع المقدمة التالية: "هذه خلاصة المعاهدة التي جرت المفاوضة بشأنها بين حكومة ملك بريطانيا وجلالة ملك الحجاز. وهي لم تبرم حتى الآن. وقد اقترح جلالة ملك الحجاز ادخال تعديلات طفيفة عليها، لم تعرف تفاصيلها تماماً، والبحث جار فيها".

ولا تختلف نصوص هذه المعاهدة عن مشروع المعاهدة الأولى، سوى ما يتعلق منها بفلسطين. وفيما يلي نص المادة الثانية التي تعرضت لهذه القضية:-

"تنص على أن جلالة ملك بريطانيا يتعهد بالاعتراف باستقلال العرب في العراق وشرق الأردن والولايات العربية في شبه جزيرة العرب ما خلا عدن، وأن يعضد هذا الاستقلال. أما فيما يتعلق بفلسطين فإن صاحب الجلالة البريطانية يتعهد بأن لا يجري شيء في هذه البلاد يمكن أن يجحف بحقوق أهلها العرب المدنية أو الدينية. أما إذا أبدت احدى هذه الحكومات أو كلها رغبة في عقد اتفاق جمركي أو خلاله بقصد ايجاد حلف عربي نهائي، فإن صاحب الجلالة البريطانية يسعى لتعضيد رغبتهم إذا طلب إليه ذلك أحد المتعاقدين ذوي الشأن.

ويعترف صاحب الجلالة الهاشمية بالمركز الخاص الذي للجلالة البريطانية في العراق وشرق الأردن وفلسطين. ويتعهد بأن يبذل غاية جهده في التعاون مع جلالته البريطانية على القيام بتعهداته في المسائل التي تقع ضمن نفوذ جلالته الهاشمية بشأن هذه البلاد".

وعدّل الحسين هذه المادة كما تقدم، إذ كان يدرك كل الإدراك الأخطار العظيمة التي ينطوي عليها وعد بلفور. ولهذا فقد بقي ثابتاً على قراره الأول، بوجوب المحافظة على حقوق عرب فلسطين الاقتصادية والسياسية، فضلاً عن الحقوق الدينية والمدنية. وقد تضمنت رسالة هوغارت الرسمية الاعتراف بحقوق عرب فلسطين الاقتصادية والسياسية. ولكن الحكومة البريطانية لم تكن مستعدة لتنفيذ أقوالها.

أما الدكتور الأصيل فقد بدأ مفاوضاته حال وصوله إلى لندن، محاولاً اقناع ولاة الأمر فيها بقبول وجهة النظر العربية. وقد كان من المحتمل أن تقترن هذه المفاوضات بتسوية ودية ترضي الطرفين، لو لم تعتزل وزارة المحافظين الحكم وتقوم بدلها وزارة العمال برئاسة المستر ماكدونالد، ذي النزعة الاشتراكية. ويُعدّ حزبه من أقوى أنصار اليهود. وكانت أول خطوة قامت بها

هذه الوزارة أنها أعلنت بصورة شبه رسمية يوم ١٠ كانون الأول ١٩٢٣ أن المفاوضات الدائرة بين وزارة الخارجية ومندوب ملك الحجاز قد انتهت، وأن الحكومة البريطانية تضع أمام العرب حلين لا ثالث لهما لتسوية الخلاف:-

١- إما أن تدخل فلسطين في المعاهدة وينص فيها على قبول وعد بلفور بعد تفسيره تفسيراً رسمياً بأنه لا ينطوي على انشاء حكومة يهودية في فلسطين، التي تكون موطناً عاماً يلجأون اليه متى شاؤوا، وذلك طبقاً للكتاب الأبيض الذي نشرته الحكومة البريطانية في هذا الشأن.

٢- وإما اخراج فلسطين نهائياً من المعاهدة والسكوت عنها. وانشاء الاتحاد العربي من الحجاز وشرق الأردن والعراق.

وأردفت الوزارة في هذا البيان قولها : أن الأمر أصبح بين يدي الحسين. فإذا قبل أحد المشروعين – وهو كل ما تستطيع الحكومة البريطانية أن تتنازل عنه – انتهى الخلاف وتم توقيع المعاهدة.

ولكن الملك لم يكن مستعداً لقبول أحد الشرطين. فالاعتراف بفلسطين ملجأ عاماً لليهود غير ممكن قطعاً. واخراج فلسطين من المعاهدة يُعدّ هزيمة وقبولاً بالواقع الظالم. على أنه لم ييأس نهائياً من التوصل إلى اتفاق، وأراد أن يبقى الباب مفتوحاً بين الدولتين. فأبرق من عمان في كانون الثاني ١٩٢٤ إلى مكدونالد رئيس الوزارة والى وزير الخارجية طالباً افتتاح مفاوضات جديدة، وإرسال مندوب بريطاني إلى الحجاز، وقبول مندوب حجازي في لندن، فأجابه الرئيس ببرقية قال فيها: "إن معتمد بريطانيا في جدّة هو الواسطة المثلى للمخاطبة بين الحكومتين. وليس في امكان الحكومة البريطانية أن تعامل مندوباً يرسله الحجاز معاملة المندوبين السياسيين قبل توقيع المعاهدة".

وفي أواخر حزيران ١٩٢٤، وصل الدكتور الأصيل إلى مكة، ومعه النص النهائي لمشروع المعاهدة كما وافقت عليه الحكومة البريطانية. ولكن الملك أعلن أنه لا يقبل به. ووضع عليه تحفظات جديدة خلاصتها انشاء

حكومة دستورية في فلسطين لضمان حقوق أهلها. وقال أنه على استعداد للتساهل في مسائل أخرى وقبول وجهة نظر بريطانيا فيها، إذا قوبل اقتراحه هذا بالموافقة.

وغادر الأصيل مكة في آب بطريق العقبة – عمان – القاهرة. وفي منتصف أيلول غادر مصر إلى لندن لمتابعة المفاوضات. وكان يحمل رسالة شخصية من الملك إلى رئيس الوزارة البريطانية، مؤرخة في ٤ آب وفيها أوضح وجوب وضع الحقائق التي احتوت عليها العهود معه موضع التنفيذ. ولكنه لم يتسلم جواباً على رسالته هذه إذ بينما كان الدكتور ناجي الأصيل في الطريق وردت إليه الأخبار بمهاجمة السعوديين للحجاز واحتلالهم للطائف. ثم توالت الحوادث التي انتهت بتنازل الحسين عن العرش. وفي ١٥ كانون الأول أذاعت الحكومة البريطانية بلاغاً قالت فيه: "أنه بالنظر لتنازل الحسين عن العرش فليس في وسع الحكومة البريطانية أن تواصل المفاوضات في شأن مشوع المعاهدة مع الحجاز كما عدله الحسين".

وحاول الأصيل أن يحوّل الوزارة عن هذا العزم بتقديمه مذكرة رسمية يقول فيها: إن الملك علي لم يكن موافقا على جميع آراء والده، ومن الممكن أن يوقع المعاهدة كما وضعتها الحكومة البريطانية. ولكن الوزارة لم توافق محتجة أنه بتنازل الحسين عن العرش أصبحت بريطانيا في حل من العهود التي قُطعت له. كأنما كانت تلك العهود شخصية. وكأنما لم يطلبها الحسين باسم العرب ولم تقطعها باسم العرب أيضاً. والحقيقة هي أن بريطانيا بعد أن يئست من استخدام الحسين مطية لتنفيذ أغراضها في بلاد العرب، رحّبت بالفرصة التي أتاحها لها ابن السعود في أزاحته من الطريق.

ومما يدل على أن الملك كان عالماً بشماتة الحكومة البريطانية، هو أنه رفض طلب مداخلة الانكليز. إذ إنه بعد سقوط الطائف اجتمع الشريف عبد الله باشا بن محمد والشيخ عبد الله سراج قاضي القضاة واحمد السقاف رئيس الديوان، وقرّروا ارسال برقية إلى الحكومة البريطانية لطلب تدخلها، وكف يد ابن السعود عن الحجاز. ووضعوا البرقية فعلاً. وخلاصتها أن الدولة

الهاشمية هوجمت من قبل السعوديين دون سابق انذار. وانهم باسم الصداقة القديمة يرجون تدخّل الحكومة البريطانية لصيانة البلاد من الأخطار. وقد وقعوا البرقية وأرسلوها إلى مكتب البرق. ولكن الملك حينما علم بأمرها أوقفها ومنع ارسالها، محتفظاً إلى اللحظة الأخيرة بروحه النبيلة العالية.

ولاستكمال البحث في هذا الباب، نرى أن نثبت نص النداء الذي وضعه الحسين وأذاعه من مكة يوم ٢٤ تشرين الثاني ١٩٢٣ قبيل سفره إلى عمان. موجهاً اياه إلى الشعب البريطاني، في محاولة منه لكسب الأي العام هناك. وقد ترجم في مصر إلى اللغة الانكليزية وطُبع فيها وأرسلت نسخ منه إلى رئيس الوزارة البريطانية والوزراء وعدد كبير من النواب واللوردات والصحف. ونُشر في لندن في اليوم الأخير من عام ١٩٢٣. ونحن لا يهمنا من اثباته هنا سوى أنه يشرح آراء الحسين شرحاً كافياً، في جميع المسائل التي كانت تشغل باله وتهمّ العالم العربي وهذا نصه:

إلى الأمة البريطانية

من الحسين بن علي

بناء على ما اشتهر به الشعب البريطاني الكريم من الثبات والنزاهة. وهي الصفات المعروفة لي شخصياً، رأيت أن أعرض على ضميره الصادق وحكمه السليم، آرائي في الحيف الذي أصاب قومي العرب في بلدانهم المختلفة.

لقد لبيتُ دعوة حكومة جلالة الملك، لأني كنت أعتقد أن في دعوتها منافع مادية وأدبية متبادلة. وهو اعتقاد أعترف بأن الحكومة البريطانية كانت تشاطرني اياه.

ولم تكن تلبيتي لهذه الدعوة تتنافى مع شيء من العواطف القومية أو الدينية، بدليل ما جاء في منشوراتي الرسمية العديدة، فقد نهضت مع شعبي بعد نيل ضمانات تضمن مصالحهم ومستقبلهم، وخضت غمار القتال جنباً إلى جنب. وكنت وطيد الإيقان بأننا نحارب في جانب شرف الأمة البريطانية كلها

لا في جانب أفراد تفصم العرى التي تربطنا بزوالهم. ومثلي يُعنى بشرف الأمة البريطانية وشهامتها وعظمتها. فأقدمت على خوض القتال وأنا ممتلئ ثقة، في حين كانت كفة الخصم فيه راجحة في كوت العمارة والقنال والدردنيل وجميع ساحات الحرب في أوروبا. وواصلت اشتراكي وشعبي إلى النهاية وإلى أن تقشعت السحب السوداء الملبّدة، وكانت تنذر بحرب دينية في الشرق تكون بعيدة المدى والعواقب. وضربت المثل الأعلى للعالم في سعة الصدر والتسامح والدفاع عن المبادئ السامية، فلبّى العرب دعوتي في العراق وسوريا وفلسطين. وكانت بيدي وثائق الساسة المسؤولين وتصريحاتهم الرسمية والخصوصية التي فاهوا بها على رؤوس الأشهاد، وكلها تجمع على أن العرب سيفوزون بوحدتهم واستقلالهم، مكافأة لهم على ولائهم، وأن مصائبهم ومحنهم ستزول. وقد وضعوا ثقتهم وآمالهم بعد الله في شرف الأمة البريطانية. ومما يشهد بذلك ويثبته أيضاً أنهم أبوا صلحاً منفرداً يُعقد مع العدو، الذي عرض عليهم أن ينيلهم استقلالهم، وقطع لهم المواثيق والضمانات المؤكدة. وذلك لأن العدو أخذ يشعر بتأثير الصدمة الشديدة الأدبي والمادي، من جراء قتال العرب في جانب بريطانيا وحلفائها.

وكان من نتائج هذا الوفاء والولاء، برقية رسمية وردت من وزير الخارجية البريطانية، يؤكد بها وحدة العرب واستقلالهم، وتصميم الحلفاء على تحقيقها. وإنه يستحيل أن يعقدوا صلحاً إلا إذا نص في شروطه الأساسية على حرية شعوبنا واستقلال بلدانهم. وقد أرسل هذه البرقية باسم حكومة جلالة الملك البريطانية، وأبلغها لي في جدّة يوم ٨ شباط سنة ١٩١٨.

فلهذه الأسباب ألفت نظر الأمة البريطانية إلى ما حلّ بحلفائها العرب، الذين لا يزالون يعدّون أنفسهم حلفاءها على قلة ما في العالم من الحلفاء الحقيقيين اليوم. فقد مُزقت وحدتهم وقُطعت أوصالها، وتفككت بلدانهم، وصارت محتلة. وأخذ العالم الاسلامي خاصة والسواد الأعظم من قومي يرميانني بتهمة أني بعت بلدانهم لبريطانيا العظمى وحلفائها، وهي فرية تكفي لتلطيخ كرامة بيتي وتسويد تاريخه، وهي وصمة لا يصبر عليها حتى الذين تجردوا من

كل معاني الشرف وكرم الشيم. ولا أعرف أن العرب ارتكبوا ما يستحقون أن يعاملوا لأجله هذه المعاملة الا ثقتهم المطلقة ببريطانيا العظمى، ووفاؤهم لها. إن صحّ أن يعدّ هذا جناية حقيقية.

فالعرب المدفوعون بآخر شرارة في جوانحهم من الوفاء لحليفتهم العظيمة. وبما فُطر عليه جنسهم من عرفان الجميل والوفاء بالعهود. يرغبون إلى أن أبلغ الشعب البريطاني: أنهم لا يبغون بهذه الأقوال أن يباهوا بفعلم أو يمنّوا بمساعدتهم، أو ينكروا على بريطانيا العظمى حقها في ضمان مصالح شعبها، أو يعارضوا في صدق وطنية الأمة البريطانية. ولكنهم يرون من الانصاف ألا تنحصر هذه الصفات فيها بل أن تكون في سواها أيضاً. وقد جاء في الحديث " حب الوطن من الايمان". فالعرب والحالة هذه حائرون كيف يوفقون بين وطنيتهم ووفائهم لحلفائهم.

ولهذا أرغب في أن أصف برسالتي هذه دهشتي وحالتهم الحاضرة للشعب البريطاني الكريم. لئلا يقع عليهم لوم ما إذا توسلوا بوسائل أخرى إلى درء هذا الذل العظيم الذي يسود تاريخهم المجيد، غير مكترثين للعواقب مهما كانت. وإلا انطبق عليهم بحق المثل القائل "فرّ من الموت وفي الموت وقع". وهذه أبسط تهمة يلصقها بهم أعداؤهم. اذ يحق لهم أن يخاطبوهم بقولهم "لو بقيتم كما كنتم قبلاً لنجوتم من جميع هذه البلايا والرزايا".

أما الحجاز فقد كان متمتعاً بامتيازاته واستقلاله في الماضي. ويستحيل الصبر على موقف الأمة العربية في عيون العالم الاسلامي والشرق عامة، وفي عيون أنفسهم، وفي مرآة تاريخهم. وأن ينظر اليهم كخونة ظالمين. إن هذا الموقف الشائن مما يستحيل قبوله والتسليم به.

ولست فيما أقول منذراً ولكني مذكّر. فقد كانت شهرة بريطانيا العظمى أساس عظمتها في الشرق. وهذه الشهرة أعظم نفوذاً من أساطيلها العظيمة ومن جيوشها الجرارة، فهي في حاجة إلى تجديد مكانتها. أقول ذلك بصراحة العربي واخلاصه.

وعلى بريطانيا العظمى أن تبدأ بمعاملة الذين حالفوها ووالوها إلى يومنا هذا مع كل ما طرأ من الطوارئ، من اليوم الذي كانت فيه الحرب حقيقة بادية للعيان، إلى أن صارت خفية مستورة. ولا أطيل الكلام في هذا الصدد. ولكني أرجو أن تشرع الأمة البريطانية في أن تلقي عن عاتقها جميع هذه الأعباء، وأن تنصف العرب حلفاءها الأوفياء. وخير لها أن يكون لها حليف متحد قوي مستقل، من ان يكون هذا الحليف ممزقاً مقطع الأوصال ذليلاً، كما هي حالة العرب الآن. ولا يعلم إلا الله أين يسوقهم قنوطهم بعد ما طفح الكيل.

أقول ما تقدم مدفوعاً إليه بعامل الاخلاص والوفاء لما علي من العهود والواجبات[١].

– ٥ –

امير المؤمنين

قرر الحسين أن يزور شرقي الأردن، وفاءً للعهد الذي قطعه على نفسه لأهل فلسطين، لكي يلمّ بأحوالهم عن كثب، ويدرس واياهم الخطط الممكن اتباعها تجاه السياسة البريطانية، التي كانت تصرّ على تثبيت أقدام الصهيونية في فلسطين. وكانت هذه الزيارة بمثابة الشروع في مظاهرة سيلمة لتهديد الانكليز من وراء الستار، واستعراض مظاهر القومية العربية ووحدة مشاعرها واعدادها للنضال.

وغادر الحسين مكة في ١٧ كانون الأول ١٩٢٣ إلى جدّة، ثم زار ينبع ومنها قصد إلى المدينة المنورة. ثم جاء إلى العقبة ثم إلى عمان فبلغها في ١٨ كانون الثاني ١٩٢٤، وقد تجلّى الشعور القومي في استقبال جلالته. فرأى

---

(١) لمزيد من التفاصيل في موضوع المفاوضات بين الحسين وبريطانيا، من أجل عقد معاهدة، يمكن مراجعة كتابي: صفحات مطوية، منشورات وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٧.

عندما أطل من نافذة القطار مشهداً فريداً انتعشت به آماله واشتدّت عزيمته على مواصلة النضال. وكانت الوفود متجمهرة على الرصيف يكاد لا يحصيها عدّ. وقد أقبلت من سورية وفلسطين والعراق والبادية لتحظى بمشاهدة الرجل الذي قام في وجه الدولة العثمانية ويقوم الآن في وجه بريطانيا وفرنسا.

كان الاستقبال بالغاً أشد معاني الروعة والحماس. وعندما أطل جلالته من نافذة القطار، تعالى الهتاف: ليحيا ملك العرب ليحيا المنقذ الأعظم. ثم في الديوان الأميري جلس الحسين يستمع للخطباء والشعراء وهم يهددون الانكليز والفرنسيين، وجلالته مغتبط بما يرى ويسمع.

والتفّت الوفود حول جلالته في انتظار كلمة منه، فأكد لهم أنه لا يتنازل عن أبسط قاعدة من قواعد النهضة العربية. " **لا أتنازل عن حق واحد من حقوق البلاد. لا أقبل إلا أن تكون فلسطين لأهلها العرب. أقول لأهلها العرب، لا أقبل بالتجزئة. ولا أقبل بالانتداب. ولا أسكت وفي عروقي دم عربي، عن مطالبة الحكومة البريطانية بالوفاء بالعهود التي قطعتها للعرب**. وإذا رفضت الحكومة البريطانية التعديل الذي أطلبه، فإني أرفض المعاهدة كلها، أقول المعاهدة كلها. ولا أوقع المعاهدة قبل أخذ رأي الأمة. إني عامل دائماً في سبيل الاتفاق مع أمراء العرب. إني دائب السعي في سبيل الوحدة العربية والاستقلال التام، أقول الاستقلال التام للأقطار العربية كلها. ولا فرق عندي إذا كان مركز الحكومة العربية في الحجاز أو في سورية أو في العراق أو في نجد".

***

وحدث ابان اقامة الحسين في عمان حادث لم يكن بالحسبان. إذ ألغى الترك الخلافة في اليوم الثاني من آذار وطردوا السلطان عبد المجيد من تركيا. وقد شغل هذا الحادث أفكار الناس. ونشأت فكرة مبايعة الحسين بالخلافة في ذهن الأمير عبد الله. ففاتح بها بعض زعماء الأقطار المجاورة فوجد منهم تحبيذاً وتشجيعاً. ثم فاتح والده بالموضوع فتردد في القبول قائلاً: إنها قد تؤدي إلى خلافات ومنازعات نحن في غنى عنها، ولكن الحاح الأمير عليه

بالقبول واجماع الرأي على المبايعة حملاه على الاقتناع. وفي ١١ آذار ١٩٢٤ تمت المبايعة في حلفة تاريخية رائعة. ونودي بالحسين خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين. واشترك بالمبايعة زعماء سورية وفلسطين والأردن، والحجازيون الذين كانوا مع جلالته، وفريق من زعماء العراق. وحمل البرق مئات البرقيات من مختلف هذه الأقطار تأييداً للبيعة واعترافاً بها. وأصدر الملك منشوراً بهذه المناسبة قال فيه، بعد أن بين ضرورة الخلافة للمسلين: "فاقدام حكومة أنقرة على ذلك المقام الكريم جعل أولي الرأي والحل والعقد من علماء الدين المبين في الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى وما جاورها من البلدان والأنصار يفاجئوننا ويلزموننا ببيعتهم بالإمامة الكبرى والخلافة العظمى".

ومما يجد ذكره أنه بالرغم من تحريض الانكليز في بداية النهضة لكي يدعو الحسين لنفسه بالخلافة، إلا أنه لم يتعرّض مطلقاً للبحث في هذا الشأن، ما دام الأتراك يحتفظون بها، تجنباً منه لإثارة الشقاق بين المسلمين.

وفي ٢٠ آذار غادر الحسين شرق الأردن عائداً إلى الحجاز بعد أن وافق على ضم العقبة ومعان إلى منطقة شرقي الأردن.

– ٦ –

ودخلنا الوغى فكنا غنائم

تركنا العلاقات بين الملك حسين والحكومة البريطانية، وهي على اسوأ ما يمكن أن تكون عليه، من تنافر واضطراب. وكان من الطبيعي أن يكون لهذا الفتور ردّ فعل قوي في البلاد العربية. وكان الملك يأمل أن يشتد ساعد معاضديه من العرب، وأن يحمل موقفه جميع زعماء العرب على التعاون معه في سبيل انقاذ البلاد المهددّة بالخطر. ومن المؤكد أن الملك كان يلاقي أعظم النجاح في سياسته الخارجية، لو استطاع أن يضمن تأييد جميع العناصر في جزيرة العرب. ولو على الأقل في رفضه للمعاهدة التي تعترف بوطن اليهود القومي.

ولكن موقف الشعب العربي لم يكن ايجابيا يومذاك. فإن الاستعمار البريطاني – الفرنسي كان قد وطّد أقدامه في سورية الطبيعية والعراق. أما الجزيرة العربية فكان يتولى أمورها ابن السعود في نجد والامام يحيى في اليمن – هذا إذا استثنينا محميات بريطانيا الممتدة من عدن حتى الكويت.

كان إمام اليمن قانعاً بالبقاء مستقلاً ضمن حدود بلاده. وأما السلطان عبد العزيز فقد كان دائب السعي لنشر سلطانه على مزيدٍ من النواحي، مستعيناً على ذلك بالاخوان الوهابيين الذين كانوا في فورة الحماسة المذهبية في تلك الفترة. ولا يختلف اثنان على عبقريته وجرأته ودهائه، ولكن استيلاءه على بعض المناطق الحجازية أثار جذوة الخلاف مع الملك حسين، ذلك الخلاف الذي أدّى إلى توجيه بنادق العرب إلى صدور بعضهم البعض، بدلاً من توجيهها إلى صدور المستعمرين.

لقد كان صوت الحسين في تلك الفترة، هو الصوت العربي الوحيد الذي يرتفع مندّداً بسياسة الاستعمار. وكان هو العاهل العربي الوحيد الذي يعارض المستعمرين ويجاهرهم بالعداء ويهدّدهم بثورة الشعب العربي ونقمته.

نعود إلى وقائع التاريخ وتتلخص في أن الحسين عام ١٣٤٠ (١٩٢٢) سمح للنجديين بالحج وتبادل الكتب الودية مع الأمير ابن السعود، مما وطد الأمل بامكان التفاهم. ولكن الخلاف ما لبث أن عاد فاستحكم إذ إن الملك رفض السماح لهم بالحج في السنة التالية مشترطاً حضورهم بطريق البحر أسوة بغيرهم من الحجاج. وابن السعود كتب في ٢ كانون الأول من ذلك العام إلى المندوب السامي بالعراق يقول إنه ليس في وسعه أن يحدد عدد الحجاج في العام القادم كما فعل في السنة الماضية. وبناء عليه فقد كتبت الحكومة البريطانية بدورها إلى الحكومة الهاشمية تقترح الدخول في مفاوضات جديدة لعقد معاهدة بين الفريقين حسماً للخلاف. ولكن الملك أجاب أن المفاوضات لا مبرر لها ما دام الأمر واضحاً وهو احتلال ابن السعود أرضاً حجازية صرفة، ووقوفه في وجه الحملات الموجهة لتأديب العصاة من أهل الحجاز، وأن

الصلح والوئام سيسودان حالما تخلى البلاد المغتصبة التي حدّدها الحسين بأنها "رانية وتربة والخزمة ونواحي خيبر".

وتوسطت الحكومة البريطانية لحل النزاع بطريقة ودية، وقامت في هذا السبيل بجهود ومحاولات، حتى استطاعت أن تهيء الجو لعقد مؤتمر في الكويت لتسوية الخلافات الناشبة بين نجد من جهة وبين الحجاز والعراق وشرقي الأردن من جهة أخرى. وقد عقد ذلك المؤتمر جلسته الأولى يوم ١٧ كانون الأول ١٩٢٣ بحضور مندوبي العراق ونجد وباشراف الكولونيل نوكس مندوب بريطانيا في الخليج العربي. ودار البحث حول مصير قبائل شمّر التي لجأت إلى العراق. وقد تم الاتفاق يوم ٢٤ منه على تسوية القضية، إلا أن مندوبي العراق اشترطوا "أن لا يعمل بمضمون هذا الاتفاق إلا بعد حل الخلاف الناشب بين نجد والحجاز". وقد رفض مندوبو ابن السعود هذا الشرط. ثم اشترك مندوب شرقي الأردن في المفاوضات فطلب ضم الجوف وسكاكة ووادي السرحان لشرق الأردن، وطلب أن تعاد البلاد الحجازية التي تحتلها القوات السعودية. وقد رفض مندوبو نجد الطلب الثاني رفضاً باتاً. وكانوا اشترطوا في بدء المؤتمر أن لا تتكلم أية حكومة إلا بما يخصها، خوفاً من توحيد جبهة هاشمية ضد نجد. ثم توقفت المفاوضات لانتظار الوفود تعليمات حكوماتها.

وحينما جاء الحسين إلى عمان زائراً في أوائل ١٩٢٤، زار السير هربرت صموئيل المندوب السامي على فلسطين والسير جلبرت كلايتون وروناالد ستورس وغيرهم من كبار الانكليز وباحثوه في امكان التوفيق بينه وبين ابن سعود. وبعد مداولات عديدة وافق على إرسال نجله زيد إلى المؤتمر، شريطة أن يرسل ابن السعود أحد أنجاله للمفاوضة. غير أن ابن السعود لم يرض بارسال أحد أولاده محتجاً بانهم لم يعتادوا البحث في السياسة.

أخفقت المفاوضات بين نجد وشرقي الأردن لتشدّد كل من الطرفين في مطالبه. وفشلت محاولات بريطانيا في التوفيق بين السعوديين والهاشميين،

فأعلنت انسحابها من التوسط بينهما بحجة أنها صديقة لكليهما.

وبدا للسلطان عبد العزيز آل سعود أن القوة جديرة بحل المشاكل التي أخفقت السياسة في حلها، وعلى هذا أعدّ ثلاث حملات: الأولى على العراق. والثانية على شرقي الأردن وقد فشلتا وتبددتا، والثالثة على الحجاز وهي التي قُدّر لها النجاح. وكانت غاية ابن السعود من مهاجمته لهذه البلاد مساومة حكوماتها فيما إذا فازت قواته فيها. وكان يرمي على الأخص إلى حصار الطائف كي يضطر الحسين إلى تسوية شاملة. وقد شدد على قواته أن تهاجم الطائف وتحاصرها وتحتلها إذا كان في الامكان احتلالها. على أنه لم يكن واثقاً من موقف الحكومة البريطانية ومن الرأي الأسلامي العام فأمر قادة قواته أن لا يتجاوزوا الطائف بحال من الأحوال فيما إذا احتلوها، وإلا فهو يبرأ منهم. وكانت غايته القيام بمظاهرة فقط كالمناورات العسكرية التي تقوم بها الدول. ومما يدل على أن ابن السعود لم يكن واثقاً من النجاح، عدم تصديقه البشير الأول ولا الثاني بسقوط الطائف، حتى جاء إليه الثالث وهو ممن يثق بهم. وقد دلّت مشاعره إذ ذاك على أنه لم ينتظر ذلك الأنتصار السريع.

سار الأخوان (وهذه هي الصفة التي كانت تطلق على قوات ابن السعود) وكان عددهم لا يقل عن ثلاثة آلاف مقاتل، إلى تربة ومنها تحركوا بقيادة خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد في أول صفر ١٣٤٣ (أيلول ١٩٢٤). وبعد معركة حامية بينهم وبين قوات الحجاز في قرية الحويّة، تقدموا إلى مخفري كلاخ والأخيضر فاحتلوهما وبدأوا بالهجوم على الطائف.

كانت قوة الطائف لا تزيد عن ٥٠٠ جندي نظامي بقيادة اللواء صبري باشا العزاوي وزير الحربية. وعندما أصبحت الحملة النجدية على مقربة، أرسل أميرها شرف بن راجح يستغيث بالملك. فأمر ابنه الأمير علي بانجاد القوة المدافعة. فجاء الأمير مسرعاً بسريتين من الخيالة والهجانة وبعض المدافع والرشاشات، ووصل الأمير يوم ٦ صفر إلى الطائف قبل وصول الجيش

النظامي. وعرف النجديون بوصول الأمير وقرب وصول قواته فقرروا احتلال المدينة، وأخذوا يهاجمونها بشدة، إلى ان اضطروا القوات المدافعة عنها إلى الالتجاء للأسوار. وفي اليوم التالي خرج الأمير من المدينة وتبعه الأشراف والجنود النظاميون الذين لم يستطيعوا البقاء بسبب مهاجمة أهل المدينة لهم خوفاً على أرواحهم. وفي مساء يوم الجمعة ٧ صفر (٧ أيلول) دخل الجيش المهاجم الطائف بعدما رفع أهلها راية التسليم فنهبوها وفتكوا بسكانها.

انسحب الأمير علي إلى الهدى. وهناك أخذ يجمع فلول جيشه ويحصّن الموقع للدفاع. وقد أشار على والده بالارتداد إلى عرفات ولكنه أمره بالبقاء حيث هو. وأخذ يجد بدوره في تجنيد العربان وامدادهم بالأسلحة. ولكن العربان طلاب سلب ونهب وهو ما لم يكونوا يتوقعونه مع الجيش الحجازي، فانضم أكثرهم إلى المهاجمين، وبينهم بعض الأشراف. وفي ٢٦ صفر هاجم الأخوان هذا الموقع ودارت هناك معركة حامية استبسل فيها الفريقان.

وحينما بدت خيانة العربان وانضمامهم إلى السعوديين، عوّل الأمير علي على الانسحاب وخابر والده بذلك، ولكن الحسين كان يأمره بالدفاع إلى النفس الأخير قائلاً " الطاعة ولو ذُبحت". ولكن لم يكن بدّ من النهاية خوفاً من فناء الجنود فانسحب الأمير إلى بازان قريباً من مكة وتوقف الأخوان، وأخذ الموقف يزداد حرجاً وشدة.

لم يهن عزم الملك، ولم يستنجد بالانكليز ولم تخنه شجاعته في تلك اللحظات الرهيبة. ولكنه أخذ نفسه بالصبر فجمع أشراف مكة وسألهم عن رأيهم في الحالة فقرروا الانسحاب إلى جدّة وبدأوا بارسال نسائهم وأطفالهم إليها وبينهم عائلة الملك نفسه.

واجتمع فريق من الحجازيين في جدّة وتباحثوا في الأمر. فقرروا أن يطلبوا من الحسين التنازل عن العرش أملاً بترضية ابن السعود ومصافاته فيسحب قواته من الحجاز. وقد طالما أعلن أن كل حركته ليست إلا للتخفيف من حدّة الحسين. وفي اليوم الرابع من ربيع الأول (٣ تشرين الأول) أرسلوا

إليه البرقية التالية:

"بما أن الشعب الحجازي بأجمعه الواقع الآن في الفوضى العامة، بعد فناء الجيش المدافع وعجز الحكومة عن صون الأرواح والأموال. وبما أن الحجاز بلاد مقدسة يُعنى بأمره جميع المسلمين. لذلك قررت الأمة نهائياً طلب تنازل الشريف حسين وتنصيب ابنه الأمير علي ملكاً على الحجاز فقط مقيداً بالدستور، ومجلسي نواب وشيوخ. والله الموفق لما فيه الصواب".

فأجاب الحسين عليها بالبرقية التالية:

"مع الممنونية والشكر، وهذا أساس رغبتنا التي أصرح بها منذ النهضة والى تاريخه. وقد صرّحت قبله ببضع دقائق اني مستعد لذلك بكل ارتياح إذا عينتم غير علي وإني منتظر هذا بكل سرعة وارتياح".

وخاطبه أحد المجتمعين بالهاتف، فأصرّ على رفض الأمير علي قائلاً إن خيره وشرّه عائدان إليه. ولكن المجتمعين لم يقبلوا بذلك وأرسلوا للملك البرقية التالية:

"الحالة حرجة جداً. وليس الوقت وقت مفاوضات. فإذا كنتم لا تتنازلون للأمير علي، فنسترحم بلسان الإنسانية أن تتنازلوا جلالتكم لتتمكن الأمة من تشكيل حكومة مؤقتة. وإذا تأخرتم عن هذا فدماء المسلمين ملقاة على عاتقكم، والرجاء نزولكم على رأي الأمة.

لم ير الملك بداً من تغيير رأيه في بيعة الأمير علي، فأرسل إلى الهيئة البرقية التالية : "لا بأس. قد قبلنا التنازل بكل ارتياح. إذ ليس لنا رغبة إلا في راحة البلاد وسعادتها. فالآن عينوا لنا مأمورين ليتسلموا البلاد بكل سرعة ونحن نتوجه في الحال. إذا تأخرتم ووقع حادث فأنتم المسؤولون. والأشراف عندكم كثيرون أرسلوا واحداً منهم أو من سواهم، وعلاوة على هذا إذا قبل منكم علي الأمر فعينوه رأساً".

وفي اليوم التالي أرسل الملك بلاغاً إلى الأعيان بواسطة قائمقام جدّة

قائلاً: "أؤكد لكم بهذا تصميمي على الاعتزال. فأطلب تعيين من يتسلم البلاد ومعاملاتها في يومنا هذا بكل سرعة. فإن الفوضى التي ذكرتموها وقعت بداعي اشهاركم رغبة تنازلي. وإني لا أقبل أية مسؤولية تقع إذا لم تسرعوا اليوم في تعيين من يتولى الأمر. لأتوجه في الحال إلى الجهة التي يختارها الباري عن طريق جدّة. هذا ليس هرباً من أي شيء تتصورونه. كلا ثم كلا بل لئلا تتضاعف بنا التصورات والظنون".

وأسرعت الهيئة في العمل. وبويع الملك على يوم ٥ ربيع الأول. وفي اليوم التالي للبيعة قصد إلى مكة فقابل والده وبعد مشاورات عديدة، بدأ الحسين بعد أربعة أيام بارسال أمتعته إلى جدّة، وفيها أربعين صفيحة من صفائح البترول قيل أنها كانت تحتوي على مئة وعشرون الف ليرة. وهي كل ما أدخره من العشرة ملايين التي صرفتها بريطانيا على الثورة. وقد صرف أكثرها في الدفاع عن جدّة.

أقام الحسين ستة أيام في جدّة. وكان يرفض مقابلة الناس. وفي ١٦ ربيع الأول ١٣٤٣ (١٥ تشرين الأول ١٩٢٤) غادر جدّة مع عائلته وحاشيته على ظهر اليخت الرقمتين. وأعلن قبل سفره أنه لم يستنجد بالانكليز ولم يطلب مساعدتهم. فوصل العقبة وكانت لا تزال أرضاً حجازية، ونصب خيامه فيها وأخذ يجنّد الجنود ويؤلف فرق المتطوعين على نفقته لمساعدة الملك علي في الدفاع عن الحجاز.

أخلت الحكومة الحجازية مكة بعد خروج الحسين، فدخلها الأخوان، وأقام الملك علي في جدّة فحصّنها وأعدّ معدات الدفاع عنها، ودارت مفاوضات عديدة في سبيل الصلح. ولكن ابن السعود رفض كل وساطة، بعد أن أيقن أن النصر حليفه.

ولم يلبث الحسين أن غادر العقبة إلى قبرص فبعدت الشقة بينه وبين ولده الملك علي، ولا سيما أنه أنفق في العقبة أكثر ما كان يملك، حتى لم يكن معه يوم سفره أكثر من عشرين ألف ليرة أرسل نصفها إلى جدّة. واستمر

حصار جدّة إلى ان اضطر الملك علي ألى التسليم في ١٧ كانون الأول ١٩٢٥.

***

من رأي ميدي جاكسون مؤلف كتاب "عالم ما بعد الحرب": إن أسباب تخلي الانكليز عن الحسين تتلخص في (١) اعلانه أنه ملك البلاد العربية جميعها (٢) جسارته، ورفضه الموافقة على الانتدابات أو الاعتراف بها (٣) اعتباره أن الستة ملايين ليرة التي دفعتها بريطانيا له بين عام ١٩١٦ وعام ١٩١٩، كانت بمثابة بدل عادل عن المساعدات التي قدمها في الحرب، ولم تكن ثمناً لضمان إذعانه في المستقبل.

قال أمين الريحاني في كتابه " نجد الحديث " عن نهاية حكم الحسين في الحجاز ما يلي:

إن لسقوط الشريف حسين أسباباً سياسية وادارية وخلقية.

أما السياسية: فأهم ما فيها اغضابه للإنكليز في رفضه المعاهدة البريطانية الحجازية التي استمرت المفاوضة بشأنها ثلاث سنوات، ثم اغضابه امراء العرب وفي مقدمتهم ابن السعود.

وأما الخلقية والادارية فتتلخص في أن الحسين كان الكل في الكل حتى في تحرير جريدة القبلة. على أن الذنب في كل ذلك لم يكن ذنبه وحده. كان الحسين صلب العود. قوي الشكيمة فكان لا يسمع غير صوت نفسه وصداها. فالتبعة في جزء كبير من غرور الحسين، هي على أولئك الذين كانوا لصاحب الجلالة أعداء مدرّعين بالمداهنة والمداجاة. يسبّحون كلما فاه بكلمة: "أي نعم، سيدي. من أحسن ما يكون، سيدي. وحيٌّ منزل، سيدي".

وإني أرى أن أسباب سقوط العرش الهاشمي في الحجاز كثيرة : منها خارجي سياسي، ومنها داخلي. ولا شك أن الحسين كان كثير الاعتداد بنفسه شديد التمسك بآرائه مما أدّى به إلى فقدان كثيرين ممن كان يحتمل أن يقدموا له النصائح المجدية. وأول من احتج على سياسته الافرادية عزيز علي المصري في أوائل الثورة، ويذكر الملك عبد الله في مذكراته أنه كثيراً ما حاول اقناع

الحسين بانتهاج سياسة معتدلة فلم يوفق.

ويقول بعض المؤرخين أن الحسين لم يبرهن في حكمه على استعداد لأدارة البلاد على قواعد ثابتة، مما أدّى إلى تفكك حكومته واغتنام الأهلين أول فرصة للانقضاض عليه. وبعضهم يقول أن الحسين لم يكن مخطئاً، بسبب أن الشعب الحجازي لا ينفع معه اللين ولا يلائمه إلا الحكم الصارم، كما برهن على ذلك حكم ابن السعود فيه.

ويقول جون فلبي في كتابه "بلاد العرب": ان حكومة الحجاز كلها كانت متمثلة في شخص الملك . وأنه كان يدير بنفسه مصلحتي الهاتف والبرق. وأن الجيش كان ضعيفاً بسبب قلة الأجور وسوء التغذية. وأن وزراء الحكومة كانوا يعاملون باعتبارهم خدماً خصوصيين. وأن الأوضاع الإدارية عام ١٩٢٤ كانت في أسوأ حال.

ومما لاشك فيه أن اللوم يجب أن يوجّه إلى اولئك الوزراء والمستشارين الذين كانوا يحيطون بالحسين. فقد قيل الكثير عن تهافتهم على مصالحهم الشخصية، وعلى عدم تقديمهم النصائح السليمة للملك، وقلة اهتمامهم بشؤون البلاد العامة.

ونحن نعلم أن الجفاء الذي استحكم بين الحسين وبريطانيا كان ذائعاً في بلاد العرب. وأن ابن السعود سأل ممثلها لديه عن موقفها في حالة قيام حرب بينه وبين الحسين، فأجيب بأن بريطانيا لن تتدخل في أي نزاع مسلح بينهما. وقد اتخذت بريطانيا هذا القرار بعد أن فشلت في حمل الحسين على الرضى باستعمارها وتهويد فلسطين. فإذا كان هنالك للحسين ذنب حقيقي، فهو اخلاصه لمبادئه وعروبته وإيمانه بحقوق قومه ايماناً مطلقاً.

– ٧ –

العقبة وقبرص

أقام الحسين في العقبة، يجنّد المتطوعين، ويقدم المساعدات الممكنة لنجله الملك علي، أملا بالقيام بهجوم معاكس لاسترداد مكة ودحر

السعوديين. وأقلق ذلك ابن السعود فكتب للانكليز يقول أنه سيضطر لارسال حملة على العقبة لاحتلالها واخراج الحسين منها فيما إذا بقي فيها.

ومع أن العقبة ومعان كانت تعتبر قسماً من بلاد الحجاز حتى ذلك الوقت، إلا أن الحسين كان قد خوّل الأمير عبد الله بادارتها شخصياً خلال زيارته للأردن في ١٩٢٤. ولما كان هذا التخويل ليس ضماً رسمياً للأردن، فقد كان في مقدور الملك علي أن لا يقبل به. وعليه فقد اغتنم الانكليز فرصة الحرب القائمة وتهديد ابن السعود، للطلب إلى الحسين أخلاء العقبة والسعي لدى الملك علي للتنازل عنها للأردن رسمياً، ولا سيما أنهم كانوا يدعون أن انتدابهم يشمل هذه المنطقة.

وقام الانكليز بتمثيل الدور الأخير في هذه المأساة، فأرسلوا إلى الحسين يوم ٢٨ أيار ١٩٢٥، أي بعد اقامته فيها مدة ثمانية أشهر – الانذار الآتي. وقد حمله قائد البارجة البريطانية (كورن فلاور) وقدمه إليه. وهذا نصه:

إلى جلالة الملك حسين من وزير خارجية بريطانيا العظمى.

بلغ حكومة جلالة ملك بريطانيا أن عظمة سلطان نجد هيأ قوة لمهاجمة العقبة. ويفهم من هذا أن الباعث هو جلالتكم وحكومة الحجاز التي جعلت مركز معان والعقبة بحالة عسكرية ضد ابن سعود. ولا يخفى أن حكومة جلالة ملك بريطانيا مسؤولة عن الأمن العام في فلسطين وشرقي الأردن مع معان التي تُعد تحت انتدابها. فعندما أتيتم إلى العقبة كلفت حكومة جلالة الملك علي والأمير عبد الله بتعيين الحدود الفاصلة بين الحجاز والشرق العربي.

ومع ذلك رأت العظمة البريطانية أن المثابرة على المذاكرة في مثل هذه الأوقات الحرجة غير ممكنة بالنظر لحالة الحجاز الراهنة. وعليه فقد أجلت حكومة بريطانيا المذاكرة في هذا الموضوع لفرصة أخرى.

ولكن هناك نقطة متخذة من قبل جلالة ملك بريطانيا ولا يمكنه أن يتساهل فيها، وهي أن لا يُسمح بصورةٍ ما بدوام الحالة الحاضرة. ولذلك

بدأت بأظهار حكومة الشرق العربي في الأماكن التي هي مسؤولة عنها أمام جمعية الأمم وهي تحتوي على معان والعقبة. وتدعوكم أيضاً لمغادرة العقبة لكي لا تكونوا سبباً لحصول مشاكل جديدة بين بريطانيا وسلطان نجد. وبهذه المناسبة تصرّ بالحاح بوجوب مغادرتكم العقبة قائلة بأنها لا يمكنها السماح لكم بالبقاء أكثر من ثلاثة أسابيع.

ولما تلقى جلالته هذا الانذار قال للذين كانوا حوله: نقابل بمزيد الشكر والامتنان الأمور التي يختارها لنا المولى. وإنّا على كل الأحوال لا نجري أية حركة تخالف رضاه وتكون مجلبة لغضب أقوامي. نعم نعم يا أعزائي، نحن ضعفاء وليس عندنا ما يقوينا على دفع هذه المعاملة التي يأباها الشمم. ولكن أمرنا الله سبحانه وتعالى بالصبر ووعدنا بالنصر.

وصمم الملك على رفض القبول بهذا الطلب، فردّ على الانذار بكتاب هذا نصه:

إنني منذ ابتداء الحركة العربية حتى هذه الساعة وانا مخلص في ولائي لحكومة جلالة ملك بريطانيا. ثابت على مبدأي اعتماداً على شرفها وبناء على عهودها ومواثيقها الرسمية التي اقتطعتها على نفسها بشأن محافظتها على حقوق العرب وتأمين الوحدة العربية، والتصديق على استقلال العرب، ومنحها الحرية للشعب العربي، الذي اشترك مع حليفته جنباً إلى جنب، وسفك دماء زهرة الشبيبة من ابنائه، وضحّى بالنفس والنفيس في سبيل الحصول على تلك الغاية الشريفة، والوصول إلى ضالته المنشودة. كما أني وأقوامي العرب، حريصون أشد الحرص على تنفيذ أحكام تلك العهود والمواثيق التي كانت أساس النهضة العربية، دون أن نخل بما يوجب مسؤوليتنا أمام محكمة الضمير النزيه. وإني ضحيت بكل شيء، وتخليت عن الملك، وغادرت وطني حباً بالسلم وحقن الدماء. وأتيت العقبة لأبرهن للعالم أجمع بأن لا مطمع لي سوى إسعاد أقوامي وتحرير بلادي بعد أن قمت بواجباتي. ولم آل جهداً في سبيل المحافظة على حقوق العرب والسعي وراء الوحدة العربية والتمسك

بنص المعاهدة وانتظار تنفيذها. ولم ينقطع الأمل من الحكومة البريطانية بشأن انجاز وعدها والوفاء بعهدها استناداً على شرف تقاليدها. وها إني اليوم مقيم في احدى قرى الحجاز، معتزلاً عن العالم ومبتعداً عن كل ما من شأنه أن يوجب الشغب وسوء التفاهم. ولما كان هذا الاعتزال والابتعاد لم يخلصني من امثال تلك الشوائب، فلا شك بأنني اينما ذهبت لا يخلو الأمر من حدوث شيء، كما في التبليغات الأخيرة. وربما كان أشد هولاً من موقفي الحالي، إذ لا أضمن هياج الشعب العربي وقتئذ، وحدوث ما لا تحمد عقباه نحو الحليفة وغيرها.

ولهذا فإني لا أرى مندوحة عن بقائي في مكاني. وإن شاءت حكومة جلالة الملك فلتبعث بي إلى عالم المريخ، فإني مستعد لانفاذ رأيها في هذه البعثة في أول دقيقة التبليغ. أو إنها اذا نسبّت ورأت عظمتها أن تبعث احدى وسائلها الحربية لتهلكني وعائلتي وخلاص الجميع من هذه الغوائل: فلتفعل، لأني آليت على نفسي بأن لا أحجم عن مساعدة ابناء وطني وقومي، وإني أفتخر أمامكم بكوني ما زلت ولن أزال اساعد الحكومة الحجازية بمالي الخاص الذي أدخرته لمستقبلي المجهول لأن من لا خير فيه لوطنه لا يُرجى منه الخير لحلفائه وأصدقائه. ولي الشرف أيضاً بكوني ثبتُّ على مبدأي وأخلصتُ في عملي وقمت بواجباتي، فما علي من غيري فيما إذا لم يف بوعده ولم يقم بانجاز عهده ونفذ مطامعه بقوة مدرعاته وبرؤوس حرابه، فهناك يكون الحكم لمن غلب. وإن القوى الموجودة في معان هي لأجل المحافظة على الخط الحجازي والمدافعة عن المدينة وملحقاتها تجاه كل طارئ أو معتد، كما أن ابن السعود قد هاجم شرقي الأردن غير مرة في أواخر العام المنصرم، دون ان يكون لحكومة الحجاز أو لحامية معان، أقل دخل فيها، فلماذا لم تعرّفه حدّه لتوقفه عنده؟

وفضلاً عن ذلك فإني لم اعترف بالانتداب على البلاد العربية من أساسه. وما زلت احتج على الحكومة البريطانية التي جعلت فلسطين وطناً قومياً لليهود. وشمالي سورية تحت الانتداب ومأوى للأرمن. وإني لأعجب من

تغافل الحكومة البريطانية عما حلّ بالحجاز بل بمكة المكرمة من السحق والمحق في الأموال والأنفس والدمار، الذي لا يمكن تلافيه إلا بعد عشرات من السنين. ثم اهتمامها بمحافظة معان والعقبة الأمر الذي لا يبقى محل لاطالة البحث فيه لأن ذلك كاف لأقل تأمل. وعليه فإنني أكرر جوابي النهائي بكوني لا أعترف بذلك الانتداب من أساسه، ولا يمكنني مغادرة العقبة إلا بعد ابلاغي لغوه. وبعدئذ أذهب إلى حيث تريد حكومة جلالة الملك بشرط أن يكون محل اقامتي ضمن البلاد العربية. وأن لا أكون مسؤولاً عما عساه قد يحدث من شغب أو هياج شعب تطمح نفسه لرفع نير الاستعمار وتجديد النهضة فيما إذا مست الحاجة. وإلا فإني لا أبرح العقبة مهما كانت النتيجة ولو أدّى الأمر لهلاكي ومحو عائلتي من الوجود، وإني لا أقصد بهذا معاداة بريطانيا وسواها، وإنما هي في سبيل انقاذ وطني وبني قومي. وكل ما تفعله بي الحكومة البريطانية لمما يزيدني شرفاً وفخراً بين شعبي وأقوامي. حيث يسجل التاريخ لكل منا عمله. وفي هذا بلاغ.

وأخذ الملك يشرع في اعداد معدات الدفاع والمقاومة، مصمماً على النضال إلى النفس الأخير، ولكن قبل انتهاء المدة المضروبة بالانذار وصلت البارجة البريطانية دلهي إلى العقبة، فانضمت إلى زميلتها وزار ربّانها الملك. وجاء أيضاً الأمير عبد الله من عمان وسعى لاقناع والده بقبول الانذار. وبعد أخذ ورد طويلين وافق على السفر إلى قبرص، بعد أن رفض الانكليز السماح له بالاقامة في يافا أو حيفا.

وفي يوم الخميس ١٨ حزيران ١٩٢٥ نزل إلى البارجة دلهي فأبحرت به إلى قبرص فنزل في ليماسول عاصمتها يوم ٢٢ منه.

وما كاد الحسين يستقر في قبرص حتى شاع في الصحف أنه أسير حرب في يد الحكومة البريطانية. فأرسل في ٢٢ آب ١٩٢٥ كتاباً إلى المستر بلدوين رئيس الوزارة البريطانية، شكا فيه من هذه الاشاعة وما يترتب على صحتها من القلق له ولذويه. وقد اتّهم بريطانيا صراحة اذا قال فيه:

إنني ألفت نظر فخامتكم إلى ما بدا بين القبائل العربية من الدهشة والاستغراب، لما رأوا ابن السعود يجمع جيشاً عظيماً لمهاجمة الحجاز. فهل بمقدرة ابن السعود ان يجيش مثل هذا الجيش من دون أن ينال من المساعدة ما يعينه على ذلك؟ إن الحالة المشتتة التي كان عليها ابن السعود بعد تلك الهزيمة التي أصيب بها خلال الحرب العامة لم تزل حية في أذهان الأمة العربية. فمن المفهوم أن ابن الرشيد هاجم ابن السعود خلال الحرب العامة وهزمه في ذلك الهجوم الكبير على جراب، وتّمت هذه الهزيمة في الكويت حيث فر ابن السعود تاركاً للعدو كل ما يملكه من سلاح ورجال. وفي ذلك الحين استنجد بي فأرسلت إليه ولدي عبد الله على رأس نجدة كافية فوصلت إليه بعدما أصبحت الهزيمة أمراً مقضياً، فحمته ومنعته من ان تتناوله هجمات ابن الرشيد فمكث ولدي شهراً ومعه جنوده في قرية شقرا تمكن بها من اكراه ابن الرشيد على التقهقر إلى حدود بلاده.

وقد أرسل إليه المستر بلدوين يوم ٢٧ تشرين الأول ردّاً هذا نصه:

لا بد لي من أن أشكر جلالتكم على كتابكم بتاريخ ٢٢ آب الماضي، وقد كان هذا الكتاب موضوع عناية دقيقة بالاشتراك مع رجال حكومة جلالة الملك المشتغلين بالشؤون العربية.

إنني آسف كل الأسف للقلق الذي أصاب جلالتكم من جراء أنباء ظهرت في الصحف المصرية، فحواها انكم في قبرص بصفة أسير حرب. والحقيقة كما ذكرت جلالتكم وهي أن هذه الأنباء غير صحيحة. ولم يخطر لحكومة جلالة الملك قط في بال أن جلالتكم تعاملون من أي وجه كان سوى معاملة فرد اختار بناء على دعوتها أن يقيم في قبرص. وعندما دعتكم حكومة جلالة الملك لمغادرة العقبة لم تضع أمامها سوى مصالحكم الخاصة ومصالح العنصر العربي، التي ترى حكومة جلالة الملك أن قبول جلالتكم بالاقامة في قبرص قد خدمها خير خدمة. فهي ترى والحالة هذه أنه ليس من الضروري إجراء أي تحقيق عن الأحوال التي تركتم فيها العقبة. ويعزّز هذا الرأي أنكم

سلمتم في كتابكم بأن معان والعقبة استخدمتا لحشد الجنود التي تُستخدم ضد سلطان نجد ونقلها. فليس في وسع حكومة جلالة الملك سوى أن تعدّ هذا التسليم مبرراً لقولها إن جلالتكم والحكومة الحجازية كانا يقومان في ذينك المكانين بأعمال ضد نجد.

وقد نظرت حكومة جلالة الملك في إجراؤء ما يمكن اجراءه لأنهاء الحرب الحاضرة في الحجاز. وطلب جلالة الملك علي طلباً كهذا. فعندما تلقت حكومة الملك هذا الطلب سألت عظمة سلطان نجد هل يقبل وساطتها للسعي الى تسوية الاختلافات بين الحجاز ونجد؟ ولكن عظمته جاوب انه لا يستطيع أن يقبل هذا التوسط. فاضطرت حكومة جلالة الملك مع الأسف إلى الامتناع عن كل سعي آخر بالتوسط. فإذا لم يكلفها الفريقان والحالة هذه أن تفعل ذلك، فإنها لا تستطيع أن تساعد في إعادة السلام.

وترى حكومة جلالة الملك، أن فقرة أخرى في كتابكم تتعلق بالأحوال التي تنازلتم فيها عن العرش قد تحمل من يطلع عليها – ولا يكون واقفاً على حقيقة الحال – على الظن أن حكومة جلالة الملك بذلت نفوذها لحملكم على التنازل. ولا شك أن جلالتكم لم تشأ ايجاد مثل هذا الظن الذي لا يطابق الواقع. ولكن بما أن كتابكم قد انتشر. وربما نشأ منه ما يثير الظنون، فحكومة جلالة الملك ترى من الواجب أن تذكر بصفة جازمة انها لم يكن لها أي تأثير في تنازل جلالتكم. ولم يكن لها أي شأن في هذا العمل لا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

وفي شهر تشرين الثاني ١٩٢٦ أرسل الملك الكتاب الآتي إلى رئيس عصبة الأمم في جنيف وإلى الدول العظمى الممثلة فيها. وهذا نصه:

عن قبرص في تشرين الثاني سنة ١٩٢٦

يا صاحب الرئاسة.

إنني أنا الموقع بذيله ادناه الحسين بن علي ملك الحجاز، وعضو مؤسس في جمعية الأمم، وحليف الحلفاء في الحرب الكبرى، أبين لجنابكم ما يأتي:

أولاً : إن جمعية الأمم لم تخلق، ولم تقبل بايجادها الدول المحالفة والمحايدة أيضاً إلا لأمر واحد، وهو منع أية دولة مستقلة أو مملكة مستقلة عن التعدي على دولة أو مملكة أو إمارة مستقلة مثلها. وإن هي لم تتمكن بالذات من هذا المنع أجبرت الدول العظمى الداخلة في عضوية جمعيتها على التعاون عصبة واحدة لدفع الضرر ومنع المعتدي من التمادي في تعديه. وهذا القانون الأساسي لم يطبق في مسألتي مع الوهابيين، الذين اجتاحوا بلادي وبلاد آبائي وأجدادي حتى محمد بن عبد الله النبي الهاشمي العربي صلى الله عليه وسلم. ولذلك فإني أحتج أشد الاحتجاج أولاً على هذا العمل من قبل قائد الوهابيين. ثانياً على الجمعية لعدم معاملتي بموجب قانونها الأساسي. وإني أطلب من الجمعية الموقرة اخراج الوهابيين من بلادي بقوة الدول أعضاء جمعية الأمم متفقة، التي اتشرف بأن أكون عضواً مؤسساً فيها، واعادة ملك آبائي وأجدادي اليّ. وأرى من العبث أن أعيّن لرئاستكم المواد القاضية لي من قانون الجمعية بهذا الحق الصريح.

ثانياً: تتذكر جمعية الأمم بأن قادة الوهابيين قبل اجتياح الحجاز، كانوا قد دخلوا إمارة الكويت، مما حمل الدولة البريطانية على ارسال الجنود الانكليزية المقيمة في العراق مع طياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة إلى الكويت وارجاع الوهابيين بالفشل عن مقاصدهم.

ثالثاً: لما فشل الوهابيون ولم يفلحوا في هجومهم على الكويت وغزوتها. ولما اقتحموا إمارة شرقي الأردن بمجموع عصاباتهم هناك. وقف في وجههم ولدي الأمير عبد الله حاكم هذه الإمارة وقاومهم بكل ما عنده من القوات الحربية والرجال الأشداء. وانضمت إليه فرق من الجنود الانكليزية بطياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة، فتغلب على هذه العصابات وردها. وقد رأى وشاهد بالعين بعض كبار القوم وهم شهود عدول بأن الوهابيين بعد فرارهم كانوا إذا وجدوا جريحاً ترجلوا عن خيولهم وأغمدوا خناجرهم في قلبه.

رابعاً: أما أنا ملك الحجاز وعضو جمعية الأمم وحليف الدول

المنتصرين في الحرب الكبرى، لم أعن بشأن هذه العصابات عناية الخائف من عدوانها على ملكي، لأنني كنت أعلم بأننا لسنا اليوم في العصور الوسطى. ولأنني كنت على أكثر من اليقين بأنها لا تتجاسر أن تهاجم بلاداً يقدسها ثلاثمئة مليون مسلم موحد ويصلون إلى قبلتها ويحجّون إلى كعبتها من كل صوب وحدب. وتضمن استقلالها جمعية الأمم، وتحمي وتحترم هذا الاستقلال جميع دول الحلفاء. وما كنت لأظن بأن واحدة من هذه الدول العظمى توعز إلى رجال هذه العصابات بواسطة بعض ساستها الأغبياء فيدخلون الأراضي المقدسة ويدمرون الأضرحة والمعابد والمشاعر الدينية.

أجل إني ما كنت لأتصور أن الحليفة الكبرى، تأتي من وراء أكبر حليف لها في الشرق، وأعظم ساعد لها في الحرب الكبرى، وعلى الأخص عند فتحها القدس باعتراف قائد جيوشها الأكبر، فتطعنه في ظهره دون أن يكون لها ضمير يوبخها، أو مروءة ووفاء يمنعانها عن هذا العمل الفظيع الظالم. أما الحليفة الكبرى فإنها شعرت بفظاعة عملها هذا على الأخص عندما رأت اشمئزاز الرأي العام الانكليزي منه أو بالأحرى اشمئزاز الشعب البريطاني النبيل من سياستها المتخبطة المضطربة بل السقيمة الخرقاء، ومن حرمان الانكليز وأقدس البلاد الأسلامية من حليف شريف وملك عريق في الحسب والنسب ومسالم لم يفكر قط في الاضرار بالآخرين.

اجل. إن رجال الحكومة الانكليزية الذين أتوا هذا الغلط الفاضح، وهذا الخطأ الفادح، يقفون مطأطئي الرؤوس خافضي العيون أمام الرأي العام الانكليزي النبيل، الذي سيحاسبهم أشد الحساب عند عودة افتتاح البرلمان الانكليزي. والذي سيطلب منهم اعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل هذا الانقلاب الظالم بكل واسطة أو شكل أو نوع، وإلا سخط عليهم وكان سخطه عظيماً. وما نحن ببعيد عن سخطه المؤلم على رجال من أعاظم حكامه رفعهم إلى قمم المجد والفخر ولما رأى سوء تدبيرهم أنزلهم إلى حضيض المهانة بعد أن سحب كل ثقة منهم.

خامساً: إنني اطلب من جمعية الأمم الموقرة اخلاء البلاد المقدسة

والأقطار الحجازية من الوهابيين، واستفتاء أهاليه، الذين يُعتبر حجازهم إلى اليوم كعضو مؤسس في جمعية الأمم، وكحليف للدول العظمى، لكي ترى بأن ما فوق التسعين في المئة من هؤلاء الأهالي يصوتون ضدهم.

إنني أطلب ابلاغ صوتي الشاكي من منفاي في جزيرة قبرص بواسطة جمعيتكم المحترمة، إلى جميع رجال الدول العظمى، وعلى الأخص إلى كافة الشعب الانكليزي النبيل، لأفهمهم الحقيقة بكل صدق وصراحة: بأن سياسة حكومته غير الشريفة نحوي لا تثمر غير الضغائن والبغضاء بين المسلمين الأصحاء والانكليز. أقول المسلمين الأصحاء أي عامة المسلمين الذي يغارون على دينهم وعلى نبيهم وآله. و لا عبرة بأفراد لا يعدّون إلا القليل من المسلمين الذين هم جهلة أغبياء يظللهم المضللون وعمال السوء فلا يعلمون من دينهم شيئاً ولا يسيرون على المنهج الذي أوصاهم به الكتاب العظيم وهم مسلمون بالأسم فقط. ولو كانوا أصحاء الإسلام لا حترموا آل نبيهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقد أوصاهم بهم خيراً. ولوقفوا جميعاً وقفة واحدة كوقفة البطل المغوار والمسلم الصحيح المغفور له ساكن الجنان محمد علي باشا كبير العائلة العلوية الكريمة في مصر، وباقي أركان الدولة المصرية عندما بعث بأولاده ثم ذهب بالذات إلى الحجاز لقتال الوهابيين واخراجهم من الأراضي المقدسة الحجازية وانقاذها من بدعهم في الدين.

إنني اكتب هذا الاحتجاج الشديد، لرئاسة جمعيتكم، لكي تعلم الدول كافة ويعلم الشعب الانكليزي النبيل خاصة بواسطتكم، أن أعمال رجال حكومته في الحجاز غير العادلة وغير الحقة تحط من مقامها السامي في أعين عامة المسلمين الأصحاء خاصة في الهند، وفي جميع المستعمرات البريطانية والدولية ايضاً، لأن هؤلاء يريدون بكل قواهم المحافظة على شعائرهم الدينية في أراضيهم المقدسة. ويحجّون من كل فج سحيق إلى هذه الأراضي من أجل هذه الشعائر والعبادات المحترمة منهم. نعم فليعلم الشعب الانكليزي النبيل هذه الحقائق وليتحرك من جموده وليقف موقف المنقذ العادل الشريف ليضع حداً بين الظالم والمظلوم، فيرفع الظلامة التي سببتها حكومته عن المظلوم.

وعندئذ فقط نقول إن الشعب الانكليزي هو نبيل وعادل ويحب العدالة والحق، وإن الدول العظمى تحترم رعاياها المسلمين وتحترم شعائرهم الدينية.

وإني في الأخير أطلب من جمعيتكم المحترمة كعضو مؤسس فيها، أن تتدخل بكل قواها المستمدة من الدول المتحالفة العظمى، في مسألة الحجاز، ووضعها في جدول أعمالها، وبحثها بحثاً دقيقاً وعادلاً، ومساعدتي مساعدة فعلية لاستعادة ملكي وملك آبائي وأجدادي، وارجاع الوهابيين إلى بلادهم، فتكسب بذلك حب عامة المسلمين الأصحاء في العالم واعزازهم لها واحترامهم لأحكامها، وتكون مطمئنة الضمير بأنها فعلت الواجب الذي من أجله تأسست جمعيتها وخلقت عصبتها، وانها فاعلة إن شاء الله.

مغتنماً هذه المناسبة يا جناب الرئيس لتقديم احتراماتي الفائقة الحد لشخصكم المحترم ودمتم.

***

يتحدث الينا السير رونالد سترس في كتابه "المشرقيات" عن طرف من حياة الملك في قبرص، وكان إذ ذاك يشغل وظيفة حاكم الجزيرة، فيقول في معرض العبرة:

يا لتقلبات الأيام. فقد وقفت على ضريح كامل باشا – الذي أسقطه الاتحاديون – في مقبرة جامع صغير وقرأت على قائمته باللغة التركية ما يلي:

سعادة كامل باشا ابن الضابط صالح آغا

عُيّن اربع مرات في رتبة الصدر الأعظم للامبراطورية العثمانية

ولد في نيقوسيا ١٨٣٣ ومات فيها ١٩١٣

تركي عظيم ورجل شريف

ولكن كامل باشا على الأقل نُفي إلى وطنه، بينما الحسين بن علي: ملك العرب، وخليفة المسلمين، والد ملك العراق وأمير شرقي الأردن – عاش لكي تُغتصب منه مملكته في الحجاز، ثم نقلته دارعة انكليزية من خليج العقبة وسُمح له بالاقامة في جزيرة منعزلة حيث لا أحد يعلم عنه شيئاً، ولا

هو يعلم عن أحد، معتزلاً في حياته، فكان معضلةً للسياسيين العظماء، أما الصغار فلم يعرفوا شيئاً عنه.

ولقد وجدته في بيت صغير منفرد، يحيطه ابنه الأصغر زيد بولاءٍ بنوي قلبي. وقد أثّرت فيّ رؤية هذا الأمير الشاب الذي قاد الفيالق في الحرب، وقضى سنة في جامعة "باليول" بانكلترا وهو يقرأ لوالده شرح البخاري للقرآن ويرعاه ليلاً ونهاراً.

وأُشيع أن الملك حسين أحضر معه بعض مئات الألوف من الليرات الانكليزية التي وصلته كدفعات من بريطانيا لمؤازرة الثورة. ولكني كنت موقناً أن مبلغ المال أقل مما تقدره الاشاعات التي تعظّم كل صغير. وقد أنقصته بالتدريج الدعايات والعرائض التي كان يقدّمها لأجل قضية فلسطين.

وكانت الحكومة البريطانية قد أعدّت هدية للملك حسين – حينما كان لا يزال حليفاً مستقلاً – وهي وسام الصليب الكبير، وقبلما يصله أضاع بلاده وتاجه ودياره. ولقد رأيت كثيراً من تقلبات الحظوظ، ولكني لم أعرف في حياتي أبداً ذلك الحد الذي وصلت إليه سخرية القدر، حينما قلدتُ الوسام، في دار الكتب القبرصية العامة – بين حسد السفراء والقواد والحكام الأوروبيين – لذلك الشيخ الذي لا يزال – رغم خسارته للسلطان – عظيماً مبجلاً[1].

وقد جاء في كتاب " فلسطين العربية " لمؤلفه عيسى السفري، في صدد إقامة الحسين بقبرص ما يلي:

---

(١) رونالد ستورس، مصدر سابق، ص ص ٥٨٣ – ٥٨٤.

وحدثني الأمير زيد بن الحسين، عندما قابلته في لندن سنة ١٩٦٨، أن ستورس لم يتصرّف تجاه الحسين في قبرص، كما كان المأمول من رابطة "الصداقة" التي كانت بينهم وبينه، خصوصاً صداقة ستورس مع الأمير عبدالله. كان ستورس حاكم الجزيرة، ويستطيع أن يقدم الكثير من التسهيلات للملك حسين واسرته، ولكن اللامبالاة التي ظهرت منه خيّبت حسن الظن به. (هنا يكمن الفرق بين برودة الانكليز الطبيعية وبين حرارة العاطفة – بل قل البساطة – عند العرب).

حدثني أحد كبار ضباط الجيش العربي في شرقي الأردن، ان الانكليز عندما فشلوا في مفاوضتهم مع ابن سعود أرادوا تحريك اولاد الحسين – علي ملك الحجاز السابق، وعبد الله أمير شرق الأردن، وفيصل ملك العراق – ليرغموا ابن السعود على الارتماء في أحضانهم. وقد عقد أولاد الحسين اجتماعاً في قبرص منفى والدهم ليقرروا ما يجب صنعه، فكان جواب الحسين:

"اياكم يا أولادي من الوقوع في شرك الانكليز مرة أخرى. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. عليكم بالاتفاق مع ابن السعود. إنه خير لكم من الانكليز. أوليس هو عربي مثلكم، دمه دمكم ولحمه لحمكم ولغته لغتكم؟ إنني أؤثر أن يظل ابن السعود مسيطراً على الحجاز، بل على البلاد العربية كلها، من أن أرى الانكليز مسيطرين عليها"[١].

وحدثني أمير اللواء محمد علي العجلوني – وكان من جملة من زاروا الحسين في قبرص قال:

كان الملك حسين يقضي صبيحة اليوم في مطالعة القرآن الكريم وبعض الكتب الدينية الأخرى، كما كان يطالع الصحف العربية. ثم يتناول طعام الغداء ويرتاح قليلاً. أما بعد الظهر فيستقبل الزائرين ويدعو أصدقاءه للعشاء معه. وكانت مائدة العشاء قلما تخلو من الضيوف.

وقد بلغ من حبه لبلاد العرب، أنه كان يغضب ويحتّد اذا امتدح أحد زائريه منتوجات قبرص وفضّلها على منتوجات البلاد العربية، كأن يقول مثلاً: إن الرمان في قبرص أجود من رمان الطائف، ولهذا فقد كان أمين سرّه يحذّر زائريه دائماً من التعرّض لموضوع كهذا.

أجل، كان جسمه في قبرص ولكن روحه وعواطفه كانت تهفو دائماً:

لمـرابـعٍ عـنهـا تسـائل زائـريـك بـكـل حـين
كيـف "القـويـرة" و"الشراة" وكـيـف سـهل بني عـمـون؟

(١) عيسى السفري: فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، يافا، ١٩٣٧، ص١٠٠.

وجبـــال "أيـــلة" هـــل بهـــا كـــلأٌ يسرّ الـــرائدين؟[1]

ويذكر العجلوني في كتابه "ذكرياتي" أن الارمن في قبرص كانوا يتقربون دائماً من الملك حسين، فيزورونه في أيام الجمع على هيئة وفد يرأسه أسقفهم الأعلى. وذلك اعترافاً منهم بمعروفه إذ أنقذ جيشه الشمالي عدداً كبيراً منهم كان الأتراك قد شتتوهم ونفوهم إلى البتراء.

كما يذكر أنه كان في حاشيته بقبرص بضعة أشخاص منهم، يعتمد عليهم ويثق بهم، ويخلصون له أشد الاخلاص.

وقد أكّد لي العجلوني أن الحسين كان يعاني في قبرص أزمة مالية شديدة، وأنه كان يتدبر أموره المعاشية من مساعدات يتلقاها من نجليه عبد الله وفيصل.

وخلال اقامته بقبرص، توفيت زوجته الملكة أم الأمير زيد عام ١٩٢٩ ودفنت في مدينة لارنكا، إلى جانب مزار مقدس عند الأتراك، وهو ضريح زوجة القائد العربي الذي افتتح قبرص واشتركت زوجته معه في معارك الفتح.

– ٨ –

نهاية المطاف

أقام الحسين في جزيرة قبرص. وبالرغم من أنه كان قد تجاوز السبعين من عمره، إلا أن اليأس لم يتملك قلبه العامر بالايمان بحقوق قومه. ولذا فإنه ما كان يدع فرصة تمرّ دون المطالبة بتلك الحقوق. ويمكن أن نعرف مدى الأهمية التي كانت لنضال الحسين الأدبي، عندما ندرس نموذجاً من تلك الاحتجاجات. فهي تعدّ في الحق وثائق تاريخية لما حوته من حقائق ودلائل.

---

(١) الشعر لمصطفى وهبي التل في رثاء الحسين. القويرة مكان بين معان والعقبة. ايلة هو الاسم القديم للعقبة. الشراة من أراضي معان. وسهل بني عمون هو السهل المجاور لعمان. وكان الشاعر قد زار الحسين في منفاه فأخذ يسأله عن أحوال هذه البلاد.

ولكن المرض أخذ يشتد عليه. وأصابه الهزال وأيقن الأطباء أن نهاية أيامه قد اقتربت. فنقل جلالته إلى عمان في تشرين الثاني ١٩٣٠، بعدما قضى ست سنوات في تلك الجزيرة المنعزلة، بعيداً عن بلاده التي أحبها وعن قومه الذين ضحّى بالملك والاستقرار في سبيلهم. وكانت أفواج الزائرين تتقاطر عليه من جميع البلاد العربية، فيسر لمرآهم ويوصيهم بالتآلف والاتحاد. وكان يقول لزائريه " لقد انتعشت بمرآكم، وإني اوصيكم بالمحبة والاتحاد".

ويتحدث جورج انطونيوس في كتابه "اليقظة العربية" عن إقامة الحسين في عمان فيصول:

كان الملك حسين، هو نفسه الذي اقترح علي فكرة القيام بأبحاث لجمع نصوص مراسلات مكماهون، وذلك في عمان قبل وفاته بأشهر قليلة. وخلافاً لتكتمه السابق فقد أبدى رغبةً شديدة في ايضاح الحقائق كلها. وأطلعني على المسودات الأصلية لرسائله إلى مكماهون وسمح لي بنسخها، بينما كان يتطلع في صمت لا يقطعه إلا ليجيب على اسئلتي.

إنني لن انساه ابداً في جلسته الهادئة تلك. على كرسي كبير جداً بالنسبة لجسمه الصغير الذي أنحله الشلل. وقد ابيض وجهه الجميل بشحوب المنون. وعيناه تلمعان بين تارة وأخرى. وقد كان ذهنه صافياً لامعاً تماماً كما رأيته لأول مرة – وهو في عنفوان نشاطه – لسبع سنوات خلت. ولكن ظهر لي أن تفكيره قد أضاع مرونته القديمة وأن حركاته التشبيهية التي كانت ترافق أحاديثه دائماً، قد ازدادت عما قبل، كأنما تغلّبت العادة. وقد استولت عليه فكرة تبرير أعماله. وبينما كان يحثني على كتابة قصة الثورة العربية كان يشير على الأوراق التي امامي ويقول " هذه قواعد ثورتنا وتزكية أعمالي ". وقد كرّر قوله هذا اكثر من عشر مرات في الساعة الأولى من جلستي لديه.

في ذلك الوقت – ربيع ١٩٣١– كان الحسين قد قضى في المنفى ست سنوات. بعدما أضاع عرشه وقُسر على مبارحة بلاده، وها هو اليوم شيخاً عليلاً لا يهمه سوى ايضاح الأعمال التي قام بها. وقد نسب – في حالة

احتداده – كل النوائب التي ألّمت به إلى عدم الوفاء بالعهود التي قطعها له هنري مكماهون، وقد كان يؤكد انها السبب لمصيبته الحاضرة. وكان لا يزال يذكر كتشنر الذي لم يلتق به، وتكلم باشمئزاز عن لويد جورج، قائلاً أنه مثّل دور الوغد في مؤتمر السلام:

– لانكليز يا ولدي قوم شرفاء في القول والعمل. وفي السّراء والضراء. أقول شرفاء. غير أن فخامة الشهم الهمام لويد جورج يشبه البهلوان والثعلب، أقول الثعلب[١].

وفي الكتاب الذي ألفه كريم ثابت عن الملك فيصل، عقد فصلاً تعرض في لذكر الملك حسين، وما له من الفضل على النهضة العربية. ونقل إلينا طرفاً من حياة الملك العظيم في أيامه الأخيرة قال:

لا يسعني أن أختم هذا الكتاب بدون أن أقول أن الملك فيصلاً ورث الذكاء والشجاعة والإقدام واستعذاب التضحية في سبيل العرب عن المغفور له الملك حسين بن علي. ولكن الملك فيصلا كان ينتمي إلى جيل غير الجيل الذي كان والده ينتمي إليه. فكانت أساليب الولد في الحكم غير أساليب الوالد. ثم أن الملك فيصلا استفاد برحلاته الكثيرة إلى الخارج، وعرف كيف يصقل بها مواهبه، فجارى الزمان الذي عاش فيه بأحكامه ومقتضياته، وهو الأمر الذي لم يستطعه الملك حسين بعد اعتلائه العرش لأسباب كثيرة أهمها تقدم سنه.

ولكن مهما اختلفت الآراء في شخصية الملك حسين، وفي السياسة التي انتهجها في الشؤون الداخلية، وفي علاقاته السياسية الخارجية، فليس من شك في أنه كان بطل الثورة العربية. وليس من شك في انه جازف بحياته وحياة أولاده في سبيل العرب، ولولا هذه المجازفة لقضى الترك على كثيرين من العرب الذين ما برحوا ينعمون بالحياة إلى يومنا هذا. وليس من شك في أنه ذهب ضحية مبادئه،

---

(١) جورج انطونيوس، مصدر سابق، ص ص ١٨٢ – ١٨٣.

لأنه لو تساهل قليلاً في حقوقه وحقوق العرب لما كان مصيره المنفى في قبرص. ولكنه تمسك بهذه الحقوق كاملة وهو يعلم أن تمسكه بها سيفضي إلى إنهيار عرشه، فآثر أن يقول التاريخ عنه أنه بذل العرش في سبيل العرب، على أن يقول أنه بذل حقوق العرب في سبيل العرش.

ولذلك سيظل الحسين بن علي، بطل الثورة العربية وشهيد المبادئ العربية في نظر كل عربي على مر الأيام. وقد أُتيح لي أن أحظى بمقابلة الملك حسين قبيل وفاته في قصر نجله الأمير عبد الله في عمان عاصمة شرقي الأردن. وكنت أزور تلك البلاد يؤمئذ مع الدكتور بهي الدين بركات وزير المعارف الأسبق في مصر. فلما مثلنا بين يديه همّ بالوقوف فلم يقو على ذلك، فرجونا منه ألا يفعل. فدُعى بهي الدين بك إلى الجلوس إله يمينه ودعاني إلى الجلوس إلى يساره، فرأيت عينيه غائرتين في وجهه، وهما العينان اللتان كانتا تبرقان أملاً وتلمعان ذكاءً وعزيمة. ورحّب بنا جلالته بصوت ضعيف يكاد يكون همساً، حتى أن حسن باشا خالد خشي أن لا نتبين أقواله فوقف بجانبه يسمع حديثه ثم يردّده لنا. وهو الذي كان صوته زئيراً يدخل الفزع في القلوب. وأراد جلالته أن يحرّك يده فلم تتحرك إلا قليلاً وهي اليد التي أطلقت الرصاصة الأولى في الثورة العربية، ورفعت لواء استقلال العرب.

وصفوة القول أن الحسين كان في ذلك الحين، أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. ولكن الزمان الذي استطاع أن يقضي على قوة بنيته عجز عن القضاء على قوة مبادئه، لأن الجسم يفنى والمبدأ خالد لا يفنى. فقال لنا جلالته "إنني أريد أن أرى العرب متحدين، وإذا كان موتي يساعد على اتحادهم فالقوا بي إلى أتون النار".

وكذلك كان اتحاد العرب ومصيرهم، شغل الحسين الشاغل وهمه الوحيد حتى اليوم الأخير من حياته، فلا غرو إذا كان فيصل ابنه، ولا عجب إذا أدركت الوفاة فيصلا وهو يوصي قومه بالاتحاد.

فإذا ذكر العرب فيصلا. وسيذكرونه كلما ذكروا النهضة العربية واستقلال

المملكة العراقية. ليذكروا معه والده الحسين. فإن النهضة العربية وليدته كما أن العراق وليد نجله.

رحمهما الله. فقد كانا بطلين عربيين، وأحسن اليهما في جنته تعداد حسناتهما لقومهما في حياتهما. (انتهى).

***

لم تطل الأيام بالملك، ففي ٣ حزيران ١٩٣١ اختاره الباري تعالى إلى جانبه. وفي اليوم التالي دُفنت رفاته في القدس بجوار الحرم الشريف باحتفال مهيب جليل مشت فيه آلاف الوفود من جميع الأقطار العربية، وقيلت في رثائه عشرات القصائد. ومن أبلغ ما قيل في تأبينه تلك القصيدة العصماء، التي أودع فيها أمير الشعراء أحمد شوقي كثيراً مما يضطرم في أفئدة العرب، والتي تعتبر – بحق – من عيون الشعر العربي ودرره الخالدة:

لـــك في الأرض والسماء مآتم ... قام فيها أبـو الملائك هـاشم

عبرات "الكتــاب" فيهــا جوارٍ ... وعيون "الحديث" فيهـا سواجم

قعــد الآل للعزاء وقامت ... بــاكيـات على الحسين الفواطم

***

يا أبــا العليــة البهاليــل ســل آ ... بائك الزهر، هل من الموت عاصم؟

المنايا نــوازل الــشعر الأبـيض ... جــارات كــل أســود فــاحم

ما الليالي إلا قــصار، ولا الــدنيا ... سوى مــا رأيــت، احــلام نــائم

انحسار الشفاه عن ســن جــذلان ... وراء الكــرى إلــى ســن نـــادم

سنةٌ أحــسنت وأخــرى أســاءت ... لم يدم في النعـيم والكــرب حــالم

***

المناحــات فــي ممــالــك ابنائك ... بدريـــــة العـــزاء قــوائـــم

تلك بغداد في الدموع، وعـــمان ... وراء الســـواد، والشـــام واجــم

والحجــاز النبيــل ربــعٌ مصــلٍ ... من ربوع الهدى، وآخــر صــائم

واشتركنا، فمصر عبرى، ولبنان ... ســكوب العيــون بــاكي الحمــائم

***

قم تأمل بنيك في الـشرق زيـن | التاج، ملء السرير، نور العواصم
الزكيون عنصراً مثـل إبـراهيم | والطيبـون مثـل القاسـم
وعلـيهم إذا العيـون رمـتهم | عـوذٌ مـن محمـدٍ وتمـائم
قد بنـى الله بيـتهم فهـو بـاقٍ | ما بنى الله، مـا لـه مـن هـادم
دبّروا الملك في العراق وفي الشام | فـسنّوا الهـدى وردّوا المظـالم
أمن الناس في ذراهـم وطابـت | عرب الأرض تحـتهم والأعـاجم
وبنـوا دولـةً وراء فلـسطين | كعـابُ الهـدى فتـاةُ العـزائم
ساسها بالأنـاة أروع كالـداخل، | ماضـي الجنـان يقظـان حـازم
قبرصٌ كانت الحديد وقـد تنـزل | قـضبانه الليـوث الـضراغم
كـره الـدهر أن يقـومَ لـواءٌ | تُحـشرُ البيـد تحتـه والعمـائم

***

قـم تحـدث ابـا علـيٍ الينـا | كيف غامرت في جـوار الأراقـم
لم تبالِ النيوب في الهـام خـشناً | وتعلّقـت بالحواشـي النـواعم
هاتِ حدّث عن العـوانِ وصـفها | لا ترع في التراب مـا انـا لائـم
كلنـا واردُ الـسرابِ وكـلٌ | حَمَلٌ فـي وليمـةِ الـدهرِ طـاعم
قد رجونـا مـن المغـانمِ حظـاً | ووردنـا الـوغى فكنـا غنـائم
وظللنـا مـن الوعـود نـشاوى | لم تفق أمـة، ولـم يـصحُ حـاكم

***

قد بعثـت القـضية اليـوم بعثـاً | رب عظم أتـى الأمـور العظـائم
أنت كالحق الّف النـاس يقظـان | وزاد ائـتلافهم وهـو نـائم
إنمـا الهمـةُ البعيـدة غـرسٌ | متـأني الجنـى بطـيء الكمـائم
ربما غـاب عـن يـدٍ غرسـته | وحوته علـى المـدى يـد قـادم
حبـذا موقـفٌ غُلبـت عليـه | لـم يقفـه للعـرب قبلـك خـادم
ذائـداً عـن ممالـكٍ وشـعوب | نُقلت في الأكـف نقـل الـدراهم
كـل مـاءٍ لهـم وكـل سـماءٍ | موطئُ الخيل أو مطـار القـشاعم

لِمَ لم تدعهم إلى الهمّةِ الشماءِ والعلمِ والطماحِ المزاحم
وركوبِ اللجاج وهي طواغٍ والسماوات وهي هوج الشكائم
والى القطب والجليدُ عليه والصحارى وما بها من سمائم

***

اغسلوه بطيّبٍ من وضوء الرسلِ كالورد في رباه البواسم
وخذوا من وسادهم في المصلّى رقعةً كفّنوا بها فرع هاشم
واستعيروا لنعشه من ذرى المنبر عوداً، ومن شريف القوائم
واحملوه على البراق إن اسطعتم فقد جلّ عن ظهور الرواسم
وأديروا إلى العتيق حسينا يبتهلْ ركنه وتدعو الدعائم
واذكروا للأمير مكةَ والقصرَ وعهدَ الصفا وطيبَ المواسم
ظمىءَ الحرُ للديار وإن كان على منهلٍ من الخلد دائم

***

نقّلوا النعشَ ساعةً في ربى الفتح وطوفوا بربّه في المعالم
وقفوا ساعةً به في ثرى الأقمار من قومه وقرب الغمائم
وادفنوه بالقدس بين سليمان وداؤد والملوك الأكارم
إنما القدس منزل الوحي مغنى كل حبرٍ من الأوائل عالم
كُنّفت بالغيوب فالأرض أسرارٌ مدى الدهر والسماءُ طلاسم
وتحلّت من البراق بطغراءٍ ومن حافر البراق بخاتم[1]

---

(١) عام ١٩٦٦ قامت دائرة الثقافة والفنون، في عمان، بنشر كتاب بعنوان (في وداع الشهيد)، ضم الكلمات والقصائد التي قيلت في رثاء الحسين بن علي. ومن أروع ما قيل في رثائه، قصيدة خليل مطران، ومطلعها:

أرنَّ سهم الردى، إرنان منتحبِ وسال بالدمع وجهُ السيف ذي الشطبِ

وقصيدة فؤاد الخطيب، ومطلعها:

هي المواكبُ، فاشهد كيف تبتدرُ كالسيلِ مصطخب التيار ينحدرُ

وقصيدة مصطفى وهبي التل، ومطلعها:

لانت قناتُك للمنونْ وقلما كانت تلينْ

القسم الرابع

بين يدي التاريخ



- ١ -

كُتب الكثير عن الثورة. وكُتب الكثير عن أعمال الحسين. وعلى الرغم مما كان من أثر خالد لا تتنازعه أيدي العاديات فإن البعض من مؤرخي نهضتنا، راحوا يقللون من شأن الحسين، ويقللون من شأن الثورة التي قام بها. حتى زعم بعضهم أن الحسين حين قيامه بالثورة لم يكن معه من العهود ما يضمن سوى استقلال الحجاز، وهو شيء طبيعي. فبعد أن أخرجوا عدن والبصرة وخط سايكس الغربي قالوا إن الانكليز استثنوا أيضاً "المناطق العربية التي لا تقدر أن تتصرف بها من تلقاء نفسها"[١].

واندفع بعضهم فقال أن الحسين لم يحقق آمال شباب العرب فانفضوا عنه. ووصفه آخرون بالعسف والجور. ورماه غيرهم بالأثرة والاستبداد. وتطرّف احدهم فنعته بـــ "الظالم". وأحب ان أدفع هذه التهم بأن أوجه النظر إلى ما تقدم من هذه الفصول وليس فيها اختلاق أو مجاملة.

ولأضع أمام القارئ صورة واضحة مما كتب عن الحسين من النوع الذي أشرت إليه. وهذه الصورة على ما فيها من سفسفة لا تخلو من بعض الفائدة:

وصل الحسين إلى الحجاز في أواخر عام ١٣٢٦ وكان مشهوراً في

---

(١) فؤاد حمزة : قلب الجزيرة العربية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٣٣، صفحة ٣٢٤. وكان المؤلف (وهو من أصل سوري) قد التحق بخدمة السلطان عبد العزيز آل سعود، وأمضى حياته في خدمة الحكومة السعودية. وكنت اطلعت في أحد ملفات الوثائق البريطانية (الملف F.O. 141/698) على تقرير للسفير البريطاني اندرو رايان لدى السعودية، بتاريخ ١٩٣٣/٣/٢٧، جاء فيه أن فؤاد حمزة وأمين التميمي (وهو غير الزعيم الفلسطيني المعروف) عرضا عليه ابتياع بعض الوثائق التي كانت في حوزة التميمي، ولكنه رفض ذلك.

الآستانة بالزهد والتقوى والصلاح، فعلّق أهل البلاد عليه الآمال الجسام لأنهم كانوا خارجين من حكم جور واستبداد. فأملو الآن بالفرج على يدي الحسين كما أملوا بكلمات الحرية والمساواة والعدالة التي كانت شعار القائمين بأمر الحركة الدستورية في البلاد. والحق يقال أن الناس كانوا في اضطراب كلي بعد الدستور لا يعلمون ماذا تسفر عنه الحركة الجديدة، كانوا يعلمون أن سلطة الوالي والشريف هي القانون، فأرادوا وقتئذ أن يعرضوا كلا من الأمير والوالي والدستور على المحك ليعلموا أي الثلاثة هو الأثبت. يراجع أصحاب المصالح الشريف فيعلم أن الدستور حدّد شكل المقاضاة والمخاصمة ،وأنه ممنوع بحكم الدستور من السير على هواه في الأمر. ولكنه إن قال لهم ذلك فقد هيبته. فيظهر التألم في أفعالهم ويتوجع لاختلافهم وهم أبناء وطنه، وإنه لا يحب أن يرى اختلافاً فينصحهم بالصلح والتصافي بدون خصام أو تقاضي، فينصرفون من لدنه داعين له ولعطفه الأبوي، ومحبته لأهل وطنه. ويقوم أناس آخرون يذيعون أن السبب في امتناع الشريف عن النظر في قضايا المتخاصمين هو غير ما يتظاهر به، وأن سيف الدستور والحرية مصلت فوق رأسه يمنعه من ذلك. ويقف الناس حيارى لا يعلمون ماذا يكون من نتيجة الصراع بين هذا الشريف وبين الدستور. وأخيراً يرى الشريف أن كرامته وهيبته تستلزمان عملاً يدحض من مدعيات أضداده ويظهره في عيون الناس، فيستعمل سلطته الفردية في تأديب أحد الأشراف عبد الله الكلفوت الذي كان أشد الناس حماساً للدستور وتهجماً على سلطة الشريف، ويضعه في السجن. فينتظر الناس أن يحمي الدستور الكلفوت. يحتج الوالي على عمل الشريف ويبرق للآستانة، وتدور المخابرات بين الباب العالي والأمير والوالي، والكلفوت في السجن يراه الناس فيه دون أن يعلموا بالمخابرات السرية الجارية، وأخيراً يعلم الشريف أن الآستانة مصرّة على اخراج الكلفوت وإن إصراره يفضح سرّه، فيتظاهر بالعفو عنه ويخرجه من السجن. والناس لا يعلمون أن خروجه كان بأمر الدستور. يغضب الوالي من تصرّف الأمير ويرفض العمل معه تحت ظل دستور غير محترم فيستقيل من وظيفته. فيعتقد الناس أنه عُزل عزلاً بسبب معارضته للأمير. فإذن الأمير فوق الدستور،

واذن الأمير يحكم برغم الدستور. واذن الدستور لا يحمي الناس من الجور. اذن فليحيى أميرنا. لا نريد دستوراً ولا نريد بأميرنا بديلاً[1].

وهناك حقيقة أخرى لا تخلو من الغرابة – ان بعضهم كتب عن الحسين اليوم غير ما كتبه بالأمس، وإن من يتصفح كتاب (ملوك العرب) للريحاني في سنة ١٩٢٢، وكتاب (نجد الحديث) لذات المؤلف سنة ١٩٢٨ يجد الفرق واضحاً. نعم، إن الحسين لم يحرز نجاحاً في سياسته مع ابن السعود، مما أخذه عليه حتى أنجاله أنفسهم. ومن المؤكد انهم فشلوا في ذلك. واستمر الحسين في سياسته المتصلبة إلى أن وقع الاصطدام بينهما. ولكن للحقيقة أقول : إن تصلّب الحسين كان ناشئاً عن اعتقادٍ جازم بأنه لا يستطيع التنازل عن أرض هي من صميم الحجاز.

وربما كان من سوء حظ الحسين، أن بزوغ نجم عبد العزيز كان في ذات الوقت الذي قصد فيه الحسين أن يؤلف اتحاداً عربياً يكون هو على رأسه. فقد اصطدم الرجلان عند محاولة تنفيذ هذه الفكرة. وكان قصد الحسين واضحاً جداً. أما عبد العزيز فكان لا يقبل الخضوع للحسين. ومن سوء حظ العرب أن سياسة هذين الرجلين العظيمين لم تلتق عند نقطة واحدة في سبيل النهوض بالعرب وجمع شملهم. ولو قدّر كلاهما الوضع العربي العام على حقيقته لتجاوزا قليلاً عما كانا يعتقدانه حقاً من حقوقهما الشخصية، واتفقا في سبيل الصالح العام. إذ إن الشك لا يخامرنا مطلقاً في أن بقاء الحسين على عرشه كان أجدى على القضية العربية عامة وقضية فلسطين خاصة، لما كان ينطوي عليه وجوده من نهوض بالمعنويات الوطنية. ولا شك في أن الانكليز كانوا سيواصلون السعي معه للوصول إلى تفاهم حول فلسطين، وعلى شروط كان يمكن أن تحول دون الكارثة التي حدثت عام ١٩٤٨.

(١) فؤاد حمزة، المصدر السابق، ص ص ٣١٧ – ٣١٨.

ويتحدث الملك عبد الله في مذكراته عن موقف الحسين من ابن السعود، مما يلقي ضوءاً على الموضوع فيقول:

كانت الفترة بين واقعة تربة وبين قدومي إلى شرقي الأردن، فترة اضطراب وقلق على الوطن ومصيره، وعلى النهضة وأتعابنا فيها، وعلى الوالد نفسه. فلقد وجدته بعد رجوعي إلى مكة – أي بعد واقعة تربة وفتح المدينة – على غير علمي بجلالته، وكان مرضه الذي توفاه الله به ابتدأه من ذلك الحين. فكان كثير الصلف، كثير النسيان، كثير التردد، قليل الاعتماد على من كان يعتمد عليه... وللمسألة خطورتها.

مثلاً كان يظن جلالته ان في توقيف بيع مواد الإعاشة على القبائل أو تحديدها، الزاجر لهم عن دخولهم في مذهب الوهابيين. فكان يمنعهم عن أخذ ما يريدون مع ان للبدو مواسم يبيعون فيها أغنامهم وابلهم ويبتاعون لوازمهم السنوية حال بيع ما عندهم. ويعودون بهذه اللوازم على ابلهم. فإذا لم يأخذ الرجل منهم ما يلزمه دفعة واحدة اضطر إلى أن يأتي مراراً. وفي هذا التعب العظيم عليه وعلى وسائط النقل التي هي الجمال، على بعد المسافات. وكان إذا جاءه أي خبر من أي ناحية وصادف هذا الخبر ظنونه، أخذ به وعمل بموجبه. ولهذا حفّ به الكثير من أرباب الفساد، فصارت لهم كلمة.

فحججت كسير القلب. وقد أنعم علي بقبضة من سيف مرصع كان لوالده المرحوم. وأحب أن يمنحني هذا السيف بعد الظفر في تربة، ولم تمنعه الهزيمة عن تنفيذ هذه الرغبة.

وبعد انتهاء الحج، أمرني بأن اتوجه بالقوات التي جاءت من المدينة المنورة مع الأخ علي إلى الخرما. فاعتذرت لعدم ثقتي بهذه القوة فغضب وأسمعني ما لم آلف منه من كلمات تقريعية شديدة. فتحملت وسكت.

ثم عزم الملك علي على تبديل الهواء بالطائف. وخرج معه مجموع ما جاء به من المدينة المنورة من قوات. واستأذن لي بالخروج معه فأذن رحمه الله فتوجهت. ولما وصلنا إلى ذات عرق تشرفنا بأمر ملكي خلاصته لزوم توجه

علي بخاصته إلى الطائف ولزوم توجهي بالقوات إلى الخرما. فكتب معتذراً ومصراً بأن لا أفعل. وأنني أنصح بترك أي تقدم على نجد قبل الاستعداد الذي يضمن النتيجة. وأضفت قولي إنني أذهب كجندي بقيادة أي شخص كان. ولكني لا أتحمل مسؤولية القيادة، ثم أُغلب وأُهزم. فغضب رحمه الله غضباً شديداً[1].

***

على أن الحقيقة استطاعت أن تجد سبيلها إلى التاريخ. وها نحن نجد في كتاب " قلب الجزيرة" ذاته، مايلي:

إن تاريخ حياة الشريف حسين بن علي، جدير بأن يكتب في عدة مجلدات، نظراً لما فيه من العبر والتجاريب. وما يحويه من وقائع يجمل بالأمة العربية أن تتدبرها في بدء نهضتها الحالية وجهادها المستمر للبلوغ إلى أمانيها العظمى [2].

-٢-

أول من كتب عن الملك حسين مؤرخاً- فيما أظن - هو امين الريحاني في كتابه ملوك العرب. وننقل عن كتابه هنا ما وصف به جلالته:

من عادة المصورين أنهم بصناعتهم يحسّنون في بعض الأحايين صور الناس. ويظهر عفواً في رسوم بعض الناس شيء من الحسن قلما يبدو في وجوههم. أما رسم الملك حسين الذي نُشر في أوروبا وأميركا أثناء الحرب فهو لا يشبهه، ولا يمثل ما في وجهه من البشاشة وقد مازجها شيء من الغم. ومن الجلال المقرون باللطف وليس فيه تصنّع واعتناء.

كنت أظنه من رسمه رجلاً قطوباً جافياً قاسياً. فكذّب ذلك الرسم الوجه منه والحديث. أجل إن في محيا الملك حسين سيماء جلال طبيعي لم أشاهد مثله في غيره من ملوك العرب. بل فيه تتجلّى روحانية شرقية قُرنت بالتأدب الغربي. ولا غرو، وهو من بني نمي من سلالة الرسول، وقد أقام

---

(١) عبدالله بن الحسين، مذكراتي، مصدر سابق، الصفحات١٦٣-١٦٥.

(٢) فؤاد حمزة، مصدر سابق، صفحة ٣١٦.

عشرين سنة في الآستانة. إن لحديثه إذن مصدرين من الأنس والكياسة: الأول أخلاقي نبوي والثاني اجتماعي اكتسابي.

وفي وجهه ما يفصح عن الاثنين مما غاب ويا للعجب في رسمه. فهو رقيق الأديم صافيه، عدل الأنف دقيقه، له جبين رفيع وضاح يظهر بكمال بهائه عندما يرفع العقال ويلبس العمامة. وفي ناظريه نور يشع من حدقتين عسليتين تحيط بهما هالة زرقاء. وله فوق ذلك ابتسامة ما عرفت أجذب منها للقلوب غير ابتسامة جاره عبد العزيز السلطان ابن سعود.

أما صوته فألطف من النور في عينيه. وأما أنامله فإن فيها دليلاً أفصح وأصدق مما في كتب الأنساب على طيب الأرومة والشرف الأثيل. وقد كبرت هذه المحاسن في نظري لأنها عارية من مظاهر الأبهة والجلال. فإنك لا تميز الملك عن أحد مشايخ العرب إذا كان مسافراً لولا عقال من الحرير الأصفر فوق كوفية أخف اصفراراً منه. وهذا العقال ارث ثمين، هو عقال بني نمي. عقال بيت الشريف، بل تاج الملك فيه. وإذا اعتمّ الملك فلا ترى فرقاً بينه وبين أحد الأعيان أو العلماء لولا ذؤابة عمامته البيضاء [1].

ويصف لنا رونالد ستورس في كتابه" المشرقيات" أول مقابلة له مع الملك، بعد أن جاء إلى الساحل الحجازي ثلاث مرات من قبل فلم يتمكن من ذلك. قال:

حال وصولي إلى جدّة يوم الاثنين في ١١ كانون الأول ١٩١٦ ذهبت وزرت الكولونيل ولسن في المفوضية. وعلمت منه أن الشريف وصل إلى جدّة أمس الأحد. وأنه ينزل في بيت محمد ناصيف. وأنه في ذات المساء استقبل الكولونيل ولسن والكابتن جورج لويد والكولونيل بريمون الفرنسي وبرنابي الايطالي.

بعد الظهر أرسل الشريف مرافقه الخاص ليرحب بي. وطبقاً للترتيبات

---

(١) امين الريحاني، ملوك العرب، مصدر سابق، ص ص٢٤-٢٥.

ذهبت مع الكولونيل ولسن إلى بيت محمد ناصيف، حيث رأينا الأنوار تزين مقدمة الدار وحولها جمع غفير من الناس.

هو أطول مما كنت أتصور، أما ألبسته فظريفة وبسيطة، تتألف من قفطان أسود فوق جلابية من الحرير الفارسي، وبدو منطقة، أما لباس رأسه فالعمامة الملكية الاعتيادية وتحتها طاقية صغيرة. لون وجهه جميل صاف. وتقاطيعه متناسبة معتدلة. وعيناه واسعتان لونهما بني تتفرّسان لأول وهلة، تحت حاجبين كثيفين فوقهما جبهة عريضة. أنفه قصير ودقيق مقوس فوق شفة مستطيلة، فمه مكتنز ولكنه بالنسبة للشرقيين غير كبير. وشفته السفلى بارزة وعريضة. أسنانه منتظمة لم يسقط منها شيء، لحيته غزيرة وغير طويلة، شهباء مائلة للبياض. يداه طويلتان وقويتان. وقد أخبرني – دون أن اسأله – أن عمره ثلاث وستون سنة.

أما الصفات السائدة في الشريف الكبير، فتبدو جلية في الاخلاص الذي ينطوي عليه نطقه الصريح، وبتصرفاته البسيطة السامية (١).

وفي كتاب " تذكار الحجاز" الذي وضعه الضابط عبد العزيز صبري وقد حج إلى مكة عام ١٣٤٢ (١٩٢٤م) ما يلي:

تحزلقت في ثوبي الخانق. وقصدت مع رفاق لي إلى القصر الهاشمي الفخيم، فأذن جلالة الملك بالدخول في حضرته، فأقبلنا عليه وهو واقف إلى مكتب يحمل طبقات كثيرة في صفوف من الكتب القيمة. ورحّب بنا بأحسن تحية واكرام وأدنى إليه مجالسنا. وهشّ وبشّ يحدثنا أحاديث الحكمة والسداد.

إنه متوسط القامة. واسع العينين جميل الحدقتين أقنى الأنف جليل الطلعة. في لحية بيضاء مرسلة ناصعة. هاشّ الملامح باسم الثغر في هيبةٍ وحزم. طويل النظر إذا حدّث، طويل الأناة إذا حُدّث، تلمح في ناظريه بريق الذكاء والدهاء وقوة العزيمة وحرارة الايمان.

---

(١) رونالد ستورس، مصدر سابق، ص ص ٢١٢ – ٢١٣.

يكاد يقطع العقد السابع من عمره المديد. في نشاط وخفة في أعضائه الرقيقة القوية التي يندر مثلها في الشباب القشيب[1].

-٣-

والحسين سريع الخاطر مولع بالنكتة، رغم ما أشاعه بعض المروجين عن تجافيه. وكثيراً ما يذهب بحديثه إلى معنى يجعله خاتمة طيبة لجدال عنيف أو معضلة مستعصية.

ويروي لنا الكتاب الرسمي، لتاريخ الحرب البريطاني عن الثورة في الحجاز، في عرض التفاصيل، ما يلي:

حينما بدأت تباشير العداء في ٩ حزيران، هاتف القائد التركي الحسين قائلاً:

لقد ثار البدو على الحكومة. أوجدوا حلاً للقضية.

فأجاب الشريف ولم تفته النكتة: بالطبع سنجد لها حلاً.

وأمر فوراً بالهجوم العام.

ويتحدث الينا رونالد ستورس في كتابه "المشرقيات" ما يحسن ايراده في هذا الباب، إذ يقول:

بدأت أنقل للملك رسائل المندوب السامي في مصر مع كل التمنيات بالنصر النهائي للعنصر العربي. فأوضح في جوابه أنه شديد التأثر بهذه العواطف. وقال إن السير هنري مكماهون مهما يكن مركزه في الامبراطورية سيبقى دائماً: نائب الملك الأول. ثم عقّب قائلاً: ولتبرير عملي سأمسك به حيثما صادفته هكذا. (وقد أمسك بطرفي سترتي) طالباً اياه للشهادة معي. وأكملنا حديثنا الودي بينما كان يدعوني على التعاقب: يا ابني، ويا عزيزي.

وكنت قبل مبارحتي لجدّة في زيارتي السابقة، كرّرت بالهاتف إلى مكة ملاحظاتي للأمير عبد الله بشأن اقتراح اعلان لقب الملك. وقد حذّرته أن

(١) عبد العزيز صبري: تذكار الحجاز، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٢٤. الصفحات ٧٧-٧٩.

خطوة كهذه ستصادف عقبات متنوعة كان ولا بدّ يعرفها سلفاً. ولا سيما لأنها ستُتخذ دون استشارة الحليفة الكبرى، كما انها ستربك كل المتهمين بها. وناقشته حتى أقنعته أخيراً بأن يؤجل المسألة حتى يأتي الوقت الذي تستحسن فيه حكومة جلالته اعلان مضامينه التامة. ولسروري بهذا النجاح أبرقت به إلى مصر. ولكن كم كانت دهشتي حينما وصلت إلى السويس وسمعت أن الشريف أعلن نفسه ملكاً منذ ثلاثة أيام. وبما أني كنت واثقاً بالصراحة والمودة التي تحيط علاقاتنا منذ بدء العمل – تملكني شعور الغيظ من هذه المعاملة. وعليه ففي زيارتي هذه إلى جدّة أخبرت جلالته بالأمر دون تخطّرٍ في الكلام فوضع يده على كتفي وأجابني بمثل عربي مسجوع:

ضرب الحبيب كأكل الزبيب، وحجارته رمان.

وجدت نفسي أقبل بهذه الترضية مرغماً، كتصفية نهائية لما كان. وأضاف الملك لما تقدم أنه كان خوطب رسمياً في المراسلات كخليفة – اللقب الذي لا يطلبه – وبما أنه حسب أن الكثير يتضمن القليل، رأى انه من الفضول أن يبلغنا عن عزمه هذا سلفاً(١).

وفي كتاب "ملوك العرب" للريحاني، نبذة لا بأس من نقلها، قال:

أما الملك حسين فلا الأصوات ولا الخيالات ولا بعبع السياسات يحدث فيه ما يعدّ عيباً في الرجال. إنه لشديد البأس ثابت الجنان. يوم ضرب الاتراك مكة والكعبة كانت تقع قنابلهم على قصره، وهو فيه ثابت لا يبالي أما الاتراك فهم في نظره مثل الحشرات والدبابات التي يرثي لحالها ويستخدمها أحياناً لترويع الناس. فقد علمت أنه شغف بها وبدرس أخلاقها وعاداتها. وقد يكون فيها فائدة خاصة لجلالته. لأنها بمساعدة الناظر الحضرمي تبدد الهموم الملكية، وتذبح الغم الأكبر الذي يتولاه لمجرد ذكر الانكليز.

جاءني أحد عبيده ذات ليلة يقول: سيدنا يبغيك. فأسرعت اليه. فإذا

---

(١) رونالد ستورس، مصدر سابق، الصفحات ٢١٣-٢١٦

بقنصل بريطانيا العظمى هناك. وبعد أن حدثنا ساعة عن الأبل والأهوية في الحجاز وعن البدو وعاداتهم، سألني قائلاً أتعرف أيها العزيز الضب، فقلت: في الكتب فقط يا مولاي. فقال سنريك الضب. وضرب كفاً على كف فحضر عبد من العبيد – هات الضب.

دخل العبد وبيده حيوان شبيه الحرباء، فأخذه الملك منه ووضعه على الديوان.

– هذا يا حضرة الفاضل الضب. وهذا ذنب الضب. قال ذلك وهو يربته بيده " أعقد من ذنب الضب " ترى أن المثل صادق، وذنبه هو سيفه ودرعه.

واومأ إلى القنصل أن تقدم وافحصه. فنهض ودنا من الضب. فأخذ الملك يده ووضعها على الذنب الشوكي وضغط عليها، فبدت في وجه القنصل علائم الألم. فضحك جلالته، واستأنف الحديث، هذا ضب صغير يا حضرة القنصل. وقد رأيت فيه ما يزيد طوله على الباع– كأنه ضب السياسة، والذنب كما ترى هو نصف جسمه، إذا ضرب به أدمى وقد يقتل خصمه بضربتين. أما هذا الصغير فلا شرّ فيه يُتقى ولا خير منه يرتجى.

ودخل اذ ذاك الحاجب ينبىء بقدوم الناظر الحضرمي. فقال الملك بلى، بلى، فيه خير – الضب – وهو يواري الحيوان تحت جبته.

دخل الناظر. فأشار الملك إلى مجلس قريب منه. وما كاد يتبوأ حتى مدت إليه يد الجلالة وصاحبها هادئ البال وفيها الضب. ووضعته في حجر الناظر المسكين، فصرخ وصاح صيحة طفل مرعوب. ووثب عن الديوان وثبة جاب فيها الباب، واصطدم بالحاجب هناك. فقهقه الملك وكاد يستلقي . وضحكنا كلنا ضحك الصبيان . وفينا الناظر الشاعر الذي كان جالساً متكتفاً على عادته. وقد كان يحاول اخفاء سروره في ابتسامة قيّدها التأدب. ولكن صيحة الناظر ووثبته فكتا منا القيود فتساوى في فترة بهيجة الملك والشاعر والعبد والمملوك. إلا أن جلالته كان أول من ثاب إلى الرزانة فخاطب الشاعر

موبخاً: لا حقّ لك انت بالضحك. ولا حقّ لك حتى تركب الطيارة، أو في الأقل الخيل. والناظر الشاعر يخاف ركوب الأثنين خوف زميله الحضرمي من الحية والضب[1].

-٤-

وهو صارم شديد الصرامة فيما يراه واجباً. أو فيما يراه شيئاً ليس من المستحيل القيام به. بل ويبلغ من شدته في المحافظة على جادة الاستقامة ما قد يكون فيه بعض الألم لنفسه.

تحدث الملك فيصل عن ذكرياته فقال: أذكر اني كنت أشرف مرة على تموين احدى الحملات، فجهزناها بما يلزم من البن والسكر والشاي والدقيق والسمن والأرز. ثم طلبتُ شيئاً من العدس. وكان الوالد رحمه الله يفحص كل شيء قبل الرحيل. وكان قاسياً في أحكامه. قاسياً والله. لا يريدنا إلا مثل البدو في عيشنا، فلا يكون لنا ما ليس لهم. فعندما جاء يفحص المونة وقف عند كيس العدس وسألني: ما هذا؟ فقلت عدس. فقال: وهل يأكل البدو العدس. قلت: لا. فقال: وهل أنت أحسن من البدو؟ وأمر بأن يُعاد الكيس إلى بيت المال. وما أذن لنا بالعدس. ولكن المرء لا يسأل وهو في الغزو.

والملك حسين مخلص لعروبته كل الاخلاص. محب للغته كل الحب. حتى إنه أقام في الآستانة قسماً كبيراً من حياته ولم يحسن التركية. وهناك استحضر لأولاده معلماً عربياً من سورية. كما أنه لم يكن يفرّق بين هذا وذاك، فقال في الأستاذ ابراهيم الدباس: هذا معلم أولادنا وأحفادنا.

وتحدّث الملك عبد الله في مذكراته، عن أنه خلال عودة الحسين من الحرب في عسير وقبل وصوله إلى الطائف، بلغه أن الشريف ناصر بن محسن كان قد أشاع أن الشريف قد هُزم وربما يكون قد قتل.

ولما وصل إلى الطائف. وإذا في مضارب المستقبلين هيئة الحكومة،

(١) أمين الريحاني، ملوك العرب، ص ص ٢٩ – ٣١.

ومعهم ناصر بن محسن هذا. فلما رآه أمر بإخراجه اخراجاً عنيفاً. فقال الوالي. عفواً يا سيدي فإنه قد جاء معي. فقال. وإن كان قد جاء معك؟ فقال الوالي انا ممثل السلطان. وهذه المعاملة تحقير للسلطان نفسه. فأجاب على الفور: هل تركتم ناحية من السلطان لم تحقروها. أنا ممثل السلطان هنا لا أنتم. ثم فتش الجند وركب إلى دارة الأمارة.

وبعد ثلاثة أيام وردت برقية من الصدر الأعظم يقول فيها:

بلغت المسامع السنية المعاملة الشديدة التي وقعت من ذاتكم الهاشمية على الشريف ناصر بن محسن. الذي هرع لاستقبالكم مع حازم بك والي الحجاز. وإن الرغبة السلطانية منصرفة إلى استدعاء الشريف المومى إليه إلى مقامكم السامي وتلطيفه وارضائه.

فأجاب : بما أن الأسباب الموجبة لما نال الشريف ناصر بن محسن من زجر واخراج، لا تتعلق بي شخصياً. فأنا لا أرى أن علي اظهار الندم على ما فعلت. وإن ما أشاعه المومى اليه من أخبار اضمحلال القوى التي كانت معي وابادتنا، لم يقصد منه إلا ايجاد حركة ثورية هنا أيضاً. فهو يستحق ما وقع عليه. وقد بلغني الخبر من مكتوبي الولاية. ثم جاء به الوالي. وهو يعرف ذلك، وما في هذا من المداهنة والفساد ليس من خلقي.

فجاء الرد على الفور من الصدر الأعظم يقول فيه:

إن الباب العالي لا يستطيع غض النظر عما في كسر الرغبة السنية التي تبلغتموها بالبرقية السابقة التي نؤيدها بهذه. مردفين انتظار جلالة السلطان النتيجة.

فأجاب على الفور:

إنني مع كرامتي لنفسي، الرجل الذي يُعتبر قاعدةً الثاني بعد ولي العهد في المكانة. ولا أظن أن الرغبة السنية تقصد الحط من هذا المركز القديم. والباب العالي – الذي لا يستطيع غض النظر عن نفوذ الذات السنية – كيف يوجه هذه التهمة الشائنة إلى رجل لم ينفض بعد غبار السفر عن رجله في مجد

السلطان؟؟ والباب العالي حرّ في ما يجب أن يفعله.

فسكت الباب العالي. ثم جاء الأمر من الآستانة إلى الوالي في عيد رمضان فقصد إلى دار الإمارة وقدم اعتذاره للحسين. ثم أعقب هذا ابدال الصدر الأعظم ابراهيم حقي باشا بسعيد باشا، فأبرق إليه يرجوه ملاحظة البرقيات المتبادلة بشأن هذا الحادث، فكان أن نُقل الوالي حازم بك عزلاً إلى ولاية بيروت. وعندها قال الأمير لنا: لو طأطأت رأسي لما أرادوا، لما رفعتُ هذا الرأس ابداً... [١].

وفي كتاب " فيصل الأول " للريحاني،، نبذة كما يلي:

جاء ذات يوم المعلم صفوت افندي العوّا يشكو فيصلا إلى أبيه – هو كسول يا مولاي، ومتأخر دائم في مثائله. وقد هددته بالقضيب إذا كان لا يجتهد مثل اخيه عبد الله. فقال الحسين: " اضربه يا بني ولا تخف ". ثم استدعى فيصلا إليه وقال له: يا فيصل إن كنت لا تجتهد في التحصيل اليوم تندم غداً. ولا تظن أنك شريف وأن هذا يكفي. الشريف يا ابني شريف بعلمه وعمله، شريف بأدبه وأخلاقه.

وتحدث الملك طلال عن ذكرياته فقال: –

كان سيدنا الكبير جلالة المنقذ هو الذي يعلمنا الخط ويكتب لنا القواعد ويباشر تصحيحها. وظلت أمداً غير يسير من بدء عهدي بالكتابة لا أميّز بين رسم الفاء والقاف. وجدي رحمه الله يلفت نظري دائماً إلى هذا الخطأ الكتابي الذي كنت أقع فيه. وخيّل إلي ذات مرة أني كتبت أسطراً بلغت فيها الغاية التي يريدني عليها جدي من حيث التمييز بين الفاء والقاف. وحملني سروري بنفسي لبلوغي ما أردت على زعمي، أن أعرض ما كتبته لساعتي على جلالة جدي، وكان قد دخل غرفته الخاصة المعروفة بالمخلوان. فتبعته اليها وعرضت عليه بكثير من الزهو والفخر، ثمرة دقتي ونشاطي، فهشّ

---

(١) عبد الله بن الحسين، مذكراتي، الصفحات ٦٨ – ٧٠.

بوجهي، وأخذ الورقة من يدي يصحّح ما لم تستقم لي كتابته من الحروف، وكنت طبعاً على غير علم مني، قد وقعت في أكثر من سطر، بغلطتي المعروفة وهي اللبس بين الفاء والقاف. فأخذ رحمه الله القلم من يدي وكتب لي سطراً مؤلفاً من كلمة "قلق" وأمرني بأن أتخذه مثالاً لرسم حرف القاف. فعلمت أني أزعجته في ساعة اختارها للراحة. ولم أعد لمثل غلطتي معه أبداً. وانسحبت للحال من حضرته السنية بكل أدب واحتشام، وأنا أتعثر باذيالي لفرط ما خامرني من ندم على ما كان من تسرّعي تسرعاً أقتضته الطفولة. وأظنني مدين بالجم الكثير لهذا الحادث الذي لا يبرح مخيلتي، وما تنفك تفاصيله ماثلة لعيني كلما اعتزمت أمراً[١].

-٥-

وهناك كتاب آخر هو "ما رأيت وما سمعت" لخير الدين الزركلي. ويحتوي على كثير من المعلومات عن أحوال الحجاز. أقتطف منه ما يلي:

المخلوان غرفة صغيرة، في جانبها الأيسر هاتف، وفي وسطها بضعة كراسي خيزران، ينحرف داخلها إلى يساره فيرى أمامه دكّة مستطيلة. في صدرها نافذة كبيرة تطل على الشارع وعلى تلك الدكة يجلس جلالة الملك وبين يديه منضدة صغيرة عليها دواة بلورية، وقلم من نوع القصب المعروف في بعض سورية باسم "الغزار".

دخلت على جلالة الملك فنهض قائماً فأقبلت على يده أقبّلها، وكان أول ما كلمني به جلالة الملك قوله: بلادكم يا ابني، هذه بلادكم يا ابني. فدعوت له وأمرني بالجلوس فجلست.

للملك حسين في مكة قصران فخمان متقاربان، أحدهما حديث العهد بالبناء، جميل الطراز مفروش بالأثاث الفاخر، يبيت فيه، وهو مقر حرمه المصون. والثاني قديم البناء ضخم الحجم أوسع دائرة وأكثر غرفاً وأبهاء من الأول، يقيم نهاره فيه والهزيع الأول من الليل.

---

(١) مصطفى وهبي التل وخليل نصر، طلال، مطبعة الأردن، ١٩٤.

ولا يقتصر الثاني على كونه مقام جلالة الملك، بل هو ثلاثة أقسام أو أربعة، وإن شئت فقل خمسة في خمس طبقات، لا يقل ما فيها عن مائة غرفة، وقد قيل لي أنها مائة وعشرون. وهذا القصر هو المعروف عند أهل مكة بدار الحكم (أو سراية سيدنا). وأما الأول فاسمه في مكة (بيت سيدنا).

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن غرف القصر ومن يقيم فيها، وعن مولد جلالة الملك ونسبه. إلى أن يقول:

ومارس ركوب الخيل فأُولع بدخول ميادين السباق. وعُرف بالقوة والمقدرة على ركوب أقسى الجياد وأصلبها. حدثني من لا أشك بخبره أن الملك لم ينفك يبارز أشد الفرسان طراداً حتى شغلته مهام الملك. ولقد رأيته ذات يوم واقفاً يريد الركوب، وثلاثة عبيد من الأشداء الأقوياء يقدمون جواداً كلما خطوا به خطوة ثار وشخر وانتفض. فلم يزالوا يغالبونه حتى اقتربوا به من موقف الملك وهو الشيخ المسنّ فتقدم من الجواد فوضع إحدى رجليه في ركابه ووثب وثبة غير المبالي. فعاد الجواد إلى زمجرته وزهوه. فلم يكن من الملك إلا أن لطمه بقبضة يده لطمة واحدة في عنقه فذل الجواد ومشى هادئاً كأنما أُبدل بغيره.

وحدثني من رأى الملك في موسم الحج فقال: كان راكباً جواداً أبيض. وعليه لباس الأحرام الأبيض وهو مكشوف الرأس اللامع شيبا، أبيض الوجه واللحية والشاربين فقال: كان ذلك منظراً عجيباً.

وتمكن منه في ايام صباه حب اصطياد النمور والضباع والغزلان، وقنص كواسر الطير وبواشقه. فكان يكثر من التجوال في رفقة له يرحلون لرحيله وينزلون لنزوله. فيتوغل في الجبال النائية والقفاز الخالية ويعود بعد أيام أو أسابيع حافل الوطاب تتبعه غنائمه من وحش وطير.

وفي نفس الملك حسين قوة وصلابة ليس من السهل التغلب عليهما. وهو عنيد شديد لا ينقاد بالعنف ويصعب أن ينقاد باللين. وقد ظهرت صفاته

هذه بارزة مجسّمة منذ ولّي أمارة مكة وحط في أم القرى رحاله، فإنه طـــارد خصومه، وتسلم مقاليد الأمور بسهر دائم ويقظة وتحفظ.

وهو شديد مع أولاده متصلّب. قال الأمير عبد الله: لقد ربيت في حجر والدي، وما أعلمه والله قبّلني يوماً لا طفلاً ولا ناشئاً، ولا قادماً ولا مودعاً.

ومن أثبت الأدلة في صلابة نفسه وثباته ما شاهدناه بأنفسنا. فإن نار الاتراك استمر انصبابها من أفواه المدافع والبنادق على القصر الهاشمي خمسة وعشرين يوماً، والشريف مثابر على عادته في الجلوس به. ولم يغير مجلسه ولا اختار غير غرفته الخاصة المعروفة حتى الآن باسم (المخلوان) يمكث بها وفي ردهة القصر سحابة النهار والربع الأول من الليل، يتحدث مع من عنده ويضع الخطط لاتمام العمل، حتى أن الناظر إلى غرفته (المخلوان) إذا حقق النظر فيها، لا يتمالك من الدهشة حين يرى أبواب نوافذها وسقفها ومنصتها. وفي الجميع آثار الشظايا والعيارات النارية، التي كانت تتساقط بغير نظام. ولقد دخلت إحدى القنابل غرفته وهو جالس فمرّت على قيد شبر من مجلسه فاخترقت أساس الغرفة، وهو لا يعبأ بها، وأكّد لي أحد من حضروا تلك المواقف أن موسيقاه الخاصة لم تنقطع عن العزف في أوقاتها يوماً واحداً، وأن قنبلة سقطت عشية يوم بالقرب من العازفين، فانفرط عقدهم وجلين، فأمر الشريف بأن يرجعوا إلى عملهم، ولو ماتوا كلهم، فعادوا وأتموا ما بدأوا به تحت خطر القنابل.

والملك حسين أشد الناس محافظةً على خطة، ومثابرة على عادة، واسترسالاً في سبيل. حدثني أحد من عرفت بالصدق في مكة. فقال: عرفنا سيدنا أميراً وملكاً فإذا هو واحد في إمارته وملكه. أمضى ثماني سنين في دار الإمارة وسنيناً في قصر الحكم لم يتخلّف عن الجلوس للناس إلا يومين اثنين منها لمرض شديد أصابه. وهو لا ينام أكثر من ست ساعات، بل قد تنقص ساعات نومه عن هذا المقدار.

ينهض قبل الفجر فيتوضأ، ثم يصلي، وربما نزل إلى الكعبة فطاف حولها والناس نيام. وتطلع الشمس وهو في قصره (بيت سيدنا) فيتناول طعام الفطور وتمر خيله الخاصة فتعرض أمامه وهو يفطر. ولقد قال يوماً: إن منظر هذه الخيل ليعجبني ويروقني حتى لأكاد عند رؤيتها أن أنسى الدنيا وما فيها.

وينزل بعد ذلك من قصره فيركب بغلةً أو جواداً ويأتي (دار الحكم)، والمسافة بين الدارين قريبة جداً فيستريح قليلاً في المخلوان. ثم ينهض إلى المجلس العام فيتصدره ويأذن لمن شاء بالدخول. فيتوافد الناس وأكثرهم بل كلهم من البدو، لأن الحضر قلّ أن يراجعوه في شؤونهم لمعرفتهم بأساليب مراجعة الحكومة. فهم يراجعون نائب رئيس الوكلاء الذي هو قاضي القضاة الشيخ عبد الله سراج، أو يراجعون رئيس البلدية أو مدير الشرطة وذلك كله في (سراي الحكومة) على مدخل حارة جياد. وقد كانت هذه السراي مقر الولاة في أيام الترك.

حضرت يوماً مجلس الملك العام، وعنده بدوي أكمل حديثه وخرج. فأدخل الحاجب بدوياً آخر تقدم من الملك فأهوى على يده ثم على ركبته تقبيلاً، وتقهقر وجلس في منتصف المكان على الأرض، رافعاً إحدى ركبتيه وطاوياً الثانية تحته، وفي يمناه خيزرانة يشير بها وهو يخاطب الملك. فقص قصته وخلاصتها أنه بينما كان يرعى إبله وراء شعب من الشعاب إذ خرج عليه ثلاثة رجال أرادوا سلبه الإبل، فامتنع فأطلقوا عليه النار من بنادقهم فأجابهم بمثلها. وتحصن وتحصنوا. وانتهت الحادثة باستيلائهم على جملين والنجاة بهما. وكان الملك مصغياً اليه كل الاصغاء. وهو طوراً يخاطبه بسعادتك، وتارة سيدنا، وحيناً بضمير المخاطب المفرد. والخيزرانة في يده يقلبها ويعبث بها. ولما انتهى صفق الملك بيديه فجاء سهد الحاجب، فأمره بأن يذهب إلى قائمقام القصر (وهو أحد الأشراف) وأن يبلغه وجوب إرسال من يقص أثر المعتدين على الشاكي ثم يعلمه النتيجة. وانصرف البدوي بعد أن قبل يد الملك وركبته مرتين مرتين.

وهكذا فإن جلالة الملك يمكث في هذا المجلس إلى ما بعد الظهر، ثم

يصلي وينصرف إلى المخلوان، فيتمدد ويرتاح إلى العصر. ثم يأخذ بقبول فريق من الناس، ممن يدعوهم أو يرغب في مذكراتهم ببعض الشؤون. وإن كان ذلك اليوم موعد وصول البريد المصري خلال جلالته بنفسه، يقلب صفحات ما يحمله اليه من صحف ورسائل، فيشغله ذلك إلى قبيل الغروب. ويصلي المغرب بعد ذلك خلف إمامه، في المصلى الذي كان قبل الظهر مكان جلوسه للنظر في المظالم واستماع الشكايات. ويعود بعد الصلاة إلى المخلوان، فيأتيه طاهيه الخاص بصينية فيها شيء من مرق اللحم أو الشوربا، وأنواع يسيرة من الطعام يأكل منها ما تميل إليه نفسه. ونحو الساعة الثانية بعد الغروب يدعو إليه من في غرفة الانتظار من الزوار، فيجلسون عنده نحو ساعتين ثم يخرجون. فيصلي العشاء منفرداً أو خلف الإمام. ويسري إلى بيته الخاص حيث ينام.

-٦-

وهو يعفو عندما يرى العفو دليلاً على المقدرة، ويعاقب حينما يرى العقاب زاجراً عن الغي.

وقد ذكر الفريق كلوب في محاضرة عن الفروسية العربية، ألقاها في قاعة الجمعية الآسيوية الملكية بلندن عام ١٩٣٨ – أن الملك عبد الله روى له الحادث التالي:

عندما كان الملك الراحل الحسين شريفاً على مكة، كانت السلطة على البدو بيده رغم حكم الاتراك. وفي يوم من الايام بينما كان مع نجله الأمير عبد الله سائرين مع قافلة في الصحراء، أراد الشريف أن يسبق القافلة ليختار محلاً لاقامة الخيام. فذهب ومعه ولده حتى وجدوا محلاً مناسباً تحت شجيرات. وكانت بجانبهم ابل ترعى حماية ولده واخته الصغيرة. وكعادة العرب سأل الشريف الولد إلى أي قبيلة ينتمي، فأجاب الصبي: من البقوم. فقال له الشريف: ألا تخاف أن ترعى على حدود بني عتيبة الذين قد يأخذون ابلكم؟ وكان الصبي منبطحاً على ظهره يلوح بقدميه في الفضاء، فأجاب ايها الشيخ المجنون أنت لا تفهم. فأجاب الشريف قد أكون مجنوناً ولكني لم

أعرف السبب بعد. فأجاب الولد قائلاً: ألا تعلم أنه ما دام الحسين على السرج فنحن لا نخاف الغارات! وعند هذا الحد أقبلت القافلة فعرف الولد أن الذي كان يكلمه هو الشريف حسين ذاته، فخاف كثيراً، ولكن الملك المرحوم طمأنه وسُرّ من هذه الشهادة غير المقصودة. وبقي كل سنة يطلب الولد واخته إلى مكة ويعيدهما إلى أهلهما مع النقود والملابس.

وهناك حادثة أخرى تدل أبلغ الدلالة على ما في نفسية الحسين من حب التربية على وجه فيه من الفائدة أضعاف ما فيه من العقاب:

رسى الاسطول الانكليزي ذات يوم في مياه جدّة وكان حديث الناس. فقال أحد الظرفاء بل البسطاء أن الاسطول الهاشمي أكبر وأعظم منه. ولو لم يكن كذلك لما جاء الاسطول الانكليزي مسلماً موالياً. فوصلت الكلمة إلى جلالة الملك، فطلب الرجل إلى مكة. وأنزل السجن عند وصوله اليها. فبقي فيه أربعة اشهر دون أن يعرف ذنبه، ثم جيء به إلى حضرة صاحب الجلالة المنقذ الأكبر. فقرصت اليد الملكية اذن ذلك المسكين وأسمعه اللسان الملكي من الحكمة ما يعينه في المستقبل على حسن الكلام في الحكومة الهاشمية أو في أسطولها.

والملك كريم النفس والمعشر. يحتفي بضيوفه ويبالغ في اكرامهم إلى أقصى الحدود، روى لورانس في كتابه " أعمدة الحكمة السبعة" عن أول زياراته للحجاز قائلاً:

قرع جرس الهاتف، وإذا بالشريف يدعو ستورس لمخاطبته. وقال سأله فيما إذا كنا نود الاستماع إلى الموسيقى. وفي دهشة سأل ستورس، وأي موسيقى؟ فأخبره الشريف أن قيادة حكومة الحجاز التركية كان عندها آلات موسيقية من النحاس يعزفون عليها كل يوم أمام القائد العسكري. وحينما استسلم القائد في الطائف إلى الأمير عبد الله، وجدت هذه الآلات هناك. فنقلت إلى مكة مع غنائم الحرب.

ووضع الشريف مقبض الهاتف على الطاولة في قاعة الاستقبال بمكة.

ورحنا نتقدم بوقار واحداً بعد واحد إلى الهاتف لنسمع الموسيقى في القصر على بعد خمسة واربعين ميلاً. وقد أثنى ستورس على هدية الجنرال التركي فزاد الشريف ندى، وقال أنه سيرسل الجوقة إلى جدّة لتعزف لنا في الساحة. وأبدى رغبته في الاستماع لها من الهاتف لمشاطرتنا سرورنا. وهكذا كان.

ويقول ستورس بعد أن يصف ما لاقاه من ترحيب الملك وحرارة استقباله له:

أرفقني الملك بعدما ودعته بسكرتيره الخاص، وقد تأثرت جداً حينما وجدت على الرصيف عدداً من حرس الشرف حضروا لأداء التحية لي. وقد علمت أنهم كانوا من بلاد مختلفة من جاوه والصومال وبخارى والقدس وبغداد والحبشة ودمشق.

وقد يذهب في هذا إلى أكثر مما درج عليه العرف، من ذلك ما رواه ستورس:

بينما كنت مسافراً للمرة الثانية إلى الحجاز في النصف الأخير من أيلول ١٩١٦، وصلت برقية – ونحن في عرض البحر – من الشريف إلى الاميرال ويمس يدعوه فيها إلى مأدبة في جدّة مساء الغد. ولما لم يكن الأميرال حاضراً فقد رأيت من المناسب أن أرد عليه انا. وهكذا ذهبت إلى الهاتف وطلبت مكة العدد الأول. وبعد وقفة قصيرة، ميزت نبرات صوت الشريف الأكبر نفسه. فحياني بتحيات حارّة ودعاني مرحباً إلى جدّة، وسألني فيما إذا كان الأميرال سيقبل ضيافته. وفي هذه البرهة ظنّت في السلك بعض الأصوات، فقلت اني أظن أن دورنا قد انتهى لأن أحدهم يقرع الجرس. فقال لي أن شيئاً كهذا يعدّ شيئاً مستحيلاً في مكة. فأجبت إني لا أدري من أية ناحية صدر الصوت ولكني متأكد أنني سمعته، وسألته فيما إذا كان سمعه بدوره فأجاب بالايجاب. وفي ذات اللحظة سمعته يدعو ادارة الهاتف المركزية ويأمرها بأن تقطع كل محادثة في الحجاز ما عدانا لمدة نصف ساعة. وقد حصل هذا حالاً فتحادثنا في سكينة تامة.

ويقول ستورس أنه في سنة ١٩١٩ حينما قابل الملك جورج الخامس وروى له هذه القصة قال: إنني لا استطيع أن أعمل هذا في لندن.

-٧-

ويصف لورانس في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) الملك حسين وسياسته فيقول:

وهذا التعلق الشديد الذي تبديه القبائل للشريف حسين وأولاده، خير دليل على عصاميتهم. ذلك أن مظاهر الشريف حسين هي من اللطف والدماثة بحيث تبدو كأنما هي ضعف فيه، بينما تخفي وراءها مرونة سياسية وطموحاً عميقاً، وبعد نظر لم يتصف به العرب. مضافة إلى طباع قوية وتشبث شديد بالرأي. ويبدو أن اهتمامه بالنشأة الفطرية ساعد على انماء عواطفه الطبيعية وجعله يبدو كواحد من أمراء العرب الأقدمين.

وربما كان خير دليل على حكمته الواسعة، مسلكه مع أولاده، فالسلطان أرادهم أن يعيشوا في الآستانة على الأسلوب التركي، لأنه كان يرى في ذلك تربية وطنية شاملة. ولكنهم حينما عادوا إلى الحجاز كأفندية صغار يرتدون الملابس الأوروبية، ويتصرفون تصرفات الاتراك – أمرهم أن يرتدوا الثياب العربية وأن يتمرنوا على اللغة العربية، ثم أرفقهم بأصدقاء من البدو وأرسلهم إلى البرية لحراسة قوافل الحجاج.

وكانوا كفتيان يحسبون أنها رحلة طريفة، ولكن الحقيقة صدمتهم حينما حظر عليهم الطعام والفراش والحشايا اللينة، ولم يدعهم يعودون إلى مكة بل أبقاهم خارجاً طيلة شهور عديدة في كل الفصول يحرسون الطرق ليلاً نهاراً، ويأخذون من عادات كل رجل ويتعلمون أساليب الحروب، وسريعاً ما اشتدّت أعوادهم وأصبحوا كثيري الاعتماد على أنفسهم.

ويقول في مكان آخر: أما التعصب الديني فقليل الأثر. وقد رفض الشريف أن يجعل لثورته لوناً من الدين فالقومية مذهبه في الحرب. ومع أن البدو كانوا يعرفون أن الترك على دين الاسلام، فما كانوا يترددون في محاربتهم إلى جانبنا. وكانوا يقولون: إذا كان المسيحيون يحاربون المسيحيين، فلماذا لا

يفعل المسلمون ذات الشيء؟

ويتناول جورج انطونيوس الحديث عن نهاية الحسين فيقول : بقي الحسين في قبرص حتى عام ١٩٣٠، إذ أصابه داء في أواخرها، وكان إذ ذاك في عامه الخامس والسبعين، فسمح له بالذهاب إلى عمان لينهي أيامه قريباً من أبنائه. وقد توفي في حزيران ١٩٣١، شيخاً حزيناً تملأ قلبه المرارة ولكنه غير نادم ولا متردد. وقد يجد تاريخه إنصافاً من الأحفاد أكثر مما وجد من معاصريه، هذا عندما تتبين جميع الحقائق. لأنه بالرغم من أخطائه فقد كان له من قوة النفس واستقامة الخلق ما يبرهن على عظمته. وإذا صحّ أن خلق الانسان يدل عليه أكثر مما يدل فشله، فالحسين يستحق اعجابنا وانعطاف قلوبنا. ومهما تعدّدت أسباب سقوطه فإن أحد هذه الأسباب نشأ عن اصراره في التشبث بآماله ومعتقداته. وسبب آخر يعود رأساً إلى رفضه الموافقة على ما كان يعتبره خيانة. **وهناك قليل من الشك في أنه لو وافق على توقيع المعاهدة وبحسب النصوص التي وصلتها المراحل الأخيرة من المفاوضات – لاحتفظ بعرشه وأنهى حياته في اطمئنان. ولكن بسبب وفائه لعقيدته وضميره، فقد صمد وناضل عن القضية العادلة للشعب الذي كان يمثله. وأدّى هذا إلى نفور حلفائه وأنفضاضهم عنه، حتى إذا وقعت الواقعة ألفى نفسه وحيداً وبلا صديق.**

ويذكر ستورس في كتابه، طرفاً مما كان يحيط به في قبرص فيقول:

يمكن أن يُقال أن السرور الذي كان لا يزال يداعبه في حياته – بقبرص– لم يكن يصدر إلا عن الثلاثة جياد العربية الجميلة التي أحضرها معه. وكانت – زهرا – ألطفهن وأجملهن، فقد كانت تهرب من الحديقة وتصعد على الدرجات الرخامية وتسير بدون تردد إلى السلاملك (قاعة جلوس الرجال) حيث كان يقابلها مرحباً: أهلاً، ما شاء الله – الله وأكبر. أو: قرّبي يا بنت عمي. وكان الملك يدعوها – قرّة العين – ويقدم لها البلح الذي كانت تمضغه ببطء وتقذف بزره في طبق هناك.

وشد ما آلمني أنه جاء في صباح أحد الأيام إلى دار الحكومة وطلب أن يقابلني على الفور، فلما جئت رمى بنفسه في أحضاني، ورأيت الدموع تنهلّ من عينيه، وحينما استفهمته عن السبب قال: - إنه طرد سائس خيله منذ بضعة أيام وعين آخر بدلاً منه، ولكن الأول هبط على الاصطبل وشق بمديته أحشاء زهرا واخواتها، قاصداً أن تتحول التهمة على السائس الجديد، وحينما جاء في الصباح وجد كل شيء قد انتهى.

-٨-

وفي الملك ناحية أخرى جديرة بالتأمل إلا وهي الغموض والابهام. وقد قيل أنه حمل معه هذه العادة من الآستانة. ولكن الراهن الجلي أن الغموض سواء في مراسلاته أو أحاديثه، لم يكن إلا نتيجة طبيعية لما عاناه من السياسة الخاطئة الأولى والثانية. فقد تآمر عليه الاتراك وحاولوا معاقبته، وغدر به الانكليز.

يتحدث إلينا ستورس في كتابه عن هذه الناحية فيقول:

"وبينما كنت أجاهد لحل رموز رسائل الملك المعقدة، وأكثر من ذلك اسلوبه العربي العسير، وجدت نفسي أنشد متذمراً بيتاً من الشعر الانكليزي: -

في المعاملات التجارية يكون خطأ الهولندي

ببذل أقل القليل وطلب أكثر الكثير.

لأنه كان يطلب (باستثناء عدن) استقلال جميع الناطقين بالعربية في جنوب غربي آسيا".

ولا شك أن هذا ما كان يضيق به الانكليز أشد الضيق. وفي مكان آخر يقول: ومع أن تحارير الملك حسين كانت كثيرة الابهام، إلا أنها لم تكن تخلو من حسن التصوير: "من خصوص أولادي، لا يزال عبد الله في الطائف يحاصر الاتراك هناك، مؤثراً الحصار على اهراق الدماء، بينما أولئك كالضب الذي انكسر ظهره"[١]

---

(١) رونالد ستورس، مصدر سابق، ص١٧٧ In Matters of commerce the fault of a Dutch Is in giving too Little and asking too much

ويتحدث الينا الريحاني في كتابه "ملوك العرب" عن هذه الناحية فيقول:

خبرت بنفسي ما لجلالته من القوة في التعقيد. والبراعة في التورية والابهام. بل هو يطوف حول نقطة سبع مرات كأنها الكعبة ولا يلمسها. فيدنو منها اضراراً في بعض الاحيان، ثم ينقلب عنها مبعداً مسرعاً، وجليسه يعدو مبارياً. وقد اعتراه من التطواف الدوار. يدق رأسه بالحائط أو يصطدم بباب في هيكل الأسرار. فيلتفت ليرى أين هو من صاحب الجلالة، فيراه. وآسفاه بعيداً، ويقف خجلاً مبهوتاً لا يدري ما يقول.. والمصيبة في السكوت مثلها في النطق. فإذا قال: فهمت يا مولاي كان من المجاملين. وإذا سكت ظن سكوته استهجاناً. فيهز برأسه تخلصاً من الاثنين، وينتظر الفرج من غوامض الحكمة في بوارق الختمة.

أجل إن لمولاي صاحب الجلالة الهاشمية والغوامض السياسية، وقفات في حديثه تذري بالفصاحة والبيان، وإشارات تفكّ طلاسم الكهان، ونظرات تقيد منك العقل والجنان. يبسط يديه اشباعاً إذا أحسّ من نفسه أنه أفحمك، ويضمهما إلى صدره تلطفاً إذا توقع منك جواباً. ويعالج عقاله أو يحرك عمامته إذا رأى منك فتوراً أو دبوراً. ويغيّر جلسته على الديوان إذا أوجس فيك الملل. فماذا تهمك معانيه ومقاصده وهو أمامك السحر الحلال مجسداً؟

- البدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء ولكنهم صادقون. أقول صادقون. وهم يرعون العهود. في صوت الملك حسين الدمقسي خفوت تضيع عنده الكلمة فيعيدها مثبتاً ممكناً - أقول يا حضرة النجيب - هكذا يتكلم[١].

-٩-

نقل الضابط عبد العزيز صبري في كتابه " تذكار الحجاز" حديثاً للملك عن السياسة، فقال:

---

(١) أمين الريحاني، ملوك العرب، مصدر سابق، الصفحات ٢٧-٣٢.

يرموننا بالخروج على دولة الخلافة وخيانتها. وقد خرج معنا عليها جميع المسلمين في الشرق والغرب، في مصر وتونس والجزائر ومراكش وافريقيا كلها والهند وغيرها من البلاد الاسلامية، التي انساقت إلى محاربتها بعامل القوة الاستعمارية. ولم نحارب نحن خوفاً أو خيانة كما يدعون. بل دفعنا الجوع والامحال عامين كاملين وبعض الثالث، فاستنجدنا بحكومة دولة الخلافة ولا من منجد أو مغيث. فقمنا مع الذي عاهدنا على نصرة قضيتنا الحقة ضد قاتلينا ومعذبينا. وكيف لا نقبل الطعام واليد الممدودة بالنجدة لنا، وما مددنا أيدينا لنعاهدها على مؤازرتنا في نهضتنا، إلا بعد أن بقيت ممدودة إلى حكومة الخلافة ثلاثة أعوام، نربط على قلوبنا من الجوع وعلى ظهورنا من الاذلال والارهاق. قمنا نطلب غاية محدودة، ولكن غيرنا حارب الجيش التركي لغير غاية معينة. وما حاربنا جيش الاتحاديين الظالمين إلا بعد أن أرهقوا كواهلنا بأحمال الرق والاستبداد. فاحتقروا العرب ولغتهم وقوميتهم وحريتهم وأقاموا على انقاض الجامعة الاسلامية بناء (الوحدة الطورانية) وأمعنوا في العرب قتلاً وشنقاً وتشريداً وتعذيباً وجلداً وسجناً، فقتلوا نخبة شباب الشام وجلّة وجهاء العراق. وارتكبوا المخازي جهرة اذلالاً واعناتاً حتى طفح الكيل. فنهض العرب نهضتهم الكريمة ووثبوا وثبتهم البعيدة، فتخطوا رقاب المظالم إلى غاية السعادة والأمان. وماذا جنى الاتحاديون من مؤامرتهم على سلامة الدولة وهي في أشد حالات ضعفها؟ وطالما بعثت إليهم بالنصيحة تلو النصيحة أدعوهم لتخليص أذهانهم من الكابوس الالماني في أحلامهم المتخومة. ولكنهم أصروا على انفاذ خطتهم المرسومة بغير تفكير ولا مبالاة ولا نظر إلى العواقب. فاستحكمت حلقات الحصار علينا من البر والبحر، فلم نستطع مخرجاً من الضيق ولا باباً من الحريق. وعدونا وعدوهم يومئذ يشتد في تضييق دائرة الحصار علينا لما يعلمه من فقرنا وعجز (اخواننا) عن نجدتنا. وقد صدق فأله وخاب فألهم، وذهبت المجاعة منا بالخف والحافر، ونحن محصورون في بلادنا، بوادٍ غير ذي زرع، حتى طاب لي وأهل بيتي أكل الدخن والشعير. وضاقت بنا الأرض بما رحبت، واشتد بنا الكرب العظيم. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وما بلغ جلالته إلى هذا الحد من الحديث، حتى تهدج صوته من ذكر الألم، واضطربت أنامله من الغضب، ولكنه تمالك جأشه واستقرت على محياه ملامح العزم والاباء.

ثم استطرد قائلاً وعلى شفتيه ابتسامة مرة: - وكان عدو الاتراك مع ذلك لا يني في دعوتنا إلى خلاص الأمة العربية. وتحقيق آمالها وانقاذها من وهدتها. وما زالت رسل هذه الأمة المضطهدة تفد إلي من الشام والعراق تحمل صيحات الاستغاثة والاستصراخ. ولم يعد في قوس الصبر منزع. وأين أجد خلاصي يوم القيامة من ربي إذا سددت اذني عن سماع أنين الأمة المعذبة، وأسباب الانقاذ مهيأة لنا في كف (اعدائنا)؟ فهل كان ينبغي لنا أن نرفض معونتهم لكي نموت جوعاً فداء المطامع الالمانية والمصائب التركية؟.. ثم يقولون بعد ذلك أننا خرجنا على دولة الخلافة خائنين... كلا وألف مرة كلا. لم نكن خائنين. ولكنا كنا جائعين يوم كنتم انتم وغيركم خائفين مستضعفين. وشتان بيننا وبينكم في الحساب. والمثل يقول أن لا شجرة تغني عن ثمرة.

أتدرون ما كان يطلب الاتحاديون ثمناً لطعامنا الموعود... طلبوا جيشاً عربياً لا يقل عن عشرين الف مقاتل نجهزهم بخيلهم وكسوتهم وعدّتهم ليحارب جيوش الروس في ثلوج القوقاس، وإن لم نفعل (وما فعلنا) فقد حكموا علينا بالخيانة والخروج، وصدر الأمر بعزلي، وهبّوا لتأديبي، وأنفذوا غير هذا من حاول أن يصيب مني غفلة للغدر بي، فبلغ السيل الزبى.

أما ما يعيروننا به من الاغترار بوعود الحلفاء المكذوبة، فإنه ليس ذنبنا ولا أحيد عما عاهدوني عليه قيد شعرة. وهو الاستقلال التام لجميع البلاد العربية في دائرة حدودها التاريخية[١].

-١٠-

وبعد، فهذه سيرة رجل عربي، يمكن مقارنتها بسير أعاظم رجال الأمة

---

(١) عبد العزيز صبري: مصدر سابق، الصفحات ٨٦-٨٩.

العربية في تاريخها الطويل، قدمتها دون تنميق أو مغالاة، مقتصراً على المهم من الأحداث.

ومهما قيل في أعمال الحسين وتصرفاته، ومهما حاول بعض المؤرخين غمط الأهمية المثلى لجهاده، فكل ذلك لا يطمس حقيقة واحدة من الحقائق الكثيرة التي حلفت بها حياته... الحقيقة القائلة أنه ضحّى بملكه وبلاده في سبيل قضية العرب عامة وقضية فلسطين خاصة.

وأبرز ما في حياة الحسين، عناده الشديد في المطالبة بحقوق قومه، ذلك العناد الذي لم تزعزعه أشد التجارب هولاً. لقد قال بصدد قضية العرب... **اعلموا أنها حركة عليها نحيا وعليها نموت**... وهو قول قدّم عليه أصدق البراهين.

وأعتقد أن القارئ العربي سيشاركني الفخر بهذا الرجل المؤمن بحق قومه، الصابر على الضيم دونهم، الرجل الذي لم تبهره زخارف الملك الوقتية عن التطلع بعين المستقبل للتضحيات التي يتوجب على الأمة العربية تقديمها... فكان في ذلك سباقاً مجلياً.

رحم الله الحسين فقد كان عربياً مؤمناً بعروبته، مجاهداً قوي العقيدة في جهاده، خطا بالقومية العربية خطوة واسعة بعدما كبت بها الصروف خمسة قرون متوالية. وضرب لنا مثلاً أعلى في التضحية والاخلاص.

ولا شك أن الأمة العربية ستحقق قريباً ما تصبو إليه من حرية واتحاد – هذين الهدفين الغاليين اللذين ناضل الحسين في سبيلهما واستشهد دونهما.

انتهـى

أهم المراجع والأسانيد

ملوك العرب	المؤلف	امين الريحاني
تاريخ نجد الحديث	المؤلف	أمين الريحاني
ملوك المسلمين ودولهم	المؤلف	امين سعيد
الثورة العربية الكبرى	المؤلف	امين سعيد
الجزيرة العربية في القرن العشرين	المؤلف	حافظ وهبه
قلب جزيرة العرب	المؤلف	فؤاد حمزه
ما رأيت وما سمعت	المؤلف	خير الدين الزركلي – القاهرة ١٩٢٣
مذكرات سياسي تركي	(مترجم)	احمد جمال باشا
مذكراتي		الملك عبد الله بن الحسين

Military Operations in Egypt and Palestine

الأعمال الحربية في فلسطين ومصر

The Arab Awakening by G. Antonius

اليقظة العربية – لجورج انطونيوس

Seven Pillars of Wisdom by T.E. Lawrence

أعمدة الحكمة السبعة – تأليف لورنس

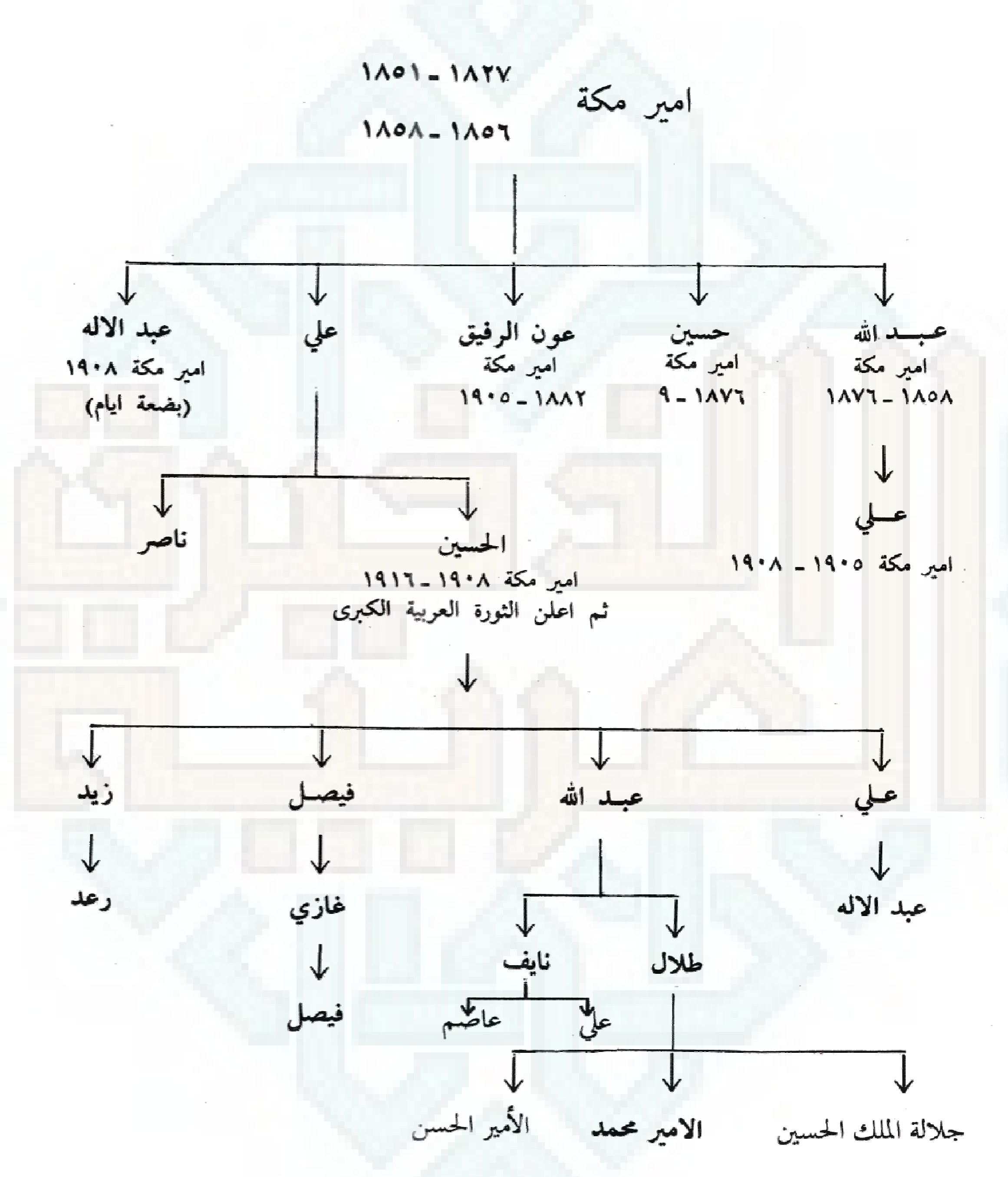
Orientations, by Sir R. Storrs

المشرقيات – للسير رونالد ستورس

ومصادر كثيرة اخرى

ذوو عون

محمد بن عون بن عبد المعين بن ابي نمي





فهرس المحتويات

القسم الثاني

في طريق الحرية

القسم الثالث

النضال حتى النصر

كتب تاريخية أخرى للمؤلف

تاريخ الأردن في القرن العشرين ، الطبعة الأولى ، عمان ١٩٥٩ الطبعة الثانية ، مكتبة المحتسب ، عمان ، ١٩٨٩.

لورنس والعرب : وجهة نظر عربية ، عمان ١٩٦٢ (تُرجم ونُشر في اللغات الانجليزية ١٩٦٦، والفرنسية ١٩٧٣ ، واليابانية ١٩٨٨). الطبعة الثانية ، وزارة الثقافة ، عمان ، ١٩٩٢.

الثورة العربية الكبرى : وثائق وأسانيد ، منشورات دائرة الثقافة والفنون ، عمان ، ١٩٦٦.

صور من البطولة : عمان ١٩٦٨ ، الطبعة الثانية ، وزارة الثقافة والتراث القومي ، عمان ، ١٩٨٨.

الحركة العربية : ١٩٠٨ – ١٩٢٤ ، المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، دار النهار للنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٠ ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦.

تأسيس الامارة الاردنية ١٩٢١ – ١٩٢٥ : عمان ، الطبعة الأولى ١٩٧١ ، الطبعة الثانية ١٩٧٢ ، الطبعة الثالثة ، مكتبة المحتسب ١٩٨٩.

المراسلات التاريخية : الثورة العربية الكبرى ١٩١٤ – ١٩٢٤ : ثلاثة اجزاء ، عمان ، الجزء الأول ١٩٧٣ ، الجزء الثاني ١٩٧٥ ، الجزء الثالث ١٩٧٨.

وجوه وملامح : وزارة الثقافة والشباب ، عمان ، ١٩٨٠.

أيام لاتُنسى : الاردن في حرب ١٩٤٨ : عمان ، ١٩٨٢.

أعلام من الاردن : هزاع المجالي ، سليمان النابلسي ، وصفي التل ، عمان ١٩٨٦.

الثورة العربية الكبرى ، **الحرب في الحجاز ١٩١٦** – ١٩١٨ : عمان ، ١٩٨٩.

صفحات مطوية ، **مفاوضات المعاهدة بين الشريف حسين وبريطانيا ١٩٢٠ – ١٩٢٤** : وزارة الثقافة والشباب ، ١٩٧٧.

امارة شرقي الاردن ، **نشأتها وتطورها في ربع قرن ١٩٢١ – ١٩٤٦** : منشورات لجنة تاريخ الأردن ، عمان ١٩٩٠.



منشورات

لجنة تاريخ الأردن

رقم (٢٢)

رجب الفرد ١٤١٣هـ

كانون الثاني (يناير) ١٩٩٣م

(

العنوان البريدي : ص.ب (٩٥٠٣٦١) عمّان– الأردن

العنوان البرقي : آل البيت – عمّان

التلكس : 22363 Albait Jo, Amman – Jordan

الفاكس : ٨٢٦٤٧١

الهاتف : ٨١٥٤٧١-٨١٥٤٧٤

رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية
(١٩٩٢/١٢/٩٨٤)


الذخيرة العربية



الطابعون
جمعية عمال المطابع التعاونية
هاتف ٢-٦٣٧٧٧١ ص. ب٨٥٧-فاكس ٦٣٧٧٧٣
عمان - الأردن